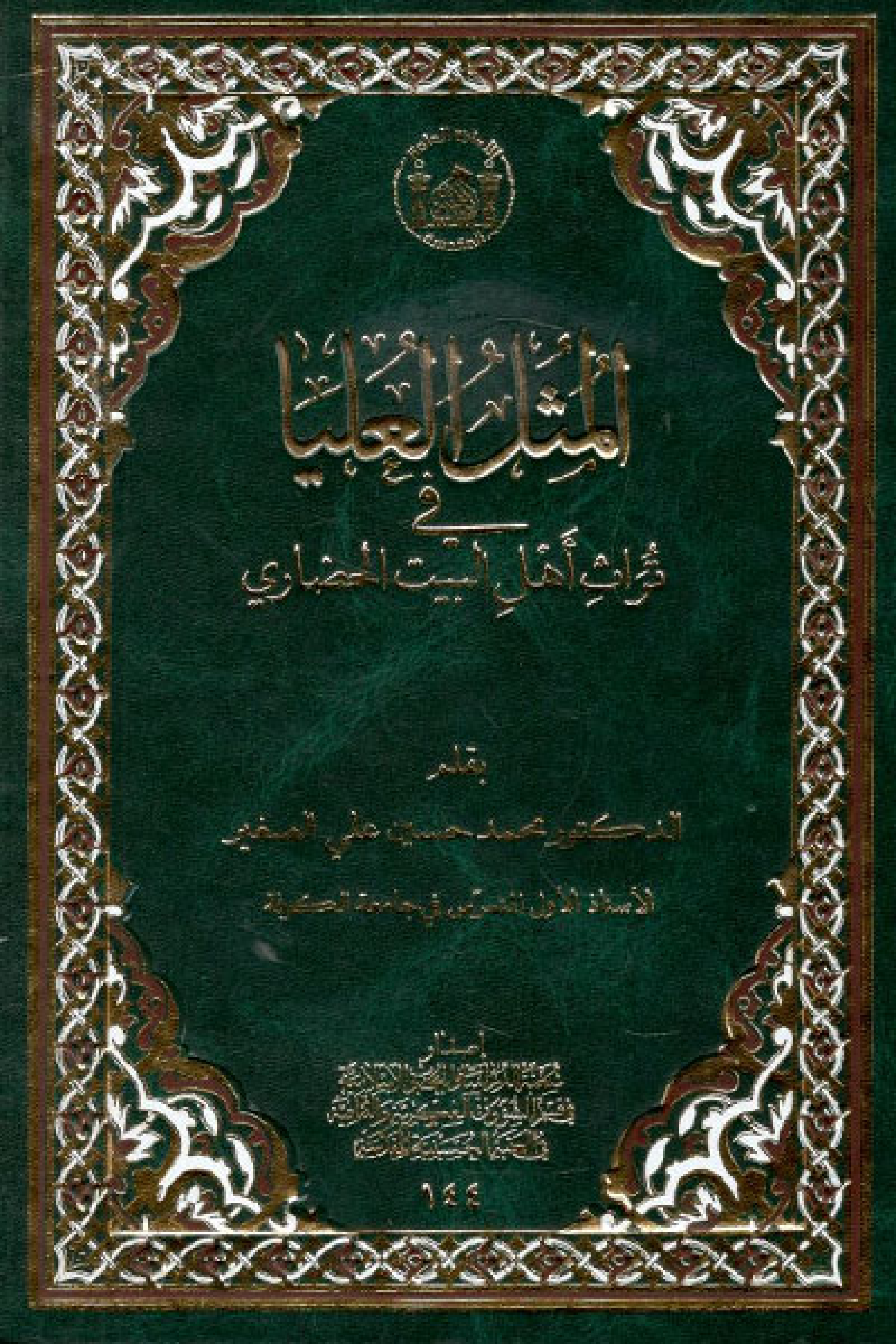

المُثُل العُليا
في
تُراثِ أهلِ البيت الحضاري
بقلم
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة
إصدار
١٤٤



المُثُلُ العُليا في تُراثِ أَهْلِ البيت الحضاري

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ـ وزارة الثقافة العراقية لسنة ٢٠١٤ - ٢١١٧

الصغير، محمد حسين علي، ١٩٣٩-

المُثُل العليا في تراث اهل البيت الحضاري / بقلم محمد حسين علي الصغير. - الطبعة الأولى . - كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية . شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية ١٤٣٥ق. = ٢٠١٤م.

ص٣٦٧. - (قسم الشؤون الفكرية والثقافية؛ ١٤٤).

المصادر: ص ٣٥٥ - ٣٥٧؛ وكذلك في الحاشية.

١ . الأربعة عشر معصوم - الاخلاق - احاديث . ٢. الأربعة عشر معصوم - آثار. ٣. الأربعة عشر معصوم - في القرآن. ٤ . الأخلاق الاسلامية - الشيعة. ٥ . أحاديث أخلاقية. ٦ . حديث الشيعة - رواية . ٧ . القرآن - دفع مطاعن. ٨ . عقائد الشيعة الامامية . ٩ . الوعظ والارشاد. ألف. السلسلة. ب . العنوان

BP 36 . S2 2014

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة



بقلم

الدكتور محمد حسين علي الصغير

الأستاذ الأول المتمرّس في جامعة الكوفة

إصدار
شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية
في قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م



العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: ٣٢٦٤٩٩

www.imamhussain-lib.com
E-mail: info@imamhussain-lib.com

بسمهِ تعالى وبهِ نستعين

المقدمة

في حياة العظماء غنى من العطاء، وإثراء في المسيرة الإنسانية من الهبات الروحية، ولمحات ذات إشعاع أنيق تجذب إليها من نأى عنها ليكون قريباً منها.

وهكذا كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومون عليهم السلام شعلة من النور لا تخبو، ومعيناً من الإفاضة لا ينضب.. وفي ضوء ذلك ارتفعوا بالإنسان المسلم إلى الذروة من التوجيه والنصح الكريم، ليحتلّ مكانته الممتازة على مدى العصور، وقد أثمر هذا السمو الرفيع أن خلق كوكبةً من القادة والهداة في كل جيل، يتوارث منه الخلف عن السلف تلك الأمجاد الشامخة التي لا تحد بحدود، فهي تتجاوز أبعاد الزمان والمكان، وتتحدى عواصف النكبات والنكسات لتستقر في مستودع حضاري من الآثار والطرائف والعبر والعظات.

وحينما أكملت بتوفيق من الله تعالى (موسوعة أهل البيت الحضارية) في أربعة عشر مجلداً، وتوجتها في مجلد ضخم عن الرسول الأعظم، أحببت أن أتبعها برديفها من المثل العليا في تراث أهل البيت عليهم السلام، فكانت هذه الشذرات الثمينة التي التقطتها من خضم بحرهم الزاخر بالأدب والعرفان والوعي العظيم، فكم من حكمة التمستها من مكانها، وكم من جوامع الكلم السائرة وقفت عندها موقف المتأني المتأمل شارحاً، ومعلقاً وموضحاً ومنظراً وهي تصب كلها في مجرى التجديد والرشد والأصالة مما شكل روافد من المثل العليا التي لا تجارى، والأهداف النبيلة التي لا تبارى، وظواهر الإصلاح الاجتماعي رفيقاً ورقيقاً في آن واحد.

وسميت هذا الجهد المتواضع من عملي هذا:

«المثل العليا في تراث أهل البيت الحضاري» عسى أن يجد فيه الفكر المتنوّر تقويماً للسلوك الإنساني، وإصحاراً به من عالم المادة إلى عالم الحياة الخالدة.

وكانت طبيعة هذه الرسالة أن انتظمت في أربعة فصول كالآتي:

الفصل الأول، وكان بعنوان: «المثل الروحية»، وقد أشتمل على المباحث الآتية:

١ - القرآن العظيم في آثار أهل البيت.

٢ - الاحتجاج وعلم الكلام في ضوء التوحيد.

٣ - الإخبات والإنابة لله تعالى.

٤ - حياة الدنيا والآخرة وعالم الغيب.

وكان الفصل الثاني بعنوان: «المثل الأخلاقية»، وقد أشتمل على المباحث الآتية:

١ ـ السلوك الإنساني ومكارم الأخلاق.

٢ ـ نظرات في العفو والغضب والمغفرة.

٣ ـ من مساوئ الأخلاق: الغيبة والحسد والعجب.

٤ ـ بر الوالدين وصلة الأرحام.

وكان الفصل الثالث بعنوان: «المثل المتقابلة»، وقد أشتمل على المباحث الآتية:

١ ـ الرسالة واستعلاء الطواغيت.

٢ ـ ظواهر الابتلاء وعوائد العافية.

٣ ـ مكاره الدهر وانتظار الفرج.

٤ ـ ارتكاب الذنوب والغفلة عن ذكر الله.

وكان الفصل الرابع بعنوان: «المثل الاجتماعية»، وقد اشتمل على المباحث الآتية:

١ ـ أفضل الأعمال في الموروث الإسلامي.

٢ ـ فضائل العلم ومنازل العلماء.

٣ ـ قضاء الحوائج في الميزان.

٤ ـ أدب الدعاء وتهذيب النفس.

وهذه المباحث عبارة عن مقالات حديثية مبرمجة على هذه العنوانات، وقد نظرت فيها الى قول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى أبي الصلت الهروي فيما رواه الصدوق: قال الإمام الرضا عليه السلام لأبي الصلت: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا»

فقال له أبو الصلت فكيف يحيى أمركم؟.

قال الإمام الرضا عليه السلام: يتعلم علومنا، ويعلمها الناس، فأن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا»[١].

والإمام واثق بما قال عندما يدعو الى تعلم علوم أهل البيت عليهم السلام وتعليم الناس لها من مواردها النقية.

وكانت مصادر البحث ومراجعه قد استقت الأحاديث من ينابيعها الأولى في كتب الحديث الأربعة عند الإمامية، وكتب الحديث عند الجمهور، والموسوعات الحديثية الأخرى، كوسائل الشيعة للحر العاملي، وبحار الأنوار للعلامة المجلسي، وسواها من المجاميع وروافد الروايات.

وهذه الأحاديث في البحث على قسمين:

الأول: ما ادخرته لنفسي وأثبت نصوصها كما هي لديّ دون الرجوع إلى مصدر، وأبقيتها على حالها حفظاً أو استنساخا. فهي سنن وتعليمات وآداب.

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ٣٠٧.

والثاني: ما أرجعته إلى مصادره الأصلية بأسمائها وأجزائها وصفحاتها أو أرقام أحاديثها وما أشبه ذلك.

وكان الوازع الديني، وتذكير النفس، والدلالة على منهج الحق لإخواني وتلاميذي وأصدقائي وأحبابي، وطلبة العلوم الدينية، والدراسات العليا، والجيل الأكاديمي، هو الهدف من وراء ذلك، رجاءً لما عند الله عزّ وجل، والفضل له وحده في ما أوردت عسى أن يتقبل من عبده الذليل العاصي.

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير



الفصل الأول

المُثُلُ الرُّوحيَّة

١ - القران العظيم في آثار أهل البيت

٢ - الاحتجاج وعلم الكلام في التوحيد

٣ - الإخبات والإنابة لله تعالى

٤ - حياة الدنيا والآخرة وعالم الغيب

القرآن العظيم في آثار أهل البيت

القرآن الكريم كتاب الله الأكبر، ورسالة الإسلام العظمى، له ظاهر وله باطن، وفيه خبر من قبلنا وخبر من بعدنا، وعليه المعوّل في استنباط أحكام الشريعة المقدسة، وبه علم ما كان ويكون من ملكوت السماوات والأرض، والحديث عنه متوافر في كتب علوم القرآن والتفسير، وقد وردت الآثار الشريفة في الحث على التعمق فيه، والتدبر بآياته، والتبصر في جميع مكوناته، ومن تلك الآثار:

١. «أثيروا دقائق القران».

٢. «من أراد العلم فليثور القران».

٣. «أثيروا القران فان فيه خبر الأولين والآخرين».

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«أن البيوت التي يصلى فيها بالليل ويتلى فيها القران، تضئ لأهل

السماء كما يضئ الكوكب الدري لأهل الأرض».

ودلالة هذه المأثورات واضحة المعالم في إرشاد الناس الى حقائق القران ودقائقه، والعمل بمحكم آياته وإمعان النظر في معانيه ومغازيه، والامتثال لأوامره ونواهيه، والاعتبار بحكمه وأمثاله، وإثارة ما في مكنوناته من العبر والقصص وتأريخ الأمم والشعوب، والتأمل في إشاراته ولفتاته. والاستقاء من نمير علومه ومعارفه، والانتقال بين رياضه وظلاله، فقد لا يدرك القرآن إلا بالرجوع الى أصوله وفروعه من ينابيعها الأولى، وقد أجمع علماء الأمة أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام هو المرجع الأعظم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كشف تلك الكنوز الثمينة التي أشتمل عليها، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية من القرآن إلا أقرأنيها، وأملاها عليّ فكتبتها بخطه، وعلمني تأويلها، وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها».

وبهذا يكون الإمام علي عليه السلام مدوّن القرآن من فم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومؤسس علوم القرآن، ومبرمج الدراسات القرآنية المتخصصة في ضوء ما سبق من قوله، وفي ظل ما فيه من تفسيره وكشف أسراره، ومعرفته بعلومه كافة.

وليس في هذا التقدير والتقرير آية مبالغة ومغالاة على الإطلاق،

ويعضده قوله عليه السلام:

«سلوني قبل أن تفقدوني، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية في ليل نزلت أو نهار، مكّيها ومدنيها، سفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها تأويلها وتنزيلها، لأخبرتكم به».

لذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام أسبق القوم الى معرفة القرآن، وأول من فتق القول بهذه العلوم، فهو المفسر والشارح والحافظ والمؤول، ويضاف إلى هذا كله أنه صلوات الله عليه قد جمع القرآن العظيم بحسب النزول، وقد بحثنا ذلك في كتابنا «تأريخ القرآن» في فصل «جمع القرآن».

قال العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين - قدس سره - في المراجعات:

«وأول شيءٍ دونه أمير المؤمنين عليه السلام كتاب الله عز وجل، فأنه بعد فراغه من تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آلى على نفسه أن لا يرتدي إلا للصلاة أو يجمع القرآن، فجمعه مرتباً على حسب النزول».

وقد ندب أمير المؤمنين إلى الاتجاه نحو القرآن، وعدم تركه إلى غيره، وأعتبر فهم القرآن وقراءته وتدبره دليل الفقهاء فيما روي أنه قال لأصحابه:

«ألا أخبركم بالفقيه حقاً؟».

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين!! فقال عليه السلام:

«من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم

يرخص لهم في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبة عنه الى غيره. ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقه».

ومن أعطي حمل القرآن وفهمه، فقد أعطاه الله كنزاً لا يفنى، ولو قورن ذلك بملك الدنيا، لكان القرآن أفضل مما ملك. فقد ذكر السيد المرتضى علم الهدى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«لا ينبغي لحامل القرآن أن يظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي، لأنه لو ملك الدنيا بأسرها لكان القرآن أفضل مما ملك».

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«البيت الذي يقرأ فيه القرآن، ويذكر الله عز وجل تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضئ لأهل السماء كما تضئ الكواكب لأهل الأرض، وأن البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن، ولا يذكر الله عز وجل فيه تقل بركته، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين».

ولو قدّر لأمير المؤمنين عليه السلام أن يتولّى قيادة الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأرتفع بمستوى الأمة إلى قمة الفقاهة والأصالة، ولجمع البشرية في نظام واحد، يستلهم من كتب الله المنزلة معارفها، ومن آيات القرآن مداخلها ومخارجها فقد روي عنه انه قال:

«لو كسِرت لي الوسادة ثم جلست عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل ألزبور بزبورهم، وبين أهل

الفرقان بفرقانهم.

والله ما من آية أنزلت في بر أو بحر، أو سهل أو جبل، أو سماء أو أرض، أو ليل أو نهار، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وفي أي شيء نزلت».

وقد روي المناوي في «فيض القدير» عن أبي حامد الغزالي أنه قال: «قد علم الأولون والآخرون أن فهم كتاب الله منحصر الى علم علي عليه السلام، ومن جهل ذلك، فقد ضل عن الباب الذي من ورائه يرفع الله عن القلوب الحجاب، حتى يتحقق اليقين الذي لا يتغير بكشف الغطاء».

قال السيد محمد السيد علي نقي الحيدري رحمه الله:

«إن الغزالي يشير بقوله «فقد ضل عن الباب» إلى قول النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

ويشير بقوله: «حتى يتحقق اليقين الذي لا يتغير بكشف الغطاء» إلى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

والقرآن يضم بين دفتيه تبيان كل شيء، ويكشف عن كل أمر مختلف بين الناس، فعن الأمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله عز وجل؟، ولكن لا تبلغه عقول الرجال».

ولهذا أمر الأئمة عليهم السلام بقراءة القرآن يومياً لأنه عهد الله إلى خلقه فقد روي عن الأمام الصادق عليه السلام أنه قال: «القرآن عهد الله إلى خلقه، فينبغي للمسلم أن ينظر في عهده، وأن يقرأ منه كل يوم خمسين آية».

ويبدو أن قراءة القرآن في المصحف أفضل من قراءته على ظهر قلب، لأن النظر في المصحف عبادة، فعن إسحاق بن بكار، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام (يعني الإمام الصادق): جعلت فداك إني أحفظ القرآن على ظهر قلبي، فأقرؤه على ظهر قلبي أفضل أو أنظر في المصحف؟ قال: «بل أقرأه وأنظر في المصحف؛ أما علمت أن النظر في المصحف عبادة».

وقد روي في هذا الملحظ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ بالمصحف متّع ببصره وخفف الله عن والديه».

وكانت سيرة السلف الصالح ختم القرآن كل على حسبه، فقد روي أبو جعفر المؤدب أن أبا إسحاق عمر بن عبد الله السبيعي «وهو من ثقات الإمام زين العابدين عليه السلام صلى أربعين سنة الغداة بوضوء العتمة!!، وكان يختم القرآن في كل ليلة، ولم يكن في زمانه أعبد منه، ولا أوثق في الحديث عن الخاص والعام».

وتحدث الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن القرآن الكريم في كلياته ودقائق خصائصه، فروي انه قال: «كتاب الله على أربعة أشياء: على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء».

وينبغي النظر في خزائن القرآن، والتبصر فيها بدقة وإمعان، فقد ورد عن زين العابدين عليه السلام أنه قال:

«آيات القرآن خزائن كلما فتحت خزائنه ينبغي لك أن تنظر فيها».

وعلى قارئ القرآن أن يرى فيه بعين البصيرة، وأن يميز بين آراء المفسرين له، ولا يأخذ الأحكام على عواهنها، فقد تشكل فيه بعض القضايا، وقد تنعقد، ولكن النظر الفاحص المبتني على الإدراك السليم يبدّد ذلك.

فقد ذهب بعض المفسرين - سامحهم الله - إن الذي: «عبس وتولى» هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما دخل عليه إبن أمّ مكتوم وعنده صناديد قريش.

وقد رد السيد المرتضى علم الهدى قدس سره هذا الزعم ورفضه مستنداً الى ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إن الذي عبس كان رجلاً من بني أمية لا النبي صلى الله عليه وآله.

قال السيد المرتضى: «إن العبوس ليس من صفاته مع الأعداء المباينين، فضلاً عن المؤمنين المسترشدين، وكذا التصدي للأغنياء والتلهي عن الفقراء، ليسا من سماته، كيف وهو القائل «الفقر فخري» والوارد في شأنه «وإنك لعلى خلق عظيم»».

* * *

والأئمة عليهم السلام يصدر بعضهم عن بعض في علمهم، لأن مصدره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والعلم اللدني، ولقد كان للقرآن في فكر الإمام الرضا عليه السلام وهج خاص متسع، وكذلك الأئمة من أبنائه، فاخترته نموذجاً يقف عنده المتلقي موقف الإنصات والاعتبار، وهو بذلك يمثل وجهة نظر أهل البيت في القرآن، وكذلك الأئمة من بعده،

وهو يعرض بإيجاز دقيق لأهم مبانيه، وتدبر معانيه، وقد عبر عنه بالقول: «إنه المهيمن على الكتب كلها، وأنه حق من فاتحته الى خاتمته نؤمن بمحكمه ومتشابهه وخاصه وعامه ووعده ووعيده وناسخه ومنسوخه وقصصه وأخباره، لا يقدر أحد الملحوقين أن يأتي بمثله»[١].

ويتحدث الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن القرآن بالقول:

«هو حبل الله المتين وعروته الوثقى، وطريقته المثلى المؤدي الى الجنة، المنجي من النار، لا يخلق على الأزمنة، ولا يغث على الألسنة، لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان والحجة على كل إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد...»[٢].

وفي العرض ألمح الإمام عليه السلام إلى إعجاز القرآن من وجه، والى سيرورته وعالميته من وجه آخر.

وكان عليه السلام يختم القرآن في ثلاثة أيام...»[٣].

«وكان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن، فإذا مر بآية فيها ذكر الجنة والنار بكى وسأل الله الجنة، وتعوذ من النار»[٤].

وكانت ريادة الإمام الرضا عليه السلام في الغوص بأعماق القرآن ضمن

---

(١) الصدوق عيون أخبار الرضا: / ٢/ ١١٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ١٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢/ ١٨٠.

(٤) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ٢/ ١٨٠.

إيحاء تقويمي للذات الإنسانية، ولأول مرة في تأريخ القرآن نشاهد الإمام الرضا عليه السلام يرى من خلال إعجاز القرآن: أن معجزة كل نبي تتمشى باتجاه ما يلاءم عصر ذلك النبي، وبما ينسجم مع فنون جيله، ويتقارب من تجارب زمنه، ويعزى إلى حياة قومه، ولو في وجه بارز من الوجوه الناظرة للأعجاز.

فقد سأل ابن السكيت الإمام الرضا عليه السلام قائلاً: «لماذا بعث الله عز وجل موسى بن عمران بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بالطب، وبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكلام والخطب؟.

قال الإمام الرضا عليه السلام في جوابه:

«إن الله تبارك وتعالى لما بعث موسى عليه السلام كان الأغلب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجة عليهم.

وأن الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات، وأحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا به الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بأذن الله، وأثبت به الحجة عليهم.

وأن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام وأظنه قال: الشعر - فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت الحجة عليهم.

فقال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك قط! فما الحجة على الخلق اليوم؟ قال الإمام: «العقل فيعرض به الصادق على الله فيصدقه، والكاذب

على الله فيكذبه» فقال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب[١].

والإمام عليه السلام يدعو إلى ظاهرة أخرى في ردّه متشابه القران إلى محكمه كما في قوله عليه السلام:

(ومن ردّ متشابه القران إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم)[٢].

ولما كان الإمام من الراسخين في العلم، فهو أولى من يرد متشابه القران إلى محكمه. وعني الإمام بالتفسير الدلالي للقران، والذي تترشح عنه نظرية (معنى المعنى) والإمام في إفاضته التفسيرية يؤكد على المعنى الأولي في الآية كما يؤكد على المعنى الثانوي والإضافي لها، وقد نهض الإمام الرضا عليه السلام بهذه المهمة مظفراً، وسجل فيها سبقاً علمياً وفكراً موضوعياً.

فقد سأل رجل الإمام عليه السلام عن معنى قوله تعالى:

﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[٣].

فأفاض الإمام عليه السلام مبادئ المعاني للتوكل على الله تعالى، وأضاف المفاهيم الدلالية لدرجات التوكل على الله، وأهمية تفويض العبد أمره إلى الله، فقال: «التوكل درجات منها: أن تثق به في أمرك كله فيما فعل لك فما فعل بك كنت راضياً وتعلم انه لم يأتك إلاّ خيراً ونظراً وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل عليه بتفويض ذلك إليه، ومن ذلك الإيمان بغيوب

---

(١) الكليني / أصول الكافي: ١/٢٤.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/٢٩٠.

(٣) سورة الطلاق / ٣.

الله التي لم يحط علمك بها، فوكلت علمها إليه والى أمنائه عليها وثقب فيها وفي غيرها»[١].

وكان نهج الإمام الرضا عليه السلام في إرادة المعاني الثانوية للآية متوافراً على لمسات حية يعرضها الإمام بأداء مقارن لطبيعة التوجه من السؤال فيما يتردد بين العلماء من آراء وبحوث.

روى الحسن بن علي بن فضال قال سألت الرضا علي بن موسى عليه السلام عن قوله عز وجل ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[٢].

فقال الإمام عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان يحل فيه فيحجب عنه عباده، ولكنه يعني أنهم عن ثواب ربهم محجوبون)[٣].

وهنا نلحظ تنزيه الإمام عليه السلام للباري عز وجل بتجرده عن المكان، وأعطى للآية دلالتها الإيحائية في حجب العباد عن الثواب.

وسئل عن قوله ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٤].

فقال الإمام: «إن الله عزّ وجل لا يوصف بالمجئ والذهاب، تعالى الله عن الانتقال، إنما يعني بذلك: وجاء أمر ربك والملك صفاً صفاً»[٥].

---

(١) ابن شعبة / تحف العقول: ٤٤٣.

(٢) سورة المطففين / ١٥.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/١٢٥.

(٤) سورة الفجر / ٢٢.

(٥) الصدوق / عيون أخبار الرضا / ١/١٢٥.

قال: وسألته عن قول الله عز وجل: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)].

وعن قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[(٢)].

وعن قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[(٣)]. فقال الإمام الرضا عليه السلام: «إن الله لا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يمكر، ولا يخادع، ولكنه عز وجل يجازيهم جزاء السخرية، وجزاء الاستهزاء، وجزاء المكر والخديعة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[(٤)].

وثمة انطلاقات قيمة للإمام في مجال التوحيد من خلال تفسيره للقرآن، ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[(٥)]. قال الإمام الرضا عليه السلام: «للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: نفي وتشبيه، واثبات بغير تشبيه، فمذهب النفي لا يجوز ومذهب التشبيه لا يجوز، لان الله تبارك وتعالى لا يشبهه شيء، والسبيل بالطريق الثالث إثبات بلا تشبيه».

روى هذا السيد الطباطبائي في الميزان، وعلق عليه شارحاً: «والمراد بمذهب النفي: نفي معاني الصفات عنه تعالى، كما ذهبت إليه المعتزلة. وفي معناه إرجاع الصفات الثبوتية إلى نفي ما يقابلها، كالقول بأن معنى القادر أنه

---

(١) سورة التوبة / ٧٩.

(٢) سورة آل عمران /٥٤.

(٣) سورة النساء / ١٤٢.

(٤) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/١٢٦.

(٥) سورة الأنعام / ١٩.

ليس بعاجز، ومعنى العالم أنه ليس بجاهل. والمراد بمذهب التشبيه أو يشبهه تعالى بغيره – وليس كمثله شيء – أي أن يثبت له من الصفة معناه المحدود الذي فينا المتميز من غيره من الصفات، بأن يكون قدرته كقدرتنا، وعلمه كعلمنا، وهكذا، ولو كان ماله من الصفة كصفتنا، أحتاج كاحتياجنا، فلم يكن واجباً، تعالى عن ذلك. والمراد بمذهب الإثبات من غير تشبيه: أن يثبت له من الصفة أصل معناه، وتنفي عن خصوصيته التي قارنته في الممكنات المخلوقة؛ أي تثبت الصفة وتنفي الحدّ»[1].

وفي قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[2]. سئل الإمام عليه السلام عن إرادة العباد وإرادة الله فقال: «إن الإرادة من العباد الضمير، وما يبدو بعد ذلك من الفعل، وأما من الله عز وجل فالإرادة للفعل إحداثه، إنما يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴾[3] بلا تعب ولا كيف»[4].

ونحن نرى الإمام في الآية الأولى متحدثاً عن التوحيد في إطار كلامي وفلسفي، وأن الله واحد لا شريك له، ونفى معاني الصفات عنه، ونفى المعنى المحدود بمذهب التشبيه له تعالى وأثبت للباري من الصفة أصل المعنى مع نفي الحدّ.

---

(١) الطباطبائي / الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٤١ – ٤٢.

(٢) سورة النساء / ٢٦.

(٣) سورة آل عمران / ٥٩، وسواها.

(٤) السبزواري / مواهب الرحمن: ١/ ١٤٠، وانظر مصدره.

وفي الآية الثانية: نرى الإمام متحدثاً حديثاً تكوينياً عن الفروق المميزة بين إرادة الله وإرادة العباد.

وفي الآيتين بدأ البعد الكلامي مسيطراً على التفسير في دلالته وفقاً لما يتطلبه الوعي العقائدي الذي يسعى إليه الإمام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[1]. يقول الإمام الرضا عليه السلام: «إن الله لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنه متى علم أنهم لا يرجعون عن الكفر والضلالة، منعهم المعاونة واللطف، وخلى بينهم وبين اختيارهم..»[2].

وكان الزخم المتصاعد في هذه الإيرادات منطلقاً من سياسة قصد إليها النظام العباسي في إثارة الشبهات من وجه، وإشغال الأمة عن التفكير في مصيرها المتأرجح من وجه آخر، لذا نجد الإمام قد علم دخائل الأمور - جاداً في عطائه الذي لا ينفذ.

وعن عبد العزيز بن مسلم، قال: سألت الإمام الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[3].

فقال: «إن الله لا ينسى ولا يسهو، وإنما ينسى ويسهو المخلوق المحدث، ألا تسمعه عزّ وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[4]، وإنما يجازي من نسيه

---

(١) سورة البقرة /١٧.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا / ١/١٢٣.

(٣) سورة التوبة / ٦٧.

(٤) سورة مريم / ٦٤.

ونسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم كما قال الله عز وجل ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[١]، وقال تعالى ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ... ﴾[٢]، أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا..»[٣].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «الإقرار بأن لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير له، وأنه مثبت قديم، موجود غير مقيد، أنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[٤]»[٥].

وعن إبراهيم بن أبي محمود، وقد سأل الإمام الرضا عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾[٦]. قال الإمام: الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم كما قال عز وجل: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٧].

قال وسألته عن الله عز وجل هل يجبر عباده على المعاصي؟ فقال الإمام

---

(١) سورة الحشر /١٩.

(٢) سورة الأعراف /٥١.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا / ١/١٢٥.

(٤) سورة الشورى /١١.

(٥) الصدوق / عيون أخبار الرضا / ١/١٣٣.

(٦) سورة البقرة /٧.

(٧) سورة النساء / ١٥٥.

بل يخيرهم ويمهلهم حتى يتوبوا.

قلت فهل يكلف عباده ما لا يطيقون؟

فقال: كيف يفعل ذلك؟ وهو يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[١]، ثم قال عليه السلام: حدثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال:

«من زعم أن الله تعالى يجبر عباده على المعاصي، أو يكلفهم ما لا يطيقون فلا تأكلوا ذبيحته، ولا تقبلوا شهادته، ولا تصلُّوا خلفه، ولا تعطوه من الزكاة شيئاً»[٢].

وأنت ترى في جميع هذه الشذرات الثمينة من إفاضات الإمام التفسيرية، أنه لا يعطي المعنى التحليلي أو اللغوي، وإنما يؤكد على المراد الدلالي منها في تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يصفه به بعض المتكلمين، فهو في هذا كله يبحث عن (معنى المعنى) في الآية.

وكما نزه الإمام الله تعالى في هذا النحو من التفسير، فقد نزه الأنبياء عن الزلل والخطل والشرك والذنب في موارد كثيرة، وهنا نورد إجابته عليه السلام لصفوان بن يحيى، وهو يسأل عن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٣].

قال للإمام: أكان في قلب إبراهيم شك؟.

---

(١) سورة فصلت /٤٦.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا / ١/١٢٣ - ١٢٤.

(٣) سورة البقرة / ٢٦٠.

قال الإمام: لا، كان على يقين، ولكنه أراد من الله الزيادة في يقينه»[١].

وللإمام الرضا عليه السلام أبعاد موضوعية في التفسير العام للقرآن، وكشف المراد منه، ولم يكن رجوع العلماء والسائلين للإمام عليه السلام في بيانه لمبهمات القرآن، ولا الاتجاه والالتجاء إليه في تفسير آيات القرآن أمراً اعتباطيا، بل كان نظراً موضوعياً يعتمد الإمعان والتدقيق ويرفض الارتجال.

فالإمام من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل القرآن، ومورده أعذب الموارد التي يصدر عنها الناس، فهو نبع صافٍ خالٍ من الشوائب، يتحرى البيان البهي دون إبهام، ويتبنى الإيضاح السليم دون إغلاق، يبتعد عن مبهم الدلالة وينأى عن غريب التعبير، فجاء تفسيره العام لآيات من القرآن سمحاً ينساب برقة، وغزيراً يتدفق بدفء، وهو يمتلك كآبائه وأبنائه من الأئمة المعصومين تلك الأداة المعبرة عن المعنى القرآني بأسلوب رائع رصين[٢].

ونماذج تفسير الإمام لكثير من آيات القرآن، ينهض بعمل أكاديمي مستقل، وذلك لأتساعها وشمولها وإحاطتها، ولا يسعنا إلا أن نقتطف باقة ذكية من ذلك الحقل البهيج، وللمتلقي أن يستدل على ما نذكره على ما لم نذكر.

فعن أبي الصلت الهروي، قال: سأل المأمون أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

---

(١) القمي، التفسير / تفسيره للآية.

(٢) ظ: المؤلّف / الإمام علي الرضا / قيادة الأمة وولاية العهد: ١٣٣.

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[١]. فقال الإمام الرضا عليه السلام:

إن الله تبارك وتعالى خلق العرش والماء والملائكة قبل خلق السماوات والأرض، فكانت الملائكة تستدل بأنفسها وبالعرش وبالماء على الله عز وجل ثم جعل عرشه على الماء ليظهر بذلك قدرته للملائكة، فيعلموا أنه على كل شيء قدير.

ثم رفع العرش بقدرته ونقله وجعله فوق السماوات السبع، ثم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهو مستوٍ على عرشه، وكان قادراً أن يخلقها في طرفة عين، ولكنه تعالى خلقها في ستة أيام ليظهر للملائكة منها شيئاً بعد شيء، فيستدل بحدوث ما يحدث مرة بعد مرة ولم يخلق الله العرش لحاجة به إليه، لأنه غني عن العرش، وعن جميع ما خلق، لا يوصف بالكون على شيء لأنه ليس بجسم، تعالى عن صفة خلقه علواً كبيراً.

وأما قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. ﴾[٢]، خلقهم ليبلوهم بتكليف طاعته وعبادته، لا على سبيل الامتحان والتجربة، لأنه لم يزل عليماً بكل شيء..»[٣].

ومن بديع ما ذهب إليه الإمام الرضا عليه السلام ما أجاب به الحسين

---

(١) سورة هود / ٧.

(٢) سورة هود / ٧.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/١٣٤ - ١٣٥.

بن خالد عندما سأل الإمام: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾[١]. قال الإمام: هي محبوكة الى الأرض، وشبك بين أصابعه.

فقلت: كيف تكون محبوكة الى الأرض والله يقول ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[٢].

فقال الإمام: أليس الله يقول: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[٣].

فقلت بلى، فقال الإمام: فثم عمدٍ ولكن لا تروها»[٤].

وقد يجيب الإمام بإيجاز بليغ، مؤكداً على المعنى بتعبير حي.

ففي قوله تعالى: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾[٥].

قال الإمام: العفو من غير عتاب[٦].

وكذلك هي الحال في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[٧].

قال الإمام عليه السلام: خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم[٨].

---

(١) سورة الذاريات / ٧.

(٢) سورة لقمان / ١٠.

(٣) سورة لقمان / ١٠.

(٤) القمي / التفسير / تفسيره الآية.

(٥) سورة الحجر / ٨٥.

(٦) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٩٤.

(٧) سورة الرعد / ١٢.

(٨) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٩٤.

وحدّث ياسر الخادم قال: سمعت الإمام أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «إنَّ أوحشَ ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن:

يوم يولد، ويخرج من بطن أمه ويرى الدنيا.

ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها.

ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها.

وقد سلم الله على يحيى في هذه المواطن الثلاثة وأمن روعته، فقال ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾[١].

وقد سلم عيسى على نفسه في هذه الثلاثة مواطن فقال: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ۝٣٣ ﴾[٢].

وأكد الإمام الرضا عليه السلام على قيادة أئمة أهل البيت حينما سئل عن قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[٣]. فحدث الإمام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن المراد بأولي الأمر في الآية: «الأئمة من ولد علي وفاطمة الى أن تقوم الساعة»[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧

---

(١) سورة مريم / ١٥.

(٢) سورة مريم / ٣٣.

(٣) سورة النسا / ٥٩.

(٤) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ٢/١٣١.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾[١]. كشف الإمام النقاب عما يجول في أحاسيس الناس من الشبهات البعيدة عن الفهم القرآني الأصيل وقد أجاب بذلك المأمون: قال الإمام: قال الله تعالى لنبيه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾[٢]. يقول ألم يجدك وحيداً فآوى إليك الناس؟

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾[٣] يعني عند قومك «فهدى» أي هداهم الى معرفتك ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[٤].

يقول أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً.

فقال المأمون: بارك الله فيك يا ابن رسول الله[٥].

وقد يتناول الإمام الآية بفكر جديد،، يخوض به أبعادها الى تلك الوظيفة الرادعة التي تحمل الإنسان على الكف عن المعاصي بإرادة نفسية، وقد تتجه به إلى الله تعالى في لمحة خاطفة تمثل صدق النية وتأنيب الضمير، عسى أن يخفف الله العقاب ويدرأ العذاب.

فالإمام عندما يقف عند قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ

---

(١) سورة الضحى / ٦ – ٨.

(٢) سورة الضحى / ٦.

(٣) سورة الضحى / ٧.

(٤) سورة الضحى / ٨.

(٥) البحراني / البرهان في تفسير القرآن: تفسيره للآيات.

حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾[١]. فانه عليه السلام يذكر تلك الحالة المؤثرة التي كان عليها قوم يونس وهم يستقبلون من ذنوبهم، ويستقبلون التوبة الصادقة من أعماقهم ويضجون الى الله تعالى منيبين مستغفرين، فيقول: «إن يونس أمره الله بما أمره، فأعلم قومه، فأظلهم العذاب، ففرقوا بينهم وبين أولادهم، وبين البهائم وأولادها، ثم عجّوا الى الله، وضجوا، فكفّ الله العذاب عنهم»[٢].

والإمام حينما يتحدث عن الهداية والضلال في مدارج قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٣].

فانه يعهد بالتفسير العام للآية إلى الإيماء بالهداية بمرغباتها، والى التحذير من الضلال بالابتعاد عن مسبباته فيقول عليه السلام:

«... من يرد الله أن يهديه بأيمانه في الدنيا الى جنته ودار كرامته في الآخرة يشرح صدره للتسليم لله، والثقة به، والسكون إلى ما وعده من ثوابه حتى يطمئن إليه «ومن يرد أن يضله» عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به، عصيانه له في الدنيا، يجعل صدره حرجاً ضيقاً حتى يشك في كفره، ويضطرب في اعتقاد قلبه حتى يصير: ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) سورة يونس / ٩٨.

(٢) الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٣٠، نقلاً عن تفسير العياشي.

(٣) سورة الأنعام / ١٢٥.

يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]»[2].

* * *

وكان عصر الإمام محمد الجواد عليه السلام عصر انشطار في الفرق الإسلامية جماعات وتكتلات ومذاهب كلامية، فأتجه الإمام الى إصلاح ما فسد من عقائد المسلمين، وإثراء الشعلة الوهاجة في درب الموحدين من خلال مهمته الرسالية، فشمّر عن ساعديه جداً ونشاطاً وحيوية، فرد الشبهات، وفندّ ما جاء فيها من نزغات جارحة، وأعاد الحق الى نصابه في ضوء معطيات القرآن العظيم. فقد روى أبو هاشم الجعفري قائلاً:

«كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام - يعني الإمام محمد الجواد عليه السلام - فسأله رجل: أخبرني عن الرب تبارك وتعالى، له أسماء وصفات في كتابه، فأسماؤه وصفاته هي هو؟.

فانبرى الإمام محمد الجواد محللاً ومبرمجاً ومقسماً فقال:

«إن لهذا الكلام وجهين، إن كنت تقول: هو هي: أي أنه ذو عدد وكثرة!! فتعالى الله عن ذلك.

وإن كنت تقول: لم تزل هذه الصفات والأسماء فان (لم تزل) يحتمل معنيين: فان قلت: لم تزل عنده فعلمه، وهو مستحقها، فنعم. وإن كنت تقول لم يزل تصويرها، وهجاؤها، وتقطيع حروفها، فمعاذ الله أن يكون معه

---

(١) سورة الأنعام / ١٢٥.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/١٣١.

شيء غيره، بل كان الله ولا خلق، ثم خلقها وسيلة بينه وبين خلقه، يتضرّعون به إليه، ويعبدونه، وهي ذكره، وكان الله ولا ذكر، والمذكور بالذكر هو الله القديم، الذي لم يزل والأسماء والصفات مخلوقات المعاني والمعني بها هو الله الذي لا يليق به الاختلاف والائتلاف، وإنما يختلف ويأتلف المتجزئ، فلا يقال الله مؤتلف، ولا الله كثير، ولا قليل، ولكنه القديم في ذاته، لأن ما سوى الواحد متجزئ والله واحد لا متجزئ، ولا متوهم بالقلة والكثرة، وكل متجزئ متوهم بالقلة والكثرة فهو مخلوق دال على خالق له.

فقولك: إن الله قدير خبرت أن لا يعجزه شيء فنفيت بالكلمة العجز، وجعلت العجز سواه، وكذلك قولك، عالم، إنما نفيت بالكلمة الجهل، وجعلت الجهل سواه، فإذا أفنى الله الأشياء أفنى الصور والهجاء، ولا ينقطع ولا يزال، من لم يزل عالماً.

فقال الرجل فكيف سمينا ربنا سميعاً؟ فقال الإمام الجواد عليه السلام:

«أنه لا يخفى عليه ما يدرك بالإسماع!!، ولم نصفه بالسمع المعقول بالرأس، وكذلك سميناه بصيراً، لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأبصار من لون وشخص وغير ذلك، ولم نصفه بنظر لحظ العين، وكذلك سميناه لطيفاً لعلمه بالشئ اللطيف مثل البعوضة وأخفى، وموضع النشوء منها، والعقل، والشهوة للسفاد والحدب على نسلها، وإفهام بعضها عن بعض ونقلها الطعام والشراب الى أولادها في الجبال والمفاوز والأودية والقفار، فعلمنا أن خالقها لطيف بلا كيف وإنما الكيفية للمخلوق المكيف.

وكذلك سمي ربنا قوياً لا بقوة البطش المعروف من المخلوق، لأحتمل التشبيه ولأحتمل الزيادة، وما أحتمل الزيادة أحتمل النقصان، وما كان ناقصاً كان غير قديم، وما كان غير قديم كان عاجزاً.

فربنا تبارك وتعالى لا شريك له ولا شبيه له ولا ضد، ولا ند، ولا كيف، ولا نهاية، ولا تبصار بصر، ومحرم على القلوب أن تمثله، وعلى الأوهام أن تحده، وعلى الضمائر أن تكونه، جلّ وعزّ عن أداة خلقه وسمات بريته. وتعالى عن ذلك علواً كبيراً»[1].

وينظر إلى إفادة الإمام محمد الجواد في هذا العرض الفلسفي الدقيق في مستويين:

المستوى الأول: كون الإمام عليه السلام منظّراً على سوية عالمية بحيث أستطاع من خلال إجابته المنظمة أن يستوعب قضايا التوحيد في جزيئاتها المتشعبة، فلم يغادر كبيرة ولا صغيرة في موضوع السؤال إلا أستقطبها شرحاً وتفصيلاً ملك على السائل سمعه وبصره وفكره.

المستوى الثاني: أن الإمام عليه السلام بحث ما يسمى بعلم الكلام بالصفات الثبوتية والسلبية وأستدل على مفاهيمها بالدليل البديهي تارة وبالاستقراء المنطقي تارة أخرى فانه سميع، بصير، لطيف لا يشمل الحواس المتداولة فيما تعارفنا عليه، فهو سميع بمعنى أنه لا يخفى عليه ما يدرك

---

(١) ظ: الكليني، الكافي: ١/١١٦ - ١١٧ + الصدوق / التوحيد: ١٤٢ + الطبرسي / الاحتجاج: ٢/٤٦٧ - ٤٦٨.

بالأسماع، وهو بصير بمعنى أن لا يخفى عليه ما يرى بالأبصار، وهو لطيف بمعنى أن علمه باللطيف الدقيق من حقائق الأشياء، وأجناس المخلوقات في حركاتها وسكناتها وتصرفاتها وخفيات الأمور في العوالم المرئية والمتخيلة والمتصورة، وما جرى هذا المجرى، فالله سبحانه وتعالى في هذا الضوء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[١].

ومن هذا الباب سأله أحدهم:

هل يجوز أن يقال لله تعالى: انه شيء؟،

فقال الإمام عليه السلام في هذا الضوء:

«نعم، ويخرجه عن حد التعطيل وحد التشبيه»[٢].

ومن هذا القبيل ما سأله به محمد بن عيسى قائلاً: إني أتوهم، فأجاب الإمام عليه السلام: «نعم، غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، لا يشبهه شيء ولا تدركه الأوهام، إنما يتصور شيء غير معقول لا محدود»[٣].

والإمام عليه السلام يعالج المناظرة في الألفاظ القرآنية، السميع، البصير، العليم، اللطيف، الشيء في صيغة كلامية واضحة بحيث يستوعبها السائل بحسب ثقافته وإدراكه، فتبدو له الإجابة يسيرة الفهم، واضحة البعد دقيقة

---

(١) سورة الشورى /١١.

(٢) الكليني / الكافي: ١/٨٢.

(٣) الصدوق / التوحيد: ١٦٤.

التشخيص[١].

وفي هذا السياق سأله أبو هاشم الجعفري عن قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[٢].

فقال الإمام محمد الجواد - عليه السلام -:

«يا أبا هاشم أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها، لم تدركها ببصرك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون»[٣].

وروى أن أحد أصحابه سأله عن معنى الواحد، فقال عليه السلام: «إجماع الألسن عليه بالوحدانية» كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٤]»[٥].

وفي هذا السياق يسأله داوود بن القاسم عن معنى الصمد في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[٦].

فيقول الإمام: «يعني المصمود إليه في القليل والكثير»[٧].

---

(١) ظ: المؤلف / الإمام محمد الجواد معجزة السماء في الأرض: ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٢) سورة الأنعام / ١٠٣.

(٣) الصدوق / التوحيد: ٦٩.

(٤) سورة الزخرف / ٨٧.

(٥) الكليني / الكافي: ١/١١٨.

(٦) سورة الإخلاص / ٢.

(٧) الكليني / الكافي: ١/١٢٣.

وفي تنزيه الأنبياء في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[1].

قال الإمام الجواد عليه السلام:

«فقد أخذ الله ميثاق النبيين، فكيف يمكن أن يبدل ميثاقه، وكان الأنبياء عليهم السلام لم يشركوا طرفة عين....»[2].

***

وكما كانت إفاضات الإمام محمد الجواد عليه السلام ذات طابع دلالي باعتبار متطلبات العصر في دفع الشبهات وإزالة الشوائب، فإننا نجد ولده الإمام علي الهادي عليه السلام متمحصاً لرد هذه الشبهات والتي تصدر عن البلاط العباسي تارة، وفقهاء السلاطين تارة أخرى.

وكان ذلك ضمن إجابات للإمام عليه السلام اشتملت على قبسات لامعة من أضواء القران الكريم، وهي متعدد الروافد، إلا أن أبرزها ما جاء في إجاباته عليه السلام لقاضي القضاة يحيى بن أكتم في مسائله التي وجهها للإمام، فما كان من الإمام إلا أن نهد للإجابة عليها مع علمه أن الغرض وراء ذلك سياسي محض قصد به التعنت[3].

---

(١) سورة الأحزاب / ٧.

(٢) الطبرسي / الاحتجاج: ٢/ ٢٣٠.

(٣) نصّ إجابات الإمام الهادي عليه السلام جميعاً في تحف العقول لأبن شعبة: ٤٧٧ – ٤٨١، وفي المناقب لابن شهراشوب: ٣/ ٤٣٣، اقتصرنا على ما جاء فيها من قبسات القرآن.

١ - سأله عن قوله عز وجل: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠.. ﴾[١].

فقال الإمام علي الهادي عليه السلام: «فهو آصف بن برخيا، ولم يعجز سليمان عليه السلام عن معرفة ما عرف آصف، ولكن صلوات الله عليه أحب أن يعرف أمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه عند آصف بأمر الله ففهمه ذلك لئلا يختلف عليه في إمامته ودلالته...

٢ - وسال يحيى بن أكثم الإمام عن قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ ﴾[٢].

فأجاب الإمام علي الهادي: أن سجود يعقوب عليه السلام وولده كان طاعة لله ومحبة ليوسف، كما أن السجود من الملائكة لآدم عليه السلام لم يكن لآدم عليه السلام وإنما كان ذلك طاعة لله ومحبةً منهم لآدم عليه السلام، فسجود يعقوب وولده ويوسف عليه السلام معهم كان شكراً لله باجتماع شملهم، ألم تره يقول في شكره ذلك الوقت: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٣].

٣ - وسأله يحيى بن أكثم عن قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

---

(١) سورة النمل / ٤٠.

(٢) سورة يوسف / ١٠٠.

(٣) سورة يوسف / ١٠١.

فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[١].

قال الإمام علي الهادي عليه السلام بعد ذكر الآية:

«فإن المخاطب به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن في شك مما أنزلنا اليه، ولكن قالت الجهلة: كيف لم يبعث الله نجياً من الملائكة، إذ لم يفرق بين نبيه وبيننا في الاستغناء عن المآكل والمشارب والمشي في الأسواق؟. فأوحى الله إلى نبيه «فسأل اللذين يقرؤن الكتاب» بمحضر الجهلة:

هل بعث الله رسولاً قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟، ولك بهم أسوة، وإنما قال: «فأن كنت في شك» ولم يكن في شك ولكن للمنفعة،كم قال: ﴿ ... تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٢]. ولو قال (عليكم لم يجيبوا إلى المباهلة، وقد علم الله أن نبيه يؤدي عنه رسالته وما هو من الكاذبين فكذلك عرف النبي أنه صادق فيما يقول، ولكن أحب أن ينصف من نفسه».

٤ - وسأل يحيى بن أكتم عن قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾[٣]. فأجاب

(١) سورة يونس / ٩٤.

(٢) سورة آل عمران / ٦١.

(٣) سورة لقمان / ٢٧.

الأمام علي الهادي عليه السلام بقوله:

«فهو كذلك ولو أن أشجار الدنيا أقلام والبحر يمده سبعة أبحر، وانفجرت الأرض عيوناً لنفدت قبل أن تنفد كلمات الله....».

٥ - وسأل يحيى بن أكتم عن قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(١).

فاشتهت نفس آدم عليه السلام السلام أكل البر، فأكل وأطعم وفيها ما تشتهي الأنفس، فكيف عوقب؟.

فأجاب الإمام علي الهادي عليه السلام:

«وأما الجنة فإن فيها من المآكل والمشارب والملاهي ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وأباح ذلك كله لآدم عليه السلام. والشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته أن يأكلا منها:

شجرة الحسد، عهد إليهما أن لا ينظر الى ما فضّل الله على خلائقه بعين الحسد ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾(٢).

٦ - وسال بن أكتم عن قوله تعالى: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾(٣).

يزوج الله عباده الذكران، وقد عوقب قوم فعلوا ذلك؟

(١) سورة الزخرف / ٧١.

(٢) سورة طه / ١١٥.

(٣) سورة الشورى / ٥٠.

فأجاب الإمام الهادي بعد ذكر الآية بالقول:

«أي يولد له ذكور، ويولد له إناث، يقال لكل أثنين مقرنين زوجان، وكل واحد منهما زوج، ومعاذ الله أن يكون عنى الجليل ما لبست به على نفسك تطلب الرخص لارتكاب المآثم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[1]».

وفي الإجابة تعريض مهذب بيحيى بن أكتم، إن لم يكن تصريحاً كما لا يخفى.

٧ - ولو أردنا استعراض هذا الجانب لوجدنا بعض نماذجه في كتب التفسير، فعن العياشي بإسناده عن حمدويه عن محمد بن عيسى، قال سمعته يقول: كتب إليه - يعني الإمام علي الهادي - إبراهيم بن غبة: إن رأى سيدي ومولاي أن يخبرني عن قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ لَكُمْ..﴾[2]. جعلت فداك، فكتب عليه السلام: «كل ما قومر به فهو الميسر، وكل مسكر حرام»[3].

٨ - وقد يفيد الإمام عليه السلام من القرآن حكماً شرعياً أشكل على بعض الفقهاء علمه، واستعصى على بعض العلماء حكمه، كما أفاد الإمام من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[4] أحد مصاديق الشئ

---

(١) سورة الفرقان / ٦٨ - ٦٩.

(٢) سورة البقرة / ٢١٩.

(٣) العياشي / التفسير: ١/١٠٦.

(٤) سورة التوبة / ٢٥.

الكثير، فعن أبي عبد الله الزيادي: لمّا سُم المتوكل نذر لله إن رزقه الله العافية أن يتصدق بمال كثير، فلما عوفي أختلف الفقهاء بالمال الكثير فقال له الحسن حاجبه: إن أتيتك بالصواب فمالي عندك؟، قال المتوكل: عشرة آلاف درهم، وإلا ضربتك مائة مقرعة!! قال: رضيت، فأتى أبا الحسن عليه السلام، فسأله عن ذلك؛ فقال الإمام: قل له يتصدق بثمانين درهماً!!. فأخبر المتوكل، فسأله ما العلّة؟ فأتاه، فسأله، فقال: إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾[1]، فعددنا مواطن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبلغت ثمانين موطناً، فرجع إليه، فأخبره ففرح، وأعطاه عشرة آلاف درهم»[2].

٩ – وقد يستدل الإمام علي الهادي عليه السلام على عظيم منزلة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الكريم، ويستنبط طاعته وطاعة الأئمة المعصومين من آياته، فقد قال الإمام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد قرنه الجليل باسمه، وشركه في عطائه، وأوجب لمن أطاعه جزاء إطاعته، إذ يقول ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[3].

وقال وهو يحكي قول من ترك طاعته، وهو يعذب بين أطباق نيرانها، وسرابيل قطرانها:

---

(١) سورة التوبة / ٢٥.

(٢) ابن شهراشوب / المناقب: ٤/٤٠٢، ورواه الكليني / الكافي: ٧/٤٦٣، بفرق جزئي.

(٣) سورة التوبة / ٧٤.

﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾[١].

أم كيف يوصف بكنهه من قرن الجليل طاعتهم بطاعة رسوله حيث قال:

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[٢].

وقال: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ ﴾[٣].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ... ﴾[٤].

وقال: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[٥]»[٦].

فأنت تجد الإمام عليه السلام يستغرق هذه النصوص القرآنية المقدسة في مجال التحدث عن منزلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرين عليهم السلام مستدلاً على الولاية في الأرض بأنها منصب إلهي، إذ قرن الله تعالى طاعته بطاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأولي الأمر من أهل بيته كلاً غير قابل للانفصال في حياته التكوينية[٧].

---

(١) سورة الأحزاب / ٦٦.

(٢) سورة النساء / ٥٩.

(٣) سورة النساء / ٨٣.

(٤) سورة النساء /٥٨.

(٥) سورة النحل / ٤٣.

(٦) ظ: الإربلي / كشف الغمة: ٣/٢٤٧ + المجلسي / البحار: ١٧٨/٥٠.

(٧) ظ: المؤلّف / الإمام علي الهادي، النموذج الأرقى للتخطيط المستقبلي / ٢٢٢.

١٠ - وطالما أستند الإمام الهادي عليه السلام في أقواله وأعماله وتوجيهاته على القرآن العظيم، وهو أمر مفروغ عنه، وكذلك الحال في استيحاء مدرك الحكم الشرعي، فقد استفتاه المتوكل برجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، وأراد أن يقيم عليه الحد!! فأسلم، فأفتى الإمام يضرب حتى يموت.فأنكر يحيى بن أكتم ذلك وطلب مدرك الحكم من الإمام فأجاب عليه السلام بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1]»[2]. فقد أبان الإمام - عن صحت الرواية - من خلال القرآن؛ إن إسلام الرجل قد أعلن في اللحظات الأخيرة خوفاً من الحد الشرعي، وهو لا يقبل منه لأنه غير صادر عن حالة طبيعية.

١١ - وعن أحمد بن محمد، قال: قال أبو الحسن - يعني الإمام الهادي - في قول الله عز وجل: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[3].

قال: طواف الفريضة طواف النساء[4].

١٢ - ونادى المتوكل أحد أصحابه، وكان نصرانياً: يا أبا نوح!! فأنكر

---

(١) سورة غافر / ٨٤ - ٨٥.

(٢) ظ: الحرّ العاملي / وسائل الشيعة: ١٨ / ٣٣١.

(٣) سورة الحج / ٢٩.

(٤) الكليني / الكافي: ٤ / ٥١٢.

عليه بعض من حضره أن يكنى الكتابيون، فاستفتى الفقهاء، فاختلفوا، فبعث إلى الإمام الهادي عليه السلام فوقّع الإمام عليه السلام: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾[١].

فعلم المتوكل أنه يحل ذلك، لأن الله قد كنى الكافر[٢].

❊ ❊ ❊

فإذا ودعنا الإمام علي الهادي عليه السلام واستقبلنا ولده الإمام الحسن العسكري عليه السلام لوجدنا الإمام العسكري ضمن الخط العام لأئمة أهل البيت، مرتبطاً بالتمسك بالقرآن العظيم، وملتزماً بالكشف عن كنوزه ومدخراته، باعتباره كتاب الله الأكبر الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، فهو دستور الإسلام ومصدر التشريع الذي أتخذه الأبرار أماماً. ولما كان أئمة الهدى عدلاً للقرآن فهم أولى الناس بالتوجه إليه، والعمل بما ضم بين دفتيه وهذا أمر مطرّد بالدليل الاستقرائي ولا يحتاج إلى تكلف الإثبات فهو قائم بالوجدان منذ عهد أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام إلى نهاية عهد الإمام الحسن العسكري: تطبيقاً وتنظيراً وعملاً واستشهادا وهو متعبّد به تلاوةً وتفسيراً واستظهاراً.

واستمرت المسيرة في هذا الاتجاه في الغيبة الصغرى لصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف وفي الغيبة الكبرى حيث مرجعية فقهاء أهل البيت

---

(١) سورة المسد / ١.

(٢) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن محمد الهادي / ٦٥، وانظر مصادره.

عليهم السلام.

وكان الإمام الحسن العسكري عليه السلام معنياً بالقرآن في عصر أبتعد عن القرآن، ويكفي بالتدليل عن ابتعاد العصر عن القرآن أن تصدى الإمام للفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي عن غيّه، وألغي مشروعه.

وقد تناثرت للإمام العسكري هنا وهناك نجوم تفسيرية وقطع إيضاحية لنصوصه مما هو مأثور عنه[١].

وينسب إليه التفسير المسمى باسمه (تفسير العسكري).. ويصفه المحقق الشيخ أغا بزرك «إنه من إملاء أبي محمد الحسن بن علي العسكري، وإن نسخه متداولة، وأن له عدة طبقات..»[٢].

ورغم اختلاف العلماء في صحة نسبته رفضاً وقبولاً، والتشكيك في أصل صدوره عن الإمام، فهذا لا يمنع عن التحقيق بذلك إيجازاً.

عرض سيدنا الأستاذ الخوئي - قدس سره - إلى رواة هذا التفسير وقال: وهو مروي عن أبي الحسن بن محمد بن سيار، ويوسف بن محمد ين زياد، ووضفهما بالقول: (وكلاهما مجهول الحال)[٣].

وكيف يؤخذ برواية مجهول الحال؟ هذا من ناحية السند.. وأما من ناحية المتن، فقد قال السيد الخوئي (ت ١٤١٣هـ) (إن الناظر في هذا التفسير

---

(١) ظ: المؤلف / الإمام الحسن العسكري / وحدة الهدف وتعدّد الأساليب / ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) أغا بزرك / الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٤/ ٢٨٥.

(٣) الخوئي / معجم رجال الحديث: ١٢/١٥٩+ ٢٠/٢٠٩.

لا يشك أنه موضوع، وجلّ مقام عالم محقق أن يكتب مثل هذا التفسير، فكيف بالإمام عليه السلام)[1].

إذن فالسيد الخوئي قدس سره ينفي صحة هذا التفسير سنداً ومتناً، وقد يكون هنالك تفسير للإمام العسكري ولكنه مفقود واختفى في نكبات المكتبات.

ومع هذا لم نحرم من شذرات تفسيرية تناقلها الرواة والمفسرون عن الإمام العسكري يذكر بعضها، والعهدة على رواتها وهم وما دونوه.

ذكر السيد الأمين قدس سره قال:

«وروي عن الإمام الحسن العسكري في تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية ما حاصلة: إنها إشارة إلى إن هذا القرآن من جنس هذه الحروف فأتوا بمثله إن كان من عند غير الله»[2].

فكان الإمام - عليه السلام - يريد أن يعبر عن الملحظ الإعجازي في إيراد هذه الحروف، لتنادي العرب: أن القرآن مركب من جنس حروف لغتكم فأتوا بمثله، فما استطاعوا ولن يستطيعوا ولهذا تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة واحدة من مثله قال تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن

(١) الخوئي / معجم رجال الحديث: ١٢ / ١٦٠.

(٢) الخوئي / معجم رجال الحديث: ١٢ / ١٦٠.

دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[٢]. قال الإمام فيما روي عنه: إن الأمي منسوب إلى أمة أي كما خرج من بطن أمه لا يقرأ ولا يكتب (لا يعلمون الكتاب) المنزّل من السماء ولا المكذب به، لا يميزون بينهما إلا (أماني) أي إلا أن يقرأ عليهم، ويقال لهم: إن هذا كتاب الله وكلامه، لا يعرفون إن قرئ من الكتاب خلاف ما فيه، (وإن هم إلا يظنون) أي ما يقرأ عليهم رؤسائهم من تكذيب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم يقلدونهم مع أنه محرم عليهم تقليدهم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٣]»[٤].

وسئل الإمام العسكري عن تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[٥]. وقد أجاب الإمام عن ذلك بتفصيل دقيق أعقبه تفسير الآية إتماماً للفائدة وتحدثاً بنعمة الله على البشير.

وكان أسلوب الإمام في ذلك - كعادته في البيان - بليغاً رصيناً، لا غرابة فيه ولا إيغال، بل جاء بالسهل الممتنع مقترناً بالذائقة الفنية في التعبير

---

(١) سورة البقرة / ٢٣.

(٢) سورة البقرة / ٧٨.

(٣) سورة البقرة / ٧٩.

(٤) الطبرسي / الاحتجاج: ٢/ ٥٠٨ - ٥٠٩.

(٥) سورة البقرة / ٢٢.

والنظرة المترسلة في التيسير.

قال الإمام:

«جعلها متلائمة لطباعكم، موافقة لأجسامكم، لم يجعلها شديدة الحمة والحرارة فتحرقكم ولا شديدة البرودة فتجمدكم، ولا شديدة الريح فتصرع هامتكم، ولا شديدة النتن فتعطبكم، ولا شديدة اللين كالماء فتغرقكم ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في حرثكم، وأبنيتكم ودفن موتاكم، ولكنه جعل منها من المتانة ما تنتفعون به وتتماسكون، وتتماسك عليها أبدانكم وبنيانكم، وجعل فيها من اللين ما تنقاد به لحرثكم وقبوركم وكثير من منافعكم، فلذلك: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[1].

وما اكتفى الإمام بهذا البيان العذب في تفسير هذا الجزء من الآية حتى أردف ذلك بتفسير جزء وآخر منها﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾[2].

قال عليه السلام: «يعني سقفاً من فوقكم محفوظاً يدير شمسها وقمرها ونجومها لمنافعكم.

ثم قال:

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾[3].

يعني المطر ينزله من علو ليبلغ به قلل جبالكم وتلالكم وهضابكم

---

(١) سورة البقرة / ٢٢.

(٢) سورة البقرة / ٢٢.

(٣) سورة البقرة / ٢٢.

وأوهادكم، ثم فرقه رذاذاً وأوبالاً وهطلاً وطلاً لتنشفه أرضوكم، ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة، فتفسد أراضيكم وأشجاركم وزروعكم وثماركم. ثم قال:

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾[1].

يعني ما يخرجه من الأرض رزقاً لكم.

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[2].

أي أشباهاً وأمثالاً من الأصنام التي لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تقدر على شيء ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3] أنها لا تقدر على شيء من هذه النعم الجليلة التي أنعمها الله عليكم ربكم»[4].

وسئل الإمام عن قوله تعالى ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾[5] فقال عليه السلام: «له الأمر من قبل أن يأمر به، وله الأمر من بعد أن يأمر بما يشاء.» فقلت في نفسي هذا قول الله ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6]. فاقبل علي فقال: هو كما أسررت في نفسك ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ

---

(١) سورة البقرة / ٢٢.

(٢) سورة البقرة / ٢٢.

(٣) سورة البقرة / ٢٢.

(٤) الطبرسي / الاحتجاج: ٢/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٥) سورة الروم / ٤.

(٦) سورة الأعراف / ٥٤.

﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[١] قلت: أشهد أنك حجة الله وأبن حجته في خلقه[٢].

وسأله محمد بن صالح عن قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٣]. فقال عليه السلام: هل يمحو إلا ما كان؟ وهل يثبت إلا ما لم يكن؟ فقال السائل في نفسه: هذا خلاف ما ينقل عن بعضهم من أنه لا يعلم الشيء حتى يكون!! فأدرك الإمام لُدنياً ما يجول في ذهن السائل، فنظر اليه قائلاً: «تعالى الله الجبار العالم بالشيء قبل كونه. الخالق إذ لا مخلوق والرب إذ لا مربوب والقادر قبل المقدور عليه»[٤].

وروي عن أبي هاشم الجعفري أنه سأل الإمام العسكري عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[٥].

قال: كلهم من آل محمد، الظالم لنفسه الذي لا يقر بالإمام، والمقتصد العارف بالإمام، السابق بالخيرات الإمام، فجعلت أفكر في نفسي عظم ما أعطى الله آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويكتب فنظر إلي فقال: «الأمر

---

(١) سورة الأعراف / ٥٤.

(٢) الإربلي / كشف الغمة: ٣/٢١٦.

(٣) سورة الرعد / ٣٩.

(٤) المسعودي / إثبات الوصية / ٢١٠.

(٥) سورة فاطر / ٣٢.

أعظم مما حدثتك به نفسك من عظم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأحمد الله أن جعلك متمسكاً بحبلهم تدعى يوم القيامة بهم إذا دعي كل أناس بإمامهم، إنك على خير»[١].

وفي ختام هذا المبحث نشير إننا لم نعرض لمعطيات الإمامين الصادقين محمد الباقر عليه السلام وجعفر الصادق عليه السلام لأن التفاسير مشتملة على الآلاف من أحاديثهم في وعن القرآن العظيم.

---

(١) القطب الراوندي / مختار الخرائج / ٢٣٩.

الاحتجاج وعلم الكلام في ضوء التوحيد

كان من جرّاء السياسة الأموية والعباسية أن فتقا علم الكلام والاحتجاج لإشغال الناس عن مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وعن التفكير في الانقضاض على طغاة الحاكمين باسم الإسلام، وهم لا يمثلون من الإسلام إلا اسمه، ولا يعرفون من القرآن إلا رسمه فنشأت عقيدة الأرجاء في ظل الحكم الأموي حتى عاد الإرجاء مذهبهم الرسمي تخديراً للشعب المسلم، وترك الأمور على عواهنها، ونشأت القدرية في قبال الاعتزال وأهل العقل، ونشأت الفرق الإسلامية وهي تصب في رافد واحد منقسم بين سلاطين الخلفاء وفقهاء البلاطين الأموي والعباسي.

ونشأ علم الكلام مشرئباً في ظل القول بخلق القران، وهل هو حادث أو قديم وسفكت دماء الأمة بإزاء ذلك ظلماً وعدواناً، ووقف منها فقهاء المذاهب فريقين: فريق يقول بالقدم وفريق يقول بالحدوث، وعانى كل فريق منها صنوف الاضطهاد حيناً، ورضا المتسلطين حيناً آخر.

ولو أمعنا النظر في هذه المخلفات السياسية لوجدناها في أغلب طروحاتها قد ابتعدت عن جوهر الإسلام لغايات سلطوية إلاّ من عصم الله، فكان قول الحق صادعاً من لسانه وفي بيانه وفي فكره النيّر.

إن هذا الاختلاف الذي ناء بكلكله على الساحة الإسلامية لا يمثل إلاّ الإسراف والتفريط في كيان الشعب المسلم الذي انقسم على جماعات وفئات وعناصر، ولكل منها أنصار ومشايعون وأولياء، فمنيت الأمة بخبط وشماس، وبلاء وامتحان، وشدة بعد شدة، والحاكمون يتنعمون في ظل القصور والخمور والفجور، وموائد الفسق والطرب والمغنيات.

ويدرأ هذا الانحراف والانحطاط الذي شمل ساحة العالم الإسلامي حتى اليوم: أن الآثار والأحاديث تدل أن من شهد الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله» فهو المسلم، وعلى ذلك تترتب الآثار، إذ من شهدهما يحقن ماله ودمه وعرضه، وبهما يتم التعامل والتزاوج وما شرع الإسلام العظيم.

الإيمان أعلى درجة، وأرقى منزلة من الإسلام، فهو كما في المأثور في ضوء التوحيد والعمل الصالح والنية الخالصة: «اعتقاد في الجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان».

وهذا ما يميز الإيمان عن الإسلام فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وبينهما عموم وخصوص من مطلق كما يقول أهل المنطق.

ونرى في هذا الضوء، وأبعد منه شأواً ما روي عن الإمام علي بن

موسى الرضا عليه السلام أنه قال:

«إن الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة واليقين فوق التقوى بدرجة».

هذا التفاوت بالدرجات ناظر إلى ما عليه المسلمون في اختلاف مراتبهم الإيمانية، فمنهم المسلمون الاعتياديون، وفوقهم منزلة أهل الإيمان، إذ أقروا، واعتقدوا، وعملوا، وفوقهم أهل التقوى بدرجة لاحتياطهم لأنفسهم وأمنهم في كل جزيئة وكليّة، وأرفعها درجة ومنزلة، ما يتمتع به الأولياء والصديقون والصالحون الأبرار، وتلك مرتبة اليقين التي لا تدانيها مرتبة، وليست هذه المرتبة متوافرة اعتباطا لدى كل المسلمين، ولكنها محدودة لدى الأبرار، وإمامهم وسيدهم أمير المؤمنين القائل: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

وأمير المؤمنين عليه السلام هو المتمرس بأعلى درجات التوحيد، وأرقى منازل الإنابة في هذا المجال وسواه وهو القائل - ويا له من قول -: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله، ومعه، وبعده» وهو عليه السلام يستند على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أكثروا من قول لا إله إلا الله، فأنها مثقلة للميزان، خفيفة على اللسان، وتسكن غضب الرحمان وتذيب الذنوب كما تذيب النار الشيء».

وقد قام الإسلام على التوحيد الخالص بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) والتي تدعو الى توحيد كلمة الأمة؛ وهي عبارة رقيقة في الأداة، ثقيلة في الميزان، خفيفة على النطق، لا عنت فيها ولا عسر وعائديتها عظيمة الأثر،

فهي تسكن غضب الله سبحانه وتعالى، وهي تذيب الذنوب كما تذيب النار الأجسام القابلة للذوبان.

هذه العبارة الموجزة لا تكلف الإنسان جهداً، ولا ترهقه من أمره عسراً، فهي رقيقة أنيقة، قام بها الكون، واستقرت بها الحياة وخضع لها الملائكة والجن والإنس، وسبح لله في ظلها الوريف من في الأرض والسماء، وما في الأرض وما في السماء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] هذا في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فقد روى الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«لقنوا موتاكم كلمة: لا إله إلا الله، فإن من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

وشرف هذه الكلمة أنها كلمة الإخلاص، فإذا نطقت عند الموت، وكانت آخر كلام المسلم فقد كتبت له الجنة، ودخلها آمناً مستقراً.

وعوداً على بدء، فقد حدث أبو الصلت الهروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبي الحسن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن الإمام محمد الباقر عليه السلام عن الإمام زين العابدين عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الإيمان عقد في القلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان» قال من

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

سمع: فعدت إلى أبي العباس احمد بن محمد بن الفرات بالخبر، فحدثته بالحديث، وكان في مجلسه ابن راهويه المتفقه!! فقال: ما هذا الإسناد؟ قال ابن رشيد الكاتب، فقلت له: هذا سعوط الشليثا، الذي إذا سعط به المجنون برئ وصح.

ولقد بدأت لغة الاحتجاج في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع المشركين واليهود، وقد ردّهم القرآن العظيم في أكثر من موقع وموقع من آياته،حتى إذا جاء أمير المؤمنين عليه السلام كثرت تلك الأصداء من قبل الخوارج، ونشأت فكرة القضاء والقدر، وقال قوم بالجب، وآخرون بالتفويض، فدفع أمير المؤمنين ذلك كله، وفي ذلك تنطق الآثار، فقد أقبل أحد اليهود على أمير المؤمنين عليه السلام متسائلاً ومحتجاً بما أفلجه به أمير المؤمنين عليه السلام وكان اليهود وما زالوا يكيدون للإسلام بشتى الطرق ومختلف الأساليب، ويتحينون الفرص لإبراز مكنونات الضمائر، والإفصاح عما في الدخائل من الأحقاد والإحن، ابتغاء الفتنة، وفي فجر الإسلام علموا أن علياً عليه السلام يمثل القمة الصاعدة في بناء الكيان الإسلامي، وهو النموذج الأرقى لتطبيق الإسلام روحاً ونصاً ومضموناً، وقد حاول بعضهم إثارة الشبه في طريق الإسلام فيتوجه إليه احد اليهود بالقول:

(ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشر سنة حتى تقاتلتم؟)

فقال علي عليه السلام:

«ولم انتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم: يا موسى اجعل لنا إلهاً

كما لهم آلهةً».

وكانت إجابة الإمام عليه السلام قد سدت منافذ الطريق بين يدي هذا المتهور الذي أراد اغتنام المناخ الانشقاقي بين المسلمين لينفذ من خلاله الى ما أضمر من مخطط، ولكن أمير المؤمنين قرع الحجة بالحجة، وأبطل الفتنة، بما يصطلح عليه بـ(الأجوبة المسكتة).

وحينما رفع المارقون من الخوارج شعار (لا حكم إلا لله) قال أمير المؤمنين عليه السلام في كشف النقاب عن هذا الاستغلال فقال: «كلمة حق يراد بها باطل».

وقد ردّ أمير المؤمنين كثيراً من الافتراضات والمقولات التي لم يرد بها وجه الله تعالى، وأرجع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المعيار والميزان الحقيقي، فقال في قبالها:

«السنة سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والبدعة مخالفتها، والجماعة أهل الحق وإن قلّوا، والفرقة أهل الباطل وإن كثروا».

وكان الحجاج يتظاهر بحب الوصول الى الحقيقة، وهو ليس هناك، ولكنه يحاول أن يؤثر عنه ذلك. فقد روي أنه كتب الى الحسن بن الحسن البصري، والى واصل بن عطاء، والى عامر الشعبي، والى عمر بن عبيد، يسألهم عن القضاء والقدر!!

فكتب إليه الحسن البصري: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

«أتظنّ الذي نهاك دهاك؟ وإنما دهاك أسفلك وأعلاك؛ والله بريء من ذلك».

وكتب إليه عمرو بن عبيد:

أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول علي بن أبي طالب عليه السلام:

«أيدلك على الطريق؟ ويأخذ عليك بالمضيق؟».

وكتب إليه عامر الشعبي:

أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول علي بن أبي طالب عليه السلام:

«كل ما استغفرت الله منهم فهو منك، وكل ما حمدت الله عليه فهو منه».

فلما وصلت الأجوبة للحجاج قال:

«قاتلهم الله لقد أخذوها من عين صافية».

أقول إجابات أمير والمؤمنين وإفاضاته تعد من الحكم البالغة، فيها الدقة، والإيجاز، والبلاغة، وفصل الخطاب. وقد قسم أمير المؤمنين عليه السلام الناس في مراتبهم بالإيمان والكفر والعصيان والإطاعة، وما ورد عنه، وقد سئل عن العاصي يخلد في النار؟ فأجاب عليه السلام فيما روي عنه بأعجب ما مرّ عليّ في تصنيف الناس فقال: بنو آدم على قسمين: كافر ومؤمن،

فالكافر مخلد في النار بالإجماع، والمؤمن على ضربين: طائع وعاصٍ، فالطائع في الجنة بالإجماع والعاصي على ضربين: تائب ومصّر، فالتائب في الجنة بالإجماع، والمصّر على ضربين: مصرٌّ على الصغائر مجتنب للكبائر، ومصّر على الكبائر فالمصّر على الصغائر مسؤول عنها غير معذب عليها، والمصّر على الكبائر على ضربين، قائل بتحليلها وقائل بتحريمها، فالقائل بتحليلها في النار بالإجماع، والقائل بتحريمها بمشيئة الله سبحانه وتعالى، والله غفور رحيم).

وحينما انطلقت مقولة المجبرة بالجبر، ومقولة المفوضة بالتفويض، ردّها الإمام جعفر الصادق عليه السلام بالقول: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين».

وقيل إنّ الجعد بن درهم جعل في قارورة ماءً وتراباً.. فاستحال دوداً وهواماً، فقال لأصحابه: إني خلقت ذلك لأني كنت سبب كونه فبلغ ذلك جعفر الصادق عليه السلام فقال:

«ليقل كم هي؟ وكم الذكران منه والإناث، إن كان خلقه؟ وكم وزن كل واحدة منهنّ، وليأمر الذي سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره».

فأنقطع الجعد وهرب.

وسأل الفضل بن سهل الإمام الرضا عليه السلام في مجلس المأمون، فقال يا أبا الحسن!! الناس مجبورون؟ فقال الإمام:

«الله أعدل من أن يجبر ويعذب».

قال: فمطلقون؟ قال الإمام عليه السلام: «الله أحكم منه أن يهمل عبده، ويكله إلى نفسه».

وظاهرة الاحتجاج وعلم الكلام غزت العالم الإسلامي نتيجة امتزاج الثقافة الإنسانية بعضها ببعض، وألقت ثقلها المتراكم منذ العهد الإغريقي حتى العصر العباسي فاتسعت حركة الترجمة الى العربية، وأشربت حياة الفكر في التلاقح الثقافي بينها وبين المسلمين، وعاد التراث العالمي في الحكمة والفلسفة في متناول العلماء والمتخصصين، وهبت رياح الزندقة والإلحاد والشعوبية، وتطاير غبار الجدل والخصام، وتعاظم المد الإسلامي في التشعب العقلي، فكانت الأمامية والأشاعرة والمعتزلة والمرجئة والقدرية وسواها وكثر الإنكار والاستفسار، وبدأت علامات الاستفهام تتعالى من الأفواه، وشق المتكلمون طريقهم في ظل شبهات مبهمة، وانفجر المخزون التراثي للأمم يتدافع في موجات متلاحقة، وسادت حالة من الغموض المتعدد في المجتمع العربي الإسلامي.. واختفت ظواهر الاطمئنان والتعايش السلمي المستقر، وغزا الأفق سحاب كثيف من التعدد المذهبي، وكان من مهمته أن يعصف بالفكر الأمامي، وهو أقدمها تأريخاً وأنصعها فصولاً، وأقربها برسول الله صلة ولحمة وأواصر،وساعد المناخ السياسي بما استطاع من حول وطول أن يمدّ هذا التوجه بزخم كبير من الدعم والتشجيع عسى أن يطاح بذلك الشاخص الماثل أمام الأنظار.. وهو مبدأ أهل البيت عليهم السلام فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وان كثر الضغط، وتنمّر المسئولون،

وتطاول الإرهاب وصودرت الحرية الفكرية.

والحق إن عصر المأمون قد احترم فيه الصراع الكلامي بين فصائل لا التقاء بين أكثرها، فالدهريون في دوامة من الارتداد، والزنادقة في متاهات من الشك والارتياب، والمسلمون في تزاحم فلسفي واحتجاجي وعقائدي لا أول له ولا آخر. حتى عادت الأحاديث متوترة والعواطف ساخنة، والحكم في مأمن من اليقظة الشعبية أو الوعي الجماعي، فقد خدرت أطراف الشعب الأعزل، وشدت أعصابه بوثاق من حديد.

وكانت حياة الزهد المصطنع والتقشف الزائف نتيجة البذخ والسرف في العصر قد استعادت كيانها والتقطت أنفاسها، فعاد للتصوف المختلط حضور بارز على السطح وللدجل والرياء مكان معروف في المهاوي السحيقة.

وكان الفضل بن سهل بأمر مباشر من المأمون يتولى كبر هذا المناخ في الأخذ والرد والجذب والشد في هدف مزدوج:

فما استطاع إفحام الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ولو مرة واحدة، وإلهاء الحياة العامة بهذا عن الوعي والزعيق والصراخ وبوادر الثورة.

وكان لابد للإمام الرضا عليه السلام أن يقابل هذا الانقضاض الصاعق بحكمه وأناة، وان يجابه هذه المفارقات بحزم وعلم، وان يأخذ بيد الأمة المسلمة إلى شواطئ الثقة والأمان.

ونهد الإمام بهذه المهمة الشاقة، فألتزم العرض الموضوعي في أطاريحه، وانتهج السبيل القويم في معالجاته، وبذلك أعاد للأمة وعيها، وللجدل البنّاء

أصالته، وهو يقرع الحجة بالحجة(١).

وشاء المأمون أن يجمع أصحاب المقالات، لمناظرة الإمام الرضا عليه السلام وحقق الفضل بن سهل ذلك، فأحضر «الجاثليق ورأس الجالوت، ورؤساء الصابئين، والهربذ الأكبر، وأصحاب زرادشت ونسطاس الرومي، وسواهم من المتكلمين».

ورحب بهم المأمون وأمرهم بالتبكير عليه، لمناظرة الإمام الرضا عليه السلام ففعلوا ذلك، فبدأ الحديث مع الجاثليق فأحتج عليه الإمام بالإنجيل، لنكران الجاثليق القرآن، وكانت الجولة قد تناولت النبوة في الإنجيل، وبشارته بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم بالإمامة التي ذكرت فيه... الخ وكانت نتيجة الجولة أن أنتصر الإمام على الجاثليق.

وناظره رأس الجالوت (زعيم اليهود) فترنح رأسه حينما أستشهد الإمام بالتوراة، وتلا منها بعض الفقرات، وشمل الاحتجاج: الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وعن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وعن إبراهيم الخليل، وعن أصحاب موسى السبعين، ثم أنكر على الجاثليق اتخاذ النصارى المسيح رباً!!

وقد أفحم الإمام الجاثليق ورأس الجالوت بتناوله التوراة، وحكم العقل، والدليل الاستقرائي في آيات موسى عليه السلام ولم يحر رأس الجالوت جواباً.

---

(١) ظ، المؤلف / الإمام علي الرضا / قيادة الأمة.. وولاية العهد / ١٧٣ - ١٧٤.

ثم دعا الإمام عليه السلام الهربذ الأكبر، وهو كبير علماء المجوس وحاججه، وجادله، وناقشه، فأنقطع الهربذ مكانه.

ثم قام للإمام عمران الصابي، فحاجه الإمام في التوحيد، وحدود خلق الله، وهو يسأل، والإمام الرضا يجيب في مفاهيم واصطلاحات كلامية معقدة: في الإبداع، والمشيئة، والإرادة، والكينونة المطلقة، والحروف وتأليفها، والسكون، والحركة، والحساب، والثواب والعقاب، والاستدلال على وحدانية الله تعالى....

وكانت نتيجة ذلك أن قال الإمام لعمران الصابي: أفهمت يا عمران؟ قال: نعم يا سيدي قد فهمت، وأشهد الله على ما وصفت ووحدت، وأشهد أن محمداً عبده المبعوث بالهدى ودين الحق.

ثم خرّ ساجداً نحو القبلة وأسلم[1].

وكان المأمون يظهر الإعجاب بذلك ويضمر الكيد للإمام فقد أستدعى سليمان المروزي متكلم خراسان، فأكرمه المأمون ووصله...

وقال له: إنما وجهت إليك لمعرفتي بقوتك، وليس مرادي إلا أن تقطعه - يعنى الإمام الرضا - في حجة واحدة فقط...

فأجتمع بالإمام الرضا عليه السلام بديوان المأمون، وجرى الحديث عن (البداء) فأثبته الإمام الرضا عليه السلام من القرآن، وقال:

(إن لله عز وجل علمين، علماً مخزوناً مكنوناً لا يعلمه إلا هو؛ ومن

---

(١) ظ: تفصيل ذلك: الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ١٥٤ - ١٧٧.

ذلك يكون البداء، وعلماً علمه ملائكته ورسله فالعلماء من أهل بيت نبينا يعلمونه. وإذا بسليمان المروزي يقول للإمام: زدني، جعلت فداك!!، فردّ الإمام عليه السلام على اليهود مقالتهم: «وقالت اليهود يد الله مغلولة»(١).

ثم جرى الحديث عن ليلة القدر.. قال الإمام: يا سليمان؛ «ليلة القدر يقدر الله عز وجل فيها ما يكون من السنة إلى السنة من حياة أو موت، أو خير أو شر أو رزق فما قدره في تلك الليلة الله من المحتوم.

وجرى الحديث عن الإرادة اسماً وصفة، وعن علم الله في الخلق في جميع ما في الجنة والنار، وتناول الاحتجاج الخلود في الجنة والنار!! وسأله الإمام عن الإرادة: أفعلُ هي أم غير فعل؟ فغالط سليمان في الجواب؛ وأعتبر الإرادة إنساءً!!

وتحدث الإمام: أن نفي المعلوم ليس نفياً للعلم، ونفي المراد نفي الإرادة أن تكون ووألزمه الحجة بذلك.....

واستطال الحديث بهذا الموضوع، فأنقطع سليمان، فقال له المأمون: وهو يشير إلى الإمام الرضا عليه السلام: «يا سليمان هذا أعلم هاشمي». وقد عني الأمام الرضا عليه السلام بالإلهيات وتنزيه الباري عناية خاصة، وذلك لارتباطه بتوحيد الله تعالى، وما يتفرع عن ذلك من أفكار وطروحات تعنى بمسائل التوحيد، والقدم، والأزلية، والتشبيه، والجبر، والتفويض، والأمر بين الأمرين، والإرادة، والمشيئة، والصفات والتجسيم.ففي مجال التوحيد ونفي

---

(١) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ١٧٩ - ١٩١.

الصفات، خطب الإمام بمحضر المأمون، وجمع من بني هاشم فقال عليه السلام:

«... أول عبادة الله تعالى معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه لشهادة القول أن كل صفة وموصوف مخلوق، وشهادة كل موصوف أن له خالقاً ليس بصفة وموصوف، وشهادة كل صفة وموصوف بالاقتران، وشهادة الاقتران بالحدوث وشهادة الحدوث بالامتناع عن الأزل الممتنع من الحدوث.

فليس من الله من عرف بالتشبيه ذاته ولا إياه وجد من إكتنهه، ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا به صدق من نهاه، ولا صمد صمده من أشار إليه، ولا إياه عنى من شبهه، ولا له تذلل من بعضه،ولا إياه أراد من توهمه، كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول، بصنع الله يستدل عليه، وبالقول تعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجته..»[1].

وهنا يبدأ الإمام بأصل المعرفة، وهي توحيد الله عز وجل، ونفي الصفات عنه باعتبارها محدثة، والمحدث مخلوق، وهو القديم الأزلي الخالق العظيم، ثم ينفي عن الباري الشبه والتوهم، والإدراك فلا يشار إليه، ولا يدرك كنهه، ولا يمثل بشيء.

وعرض الإمام للقدم والأزلية والأسماء بقوله:

«إن الله تبارك وتعالى قديم، والقدم صفة دلت العاقل على أنه لا شيء

---

(١) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ١٥٠ - ١٥١.

قبله، ولا شيء في ديمومته... وبطل قول من زعم: أنه كان قبله وكان معه شيء، وذلك أنه لو كان معه شيء في بقائه لم يجز أن يكون خالقاً له ولأنه لم يزل معه، فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه.

ولو كان قبله شيء، كان الأول ذلك الشئ لا هذا، وكان الأول أولى أن يكون خالقاً للأول، ثم وصف نفسه تبارك وتعالى بأسماء... فسمى نفسه: سميعاً بصيراً، قادراً، قاهراً حياً، قيوماً ظاهراً، باطناً، لطيفاً، خبيراً، قوياً عزيزاً، حكيماً، عليماً، وما أشبه هذه الأسماء...»(١).

وقد يسأل الإمام عن صفة الله تعالى، ويجيب الإمام باستحالة ذلك، لأن أية صفة مهما عظمت فلا تحيط بالذات الإلهية، لأنها حقيقية كبرى فوق حقائق الأشياء.

فقد سأله أبو هاشم الجعفري: هل يوصف الله؟.

قال الإمام: أما تقرأ القرآن؟ قال بلى...

قال الإمام: أما تقرأ قوله تعالى ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ ﴾(٢).

قال: وما هي؟ أبصار العيون!!

قال الإمام: «إن أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون، فهو لا تدركه

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ١٤٥.

(٢) سورة الأنعام / ١٠٣.

الأوهام، وهو يدرك الأوهام»[١].

وفي مجال آخر يفند الإمام الرؤية ويرّد على دعوى الصفة. يقول عليه السلام (سبحانك ما عرفوك ولا وحدوك، فمن أجل ذلك وصفوك، سبحانك لو عرفوك، لوصفوك بما وصفت به نفسك، سبحانك كيف طاوعتهم أن يشبهوك بغيرك؟ اللهم لا أصفك إلا بما وصفت به نفسك، ولا أشبهك بخلقك، أنت أهل لكل خير، فلا تجعلني من القوم الظالمين).

ثم التفت الإمام إلى السائلين فقال (ما توهمتم من شيء فتوهموا الله غيره..)[٢].

ونفى الإمام عن الله تعالى دعوى الجبر والتفويض، فقد سأله الحسن بن علي الوشا قائلاً:

الله فوض الأمر إلى العباد؟.

قال الإمام الرضا عليه السلام: «هو أعز من ذلك».

فقال الوشا: أجبرهم على المعاصي؟.

قال الإمام الرضا عليه السلام: «الله أعدل وأحكم من ذلك».

ثم قال: قال الله عز وجل: «يا ابن آدم، أنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، عملت المعاصي بقوتي التي جعلتها فيك»[٣].

---

(١) الكليني / أصول الكافي: ١/٩٩.

(٢) الكليني / أصول الكافي: ١/١٠١.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/١٤٣.

وذكر عنده الجبر والتفويض فقال لأصحابه:

ألا أعطيكم في هذا أصلاً، لا تختلفون فيه، ولا يخاصمكم عليه أحد إلا كسرتموه؟

قلنا: إن رأيت ذلك؛ فقال الإمام عليه السلام:

«إن الله لم يطع بإكراه، ولم يعص بغلبه، ولم يهمل العباد في ملكه، هو المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فأن ائتمر العباد بطاعته؛ لم يكن الله عنها صاداً ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصيته، فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحل فعلوا، فليس هو الذي أدخلهم فيه.

ثم قال عليه السلام: «من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه»(١).

وفصّل الإمام عليه السلام القول بالجبر والتفويض بما رواه بريد بن عمير بن معاوية الشامي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا بمرو فقلت له: يا ابن رسول الله، روي لنا عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: «لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين» فما معناه؟.

قال الإمام عليه السلام: «من زعم أن الله يفعل أفعالنا، ثم يعذبنا عليها، فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله عز وجل فوض أمر الخلق والرزق الى حجته عليهم السلام فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك.

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ١٤٤.

فقلت له: يا بن رسول الله فما أمر بين أمرين؟.

فقال الإمام: وجود السبيل الى إثبات ما أمروا به، وترك ما نُهو عنه، فقلت له، فهل لله عزّ وجل مشيئة في ذلك؟.

فقال الإمام: فأمّا الطاعات فإرادة الله ومشيئته فيها: الأمر بها والرضا لها، والمعاونة عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي: النهي عنها، والسخط عليها. قلت: فهل لله فيها القضاء؟. قال الإمام: نعم، ما من فعل يفعله العباد من خيرٍ أو شرٍ، إلا لله فيه القضاء؟. قلت: ما معنى هذا القضاء؟.

قال الإمام: الحكم عليها بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة»[1].

وتحدث الإمام عن الكون والكيف والأين، وهي مصطلحات كلامية، فعن ابن أبي نصر البزنطي قال: جاء قوم من وراء النهر إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فقالوا: جئنا نسألك عن ثلاث مسائل، فإن أجبتنا علمنا إنك عالم!! فقال سلوا؛ فقالوا أخبرنا عن الله تعالى: أين كان؟ وكيف كان؟ وعلى أي شيء كان اعتماده؟

فقال عليه السلام: «إن الله تعالى كيف الكيف فهو بلا كيف، وأين الأين فهو بلا أين، وكان اعتماده على قدرته»

فقالوا نشهد إنك عالم[2].

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/١٢٤.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/١١٧.

ويتحدث الإمام عن هذه القدرة التي كان اعتماده عليها، فيعدّها ذاته المقدسة، لأن القدرة من صفات الذات، فعن عيسى بن محمد بن عرفه قال: قلت للرضا عليه السلام: خلق الله الأشياء بالقدرة أم بغير القدرة؟.

قال الإمام عليه السلام: «لا يجوز أن يكون خلق الأشياء بالقدرة لأنك إذا قلت، خلق الأشياء بالقدرة، فكأنك قد جعلت القدرة شيئاً غيره، وجعلتها آلةً له، بها خلق الأشياء وهذا شرك.

وإذا قلت: خلق الأشياء بغير قدرة، فإنما تصفه أنه جعلها باقتدار عليها وقدرة، ولكن ليس هو بضعيف، ولا عاجز، ولا محتاج إلى غيره، بل هو سبحانه قادر بذاته لا بالقدرة»[١].

وأكد الإمام الرضا عليه السلام هذا الأمر باعتبار صفاته عين ذاته، فعن الحسين بن خالد، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول:

«لم يزل الله عالماً، قادراً، حيّاً، قديماً، سميعاً، بصيراً».

فقلت له: يا ابن رسول الله: إن قوماً يقولون: لم يزل الله عالماً بعلم، وقادراً بقدرة، وحياً بحياة، وقديماً بقدم، وسميعاً بسمع، وبصيراً ببصر!!، فقال عليه السلام: «من قال ذلك ودان به،فقد أتخذ مع الله آلهة أخرى، وليس من ولايتنا بشيء، ثم قال: لم يزل الله عز وجل عليماً، قادراً، حياً، سميعاً، بصيراً لذاته، تعالى الله عما يقولون المشركون والمشبهون علواً كبيراً..»[٢].

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ١١٨.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ١١٩.

وفند الإمام شبهات القدرية، ونهى عن القول بقولهم، وأنكر مقالتهم، وأستشهد على ذلك بآيات من القرآن العظيم[١]، ودفع شبهات المتكلمين بتوهم أن الأنبياء غير معصومين[٢].

وأستدل الإمام عيه السلام على إمامة أهل البيت عليهم السلام في منهج اجتماعي يعتمد القرآن العظيم في دلالته على ذلك مضافاً إلى السنة النبوية، وأعتبر الإمامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، وخلافة الله عز وجل، وخلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين، وإرث الحسن والحسين عليهم السلام، ثم تحدث عن منزلة الإمامين بما لا نزيد عليه[٣].

وكان الإمام منفتحاً على كتاب الله الأعظم والسنة النبوية في تفضيل العترة، يصدر عنهما، ويستدل بهما[٤].

❋ ❋ ❋

وجاء ولده الإمام محمد الجواد عليه السلام ليكمل مسيرة الاحتجاج في شتى مسالكه، والتأكيد على التوحيد الإلهي، حيث ازدهرت الحياة العقلية في عصره، وبلغت النهضة الحضارية قمتها في عهده، فأولاها الإمام جهاده وجهوده، وربّى جيلاً متحفزاً من العلماء الناهين، وتزعم جمهرة من الفقهاء الأكابر، وثقف طائفة من المتكلمين وعلماء الاحتجاج.

(١) المصدر نفسه: ١/ ١٩١ – ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ١/٢٩٥ – ١٩٦+ ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ١/٢١٦ – ٢١٨ + الكليني / أصول الكافي: ١/١٩٣.

(٤) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/٢٢٩ – + ١/ ٢٣١ – ٢٤٠.

وكانت حواضر العالم الإسلامي تعّج بالعلماء والمتعلمين في كل من مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والكوفة الغراء، والبصرة الفيحاء، وخراسان وبغداد دار السلام لكونها مقر الدولة آنذاك[١].

يقول الدكتور غوستاف لوبون:

«كان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل من يونان، وفرس، وأقباط، وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد، ويجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا»[٢].

وكان المكر السياسي للسلطة العباسية يشجع الخوض بمتاهات علم الكلام، حتى انحرف الهدف لهذا العلم عن الخط الذي ينبغي أن يسير عليه، وتحول إلى صراع غبي مقيت بين المعتزلة والأشاعرة إلى الحد الذي كفر بعضهم بعضاً.

بينما وقف الإمامية موقف الحذر المتيقظ من هذا المناخ فأعرض صفحاً عن المهاترات، واتجه لنقض شبهات المنحرفين، وردّ مزاعم الزندقة والإلحاد، في خط هادئ متزن في خضم تلك الصراعات في صخبها وضجيجها وكانت حتمية تجربة السماء الفطرية تقتضي أن ينتصر الاتجاه العقلي الرصين على تلك التهاويل الغريبة، فأتجه الإمام محمد الجواد عليه السلام بثقله الرسالي إلى إصلاح ما فسد من عقائد المسلمين، وأكد على قضايا التوحيد الإلهي، وما

---

(١) ظ: المؤلف / الإمام محمد الجواد / معجزة السماء في الأرض / ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) غوستاف لوبون / حضارة العرب / ٢١٨.

يدور في فلك معرفة الله تعالى.

قال الإمام محمد الجواد عليه السلام: «إن الله خلق الإسلام فجعل له عرصة، وجعل له نوراً، وجعل له حصناً وجعل له ناصراً، فأما عرصته فالقرآن، وأما نوره فالحكمة، وأما معينه فالمعروف، وأما أنصاره فأنا وأهل بيتي)[1].

والإمام في هذا العصر يصدر عن واقعية لا مبالغة معها، ويؤكد على نظام الإسلام، وقيادة القرآن، وولاية أهل البيت، عليهم السلام رغم كل المخاطر التي تحيط بهذا التصريح الجزئي، لأنه بمثابة الثورة المضادة لكل ولاية ظالمة وخلافة مدعاة[2].

وانبرى الإمام بكل ما أوتي من علم لدني للدفاع عن قضايا التوحيد، وشبه المتكلمين في الأسماء والصفات، والعلم والقدرة، والسمع والبصر وإضراب ذلك مما يدور بهذا الفلك.

وختم ذلك بقوله (وكذلك سمي ربنا قوياً لا بقوة البطش المعروف من المخلوق، لوقع التشبيه، ولأحتمل الزيادة، وما أحتمل الزيادة والنقصان، وما كان ناقصاً كان غير قديم، وما كان غير قديم كان عاجزاً فربنا تعالى لا شبه له ولا ضد، ولا ند، ولا كيف، ولا نهاية، ولا تبصار بصر، ومحرم على القلوب أن تمثله وعلى الأوهام أن تحده، وعلى الضمائر أن تكونه، جل وعز عن أداة

(١) الكليني / الكافي: ٢ / ٤٦.

(٢) ظ: المؤلف / الإمام محمد الجواد / معجزة السماء في الأرض / ٢٣٤ - ٢٣٥.

خلقه وسمات بريته، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً)[١].

ودافع الإمام في ظل التوحيد عن السنة النبوية بما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في حجة الوداع:

«قد كثرت عليّ الكذابة، وستكثر، فمن كذّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي، فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به»[٢].

وهكذا كان الإمام محمد الجواد عليه السلام كما قال سبط بن الجوزي:

«كان على منهاج أبيه في العلم والتقى والزهد والجود»[٣]، وقد فرضت على الإمام محمد الجواد عليه السلام مسائل في هذا المحور من قبل فقهاء البلاط العباسي زمن المأمون والمعتصم، وأضطر معها الإمام الجواد عليه السلام الى الإجابة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، في تفصيلات مضنية، كان الهدف منها إثارة الفتنة، وإشاعة الفرقة بين المسلمين، ولكن الإمام الجواد قابلها بنضج عقلي متميز، في ردود حاسمة ضيعت الفرصة على الحاكمين الطغاة[٤].

وكان عصر الإمام علي الهادي عليه السلام عصر جدل واحتجاج

(١) ظ: الكليني / الكافي: ١/١١٦ – ١١٧ + الصدوق / التوحيد: ١٤٢ – ١٤٣.

(٢) ظ: الطبرسي / الاحتجاج / ٢٢٩ – ٢٣٠ + المجلسي / بحار الأنوار: ٨٠ – ٨٣.

(٣) سبط ابن الجوزي / تذكرة الخواص / ٣٦٨.

(٤) ظ: المفيد / الإرشاد / ٣٦٠ – ٣٦٣ + المجلسي / البحار: ٥٠/ ٥ – ٧، وسواهما.

ومناظرة في رحاب علم الكلام، ومسائل الاعتقاد والتوحيد واختلاف المدارس في الرؤية والتجسيم، والقضاء والقدر، والجبر والتفويض، والأمر بين الأمرين، وسوى ذلك مما تناوله المتكلمون.

وكان للإمام علي الهادي عليه السلام في هذا الميدان سبق التقرير وقصب السبق ودقة الملاحظة، وقد فصّل القول تارة وأجمله تارة أخرى في دفع الشبهات، ونفي الرؤية والتجسيم، ونفي التشبيه والمثل، ودحض مقالة التفويض وإبطال نظرية الجبر.

١ . ففي التوحيد وتقديس الذات الإلهية كان الإمام مجلياً في نفي المثيل وتعذر الوصف وعجز الإدراك فيما تناله الأوهام أو تدركه الخطرات، أو تحيط به الأبصار تصوراً أو مشاهدة.

ففيما أفاده للفتح بن يزيد الجرجاني قوله :

«.. إن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، وأنى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحده، والأبصار عن الإحاطة به، جلّ عما يصفه الواصفون، وتعالى عما ينعته الناعتون، نأى في قربه وقرب في نأيه، فهو في نأيه قريب، وفي قربه بعيد، كيّف الكيف فلا يقال كيف، وأين الأين فلا يقال أين.. هو الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، جلّ جلاله وتقدست أسماؤه»[1].

---

(١) ظ: الكليني / الكافي: ١/ ١٣٧ - ١٣٨ + المسعودي / إثبات الوصية: ١٩٦ + ابن شعبة / تحف العقول: ٣٩١، الإربلي / كشف الغمة: ٣/١٧٩، وسواها.

٢ - وفي حديث الإمام نفسه نفى الجسمية والتجسيم والتجزئة، فقال: «... وكل جسم مغذوٌّ بهذا إلا الخالق الرازق، لأنه جسّم الأجسام، وهو لم يجسم ولم يجزأ بثناه، ولم يتزايد ولم يتناقص، مبرءاً من ذاته، ما ركبّ في ذات من جسمه،فنشأ الأشياء، مجسم الأجسام، وهو السميع العليم، اللطيف الخبير، الرءوف الرحيم، تبارك عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ولو كان كما يوصف لم يعرف الرب من المربوب، ولا الخالق من المخلوق، ولا المنشئ من المنشأ، لكنه فرق بينه وبين حسمه، وشيء الأشياء إذا كان لا يشبهه شيء يرى، ولا يشبهه شيئاً»[1].

٣ - وفي نفي الرؤية عنه تعالى أجاب الإمام عليه السلام: أحمد بن اسحاق بالقول:

«لا تجوز الرؤية ما لم تكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر، فمتى انقطع الهواء وعدم الضياء لم تصح الرؤية، وفي اتصال الضياء بين الرائي والمرئي وجوب الاشتباه، والله تعالى منزه عن الاشتباه، فثبت أنه لا تجوز عليه الرؤية بالأبصار، لأن الأسباب لابد من اتصالها بالمسببات»[2].

وفي علاقة الهواء اتصالاً وانقطاعاً بالرؤية مع وجود الضياء وعدمه؛ لتحقق الرؤية وعدمها؛ مباحث طريفة للعلم الحديث في القرن العشرين، وكان الإمام علي الهادي عليه السلام قد سبق إليها قبل إثني عشر قرناً.

---

(١) ظ: الكليني / الكافي: ١/ ١٣٧ - ١٣٨ + المسعودي / إثبات الوصية: ١٩٦ + ابن شعبة / تحف العقول: ٣٩١، الإربلي / كشف الغمة: ٣/١٧٩، وسواها.

(٢) الكليني / الكافي: ١/٩٧ + الطبرسي / الاحتجاج: ٢/٤٨٦.

٤ - وفي نفي الصورة الجسم أجاب الإمام بشر بن بشار النيسابوري على مقالته: إن من قبلنا قد اختلفوا في التوحيد، فمنهم من يقول جسم، ومنهم من يقول صورة!!

فكتب إليه الإمام: «سبحان من لا يحد، ولا يوصف، ولا يشبهه شي، وليس كمثله شيء، وهو السميع البصير»[1].

٥ - وفي تشابه الاسم في الوحدانية بين الله والإنسان قال الإمام: «إنما التشبيه في المعاني، فأما في الأسماء فهي واحدة، وهي دالة على المسلمين، وذلك إن الإنسان إن قيل واحد، فأنه يخبر أنه جثة واحدة وليس باثنين، والإنسان ليس بواحد، لأن أعضاءه مختلفة، وألوانه مختلفة، ومن ألوانه مختلفة غير واحد، وهو أجزاء مجزأة ليست بسواء، دمه غير لحمه ولحمه غير دمه، وعصبه غير عروقه، وشعره غير بشره، وسواده غير بياضه، وكذلك سائر جميع الخلق، فالإنسان واحد في الاسم لا واحد في المعنى، والله جلّ جلاله هو واحد لا واحد غيره، لا اختلاف فيه ولا تفاوت، ولا زيادة ولا نقصان، فأما الإنسان المخلوق المصنوع المؤلف من أجزاء مختلفة، وجواهر شتى، غير أنه بالإجماع شيء واحد»[2].

٦ - وعن أدنى حدود المعرفة بالله تعالى قال الإمام الهادي عليه السلام: «الإقرار بأنه لا إله غيره، ولا شبه، ولا نظير، وأنه قديم مثبت موجود غير

---

(١) الكليني / الكافي: ١/١٠٢.

(٢) الصدوق / التوحيد: ١٨٥ + الكليني / الكافي: ١/ ١١٨.

فقيد، وأنه ليس كمثله شيء»[١].

٧ - وعن علم الله بالأشياء قبل خلقها وبعدها، كتب أبو أيوب بن نوح الى الإمام يسأله عن الله عز وجل: «أكان يعلم الأشياء قبل خلق الأشياء وكوها، أولم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها، فعلم ما خلق عندما خلق، وما كوّن عندما كوّن»، فوقع الإمام الهادي بخط يده:

«لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء، كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء»[٢].

٨ - وللإمام علي الهادي عليه السلام تفصيل دقيق مستفيض عن كيفية علم الله تعالى حينما سئل فأجاب:

«علم وأشاء، وأراد، وقدر، وقضى، وأبدى، فأمضى ما أقضى، وقضى ما قدّر، وقدّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الإمضاء.

فالعلم متقدم المشيئة والمشيئة ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء، فلله تعالى البداء فيما علم متى شاء، وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء.. والله يفعل ما يشاء وبالعلم علم الأشياء قبل كوها لا، وبالمشيئة عرف صفاها وحدودها، وأنشأ إظهارها وقدّر أوقاها، وعرف أولها وآخرها، وبالقضاء أبان للناس أماكنها، ودلّ

(١) الصدوق / التوحيد: ٢٨٣.

(٢) الصدوق / التوحيد: ١٤٥.

عليها، وبالإمضاء شرح عللها، وأبان أمرها، وذلك تقدير العزيز العليم»[١].

٩ - وللإمام الهادي عليه السلام رسالة في الجبر والتفويض بعث بها الى أهل الأهواز وقد سألوه عن ذلك.

والجبر عند الأشاعرة يعني أن العباد لا يمتلكون الحرية في الأعمال، ولا الإرادة في الأفعال، وأنهم مجوبون على ذلك جبراً حتمياً. والتفويض لدى القائلين به من المعتزلة: أن العباد غير مقيدين في التصرف، لأن الله تعالى قد فوض إليهم التحكم في الأفعال والأعمال، وترك لهم الإرادة المطلقة في الاختيار فلا سلطان عليهم.

وجاءت أطروحة الإمام الهادي عليه السلام تأكيداً لاستمرارية المبدأ الذي عليه أئمة أهل البيت عليه السلام لدى برمجة الإمام الصادق عليه السلام في قوله (لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين».

وقد ركز الإمام الهادي عليه السلام على هذا المبدأ في رسالته تلك، بدراسة معمقة فريدة كشفت الإبهام عن الحقائق، وقدمت كشفاً كلامياً أزال الأوهام العالقة في الأفق الجدلي، وأنار السبيل بين يدي المتعلمين، ومهّد لهذا الموضوع الخطير بأمرين مهمين أجال فيه النظر في القرآن الكريم والحديث الشريف، وأحال عليهما[٢].

---

(١) الصدوق / التوحيد: ٣٣٤.

(٢) ظ: المؤلف / الإمام علي الهادي / النموذج الأرقى للتخطيط الرسالي: ٢٤١ - ٢٤٢، وقد أورد الرسالة كاملة مع التعليق والتدقيق المناسب، مضافاً إلى تبويبها وبرمجتها.

والرسالة متوافرة في الكتب المعتمدة، فقد أوردها ابن شعبة في تحف القول كاملة (٣٤١ ـ ٣٥٦) وأوردها الطبرسي في الاحتجاج جزءاً لا كلاً في فقرات قد تصل إلى نصفها (٢/ ٤٨٧ ـ ٤٩٦) وأوردها كاملة المغفور له الشيخ محمد حسن آل ياسين ألكاظمي في كتابه (الإمام علي بن محمد الهادي (١١١ ـ ١٢٨).

وهي صالحة لعمل مستقل قائم بذاته يستأهل البحث والتحقيق، وقد أشرنا إليها عسى أن تجد من يتفرغ لها بحثاً وتمحيصاً.

* * *

فإذا وقفنا عند ولده الإمام المفترض الطاعة الحسن العسكري عليه السلام أدركنا مدى الجهود المضنية التي بذلها للحيلولة دون الوقوع في متاهات الضلال المتراكمة نتيجة التلاقح الفكري بين الأمم، ففي عصر الإمام العسكري عليه السلام على قصره علقت بعض الأوشاب في الذهنية السطحية لدى بعض المسلمين، فانبرى الإمام عليه السلام بثباته المتزن وحسن تأنيه للأمور جاداً في تفنيد ذلك، وأحاول تأشير ذلك بصورة موجزة على سبيل النموذج والمثال في نقاط:

١ ـ نجم قرن الشيطان عن ميلاد فرقه سميت (الثنوية) متأثرة بالمجوسية حيناً وبالزرادشتية حيناً آخر، وهي تحاول في زعمها أن تثبت مع القديم قديماً غيره، ومع الإله آلهة تقابله، وهذا هو الإشراك بعينه، وقد اعتمدت هذه الفرقة الضالة مبدأ قائماً بين إلهين: إله النور وإله الظلمة، فإله النور بزعمهم

يمثل مبدأ الخير، وإله الظلمة يمثل مبدأ الشر، وربما أنجذب عنق من الناس لهذا البريق الكاذب، فنهد الإمام لإنقاذهم.

فقد روى الشيخ الكليني (ت٣٢٩هـ) قائلاً:

أخبرني محمد بن الربيع المشائي الشيباني، قال: ناظرت رجلاً من الثنوية بالأهواز ثم قدمت (سر من رأى) وقد علق بقلبي شيء مما قاله، فإني لجالس على باب أحمد بن الخصيب إذ أقبل أبو محمد عليه السلام - يعني الحسن العسكري - من دار العامة يوم المركب، فنظر إلي وأشار بسبابته: أحد، أحد، فسقطت مغشياً عليّ»[(١)].

٢ - وحينما شاهد المسلمون كرامات الأئمة المعصومين تترى، وإفاضاهم بلمح الغيب تتوالى، نشأ سحاب كثيف يغطي الرؤية لدى فريق من الناس، فقالوا بالغلو، مما ينافي في أدنى مبادئ أهل البيت عليهم السلام فما كان من الإمام العسكري إلاّ أن يدرأ هذا الاعتقاد الهدام، ويحمل على هذه الدعوات الضالة.

ففي المناقب عن إدريس بن زياد والكفرتوثائي، قال: كنت أقول فيهم قولاً عظيماً - يعني أهل البيت - فخرجت إلى العسكر للقاء أبي محمد عليه السلام فقدمت وعليّ أثر السفر ووعثاؤه، فألقيت نفسي على دكان حمام، فذهب بي النوم، فما انتبهت إلا بمقرعة أبي محمد عليه السلام قد قرعني بها حتى استيقظت فعرفته، فقمت قائماً أقبل قدميه وفخذيه، وهو راكب،

---

(١) الكليني / الكافي: ٥١١/١ + ابن شهراشوب / المناقب: ٥٣٠/٣.

والغلمان من حوله، فكان أول ما تلقاني به أن قال يا إدريس ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1].

فقلت حسبي يا مولاي، وإنما جئت لأسأل عن هذا، فتركني ومضى»[2].

٣ – قال سهل بن زياد: «كتبت إلى أبي محمد سنة خمس وخمسين ومائتين: قد أختلف يا سيدي أصحابنا في التوحيد،!! منهم من يقول: هو جسم، ومنهم من يقول: هو صورة، فأن رأيت سيدي أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه، فعلت متطولاً على عبدك. فوقع الإمام الحسن العسكري عليه السلام بخطه:

«سألت عن التوحيد... الله واحد أحد،لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، خالق وليس بمخلوق، يخلق تبارك وتعالى ما يشاء، وليس بصورة جلّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه أن يكون له شبيه، هو لا غيره، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[3].

٤ – وفي محنة خلق القرآن، قدمه وحدوثه، وما سفك فيها من الدماء، وما أعتدّ فيها على العلماء، أختصر الإمام الحسن العسكري إيضاح الأمر بالقول الفصل: «الله خالق كل شيء، وما سواه مخلوق»[4].

---

(١) سورة الأنبياء / ٢٦ – ٢٧.

(٢) ابن شهراشوب ٣/ المناقب: ٣/٥٢٩.

(٣) الكليني / الكافي: ١/١٠٣.

(٤) ابن شهراشوب / المناقب: ٤/٤٣٦.

٥ - وفي قضايا الرؤية، روى الكليني مسنداً عن أحمد بن إسحاق، قال: كتبت الى أبي محمد عليه السلام أسأله:

«كيف يعبد العبد ربه وهو لا يراه؟»

فوقع عليه السلام: «يا أبا يوسف جلّ سيدي ومولاي والمنعم عليّ وعلى آبائي أن يرى».

قال: وسألته هل رأى رسول الله ربه؟ فوقع عليه السلام: (إن الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحبّ)[1].

إن هذه الأسئلة من هذا العالم الجليل ليس الباعث فيها الشك والجهل، ولكنها - والله العالم - على سبيل إيصال الحقائق للآخرين، مشفوعة بتوقيع الإمام وحكمه، لتتم عملية التغيير الاجتماعي.

ويؤيده ما روي عن أحمد بن إسحاق نفسه، قال: دخلت على مولانا أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام فقال:

«ما كان حالكم فيما كان فيه الناس من الشك والارتياب؟ فقلت له: يا سيدي لما ورد الكتاب لم يبق رجل ولا امرأة ولا غلام بلغ الفهم إلا قال بالحق. فقال: أحمد الله على ذلك يا أحمد، أما علمتم أن الأرض لا تخلو من حجة؟ وأنا ذلك الحجة، أو قال: أنا الحجة»[2].

---

(١) الكليني / الكافي: ١/٩٥.

(٢) الصدوق / إكمال الدين / ٢٢٢.

الإخبات والإنابة لله تعالى

من صفات الأولياء المقربين الإنابة لله تعالى، والإخبات إليه، والتوكل عليه، والاستعانة به، ولا يعني هذا الانعزال والابتعاد عن واقع الحياة الاجتماعية، بل العمل في صميم الحياة الاجتماعية قد يكون نوعاً من الإنابة لله عز وجل، وذلك في مخالطة الناس بتوادٍ وتراحم، وبشر ومحبة، كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام فلذلك جانب ولهذا جانب، وملاك هذا الإخبات وتلك الإنابة تتمثل بالآثار النبوية وآثار أهل البيت بما لا مزيد عليه، وأرقى درجات ذلك حب لقاء الله تعالى.

فقد ورد في الحديث الشريف: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه».

وهذا يعني الانصراف عن الدنيا بحدود، والاتجاه الى الله دون حدود.

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أفضل

الناس من عشق العبادة وعانقها وأحبها في قلبه، وباشرها بجسده، وتفرغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر».

ويفيض علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرقى نماذج الإنابة بالكسب الحلال، ومجالسة العلماء، والتذلل الى الله وحسن الخلق، وإصلاح السريرة، وطيب السيرة، والتمسك بالسنة، ورفض البدع، والأضاليل فقد روي أنه قال:

«طوبى لمن أنفق ما أكتسب من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة، وحالف أهل الذل والمسكنة. طوبى لمن ذلت نفسه، وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وأمن الناس شره.

طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوته، ووسعته السنة، ولم تستهوه البدعة».

ومراقبة الله تعالى والإنابة يتجليان في عبادة الإنسان له، تلك العبادة المقترنة برؤية الله للإنسان، وإن لم يره الإنسان وفي هذا الضوء نجد أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

«من نقله الله من ذل المعاصي الى عزّ التقوى أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة وأنسه بلا أنيس».

فلله درُّك يا أبا الحسن، فقد سيرت الأمثال وضبطت الأحوال، وغصت في أعماق النفس الإنسانية، فالمعصية ذلُ وأي ذل، والتقوى عزٌ وأي عز، والنقلة من الذل الى العز شرف ما بعده شرف، فإذا كانت النقلة من قبل الله

تعالى، فهي غنى الدهر وعز العشيرة دونها، وأنس الحياة بلا أنيس، وإذا أجتمع ذلك للإنسان تمت سعادته في الدنيا.

إن إثارة هذا الملحظ بهذا العرض من قبل الإمام؛ فيه دفع للاتجاه نحو الطاعة والإنابة لله عز وجل، وفيه دلالة أن النقلة بيد الله، والله لا يعطيها اعتباطا إلا بصالح الأعمال، ونقاء النية، وصدق العزيمة.

ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام النموذج الأرقى للإنابة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو القائل:

«والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً، وأجر في الأغلال مصفداً، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً، والنفس يسرع الى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها».

قال ابن عباس: ما اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله بمثل كتاب كتبه إلي علي بن أبي طالب عليه السلام:

«أما بعد؛ فأن الإنسان يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدرك، فلا تكن بما نلت من دنياك فرحاً، ولا بما فاتك ترحاً، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويرجو التوبة بطول الأمل، فكأن قدِ، والسلام».

ومن حسن تأديبه لنا، وعظيم تدريبه لأنفسنا على الرجاء والإنابة بما روي عنه عليه السلام أنه قال:

«كن لما لا ترجو أرجى لما ترجو، فأن موسى بن عمران خرج ليقتبس لأهله ناراً؛ فكلمه الله عز وجل فرجع نبياً».

وألزمنا أمير المؤمنين بآداب الإنابة، وأصناف الالتجاء الى الله عز وجل، ومظاهر عبادته بانشغال المرء بعيبه عن عيوب الناس، وانشغاله بنفسه دون سواها، فعنه عليه السلام أنه قال:

«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، وأشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة».

وإن للعبد المؤمن أسوة حسنة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان المثل الأرقى في الجهاد والتضحية في سبيل الله عز وجل، وكان العبد المنيب لله بكل معنى الكلمة، فيروى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام حتى تورمت قدماه!! فقيل له: يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً»

وروي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

يا رسول الله، أنا لا أصلي سوى الفرائض الخمس، ولا أصوم سوى شهر رمضان، وليس عندي مال يوجب علي الزكاة!! فأين تراني بعد الموت؟ فقال صلى الله عليه وآله:

«أربعة من كن فيه كان في نور الله الأعظم:

«من كان عصمة أمره بشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ومن

أصابته مصيبة قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمد لله رب العالمين، ومن إذا أصاب خطيئة قال «أستغفر الله ربي وأتوب إليه».

ولقد لخص أمير المؤمنين هذا كله فيما روي عنه أنه قال: «بالإخلاص يكون الخلاص».

والإخلاص هو جوهر الأعمال الدالة على صدق النية وطهارة الضمير، والإخلاص أبرز مظاهر الإنابة لله عز وجل.

وقد أشار أمير المؤمنين إلى المظاهر التي ملاكها الإخلاص في قوله: ثلاث من حافظ عليها يسعد: إذا ظهرت عليك نعمة فاحمد الله. وإذا أبطأ عنك الرزق فأستغفر الله، وإذا أصابتك شدة فأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله».

وهذه اللفتات البارعة من أمير المؤمنين تعدّ الطريق بين يدي السعادة الأبدية، فالشكر لله والحمد عند توالي النعم، وتواتر الألطاف الإلهية مما يوجب بقاء النعم بل زيادتها.

قال الله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم..»

والاستغفار ينزل الرزق من السماء كما في حديث نوح لقومه، وأما الشدائد والمصائب، فتدفع بلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم».

ومن الإنابة لله عز وجل: الزهد في الدنيا بكل مظاهره إلا ما فيه إعزاز الدين، ونصرة الإسلام الحنيف.

وكانت الزهراء عليها السلام تمثل هذا النوع من الزهد، بما ضرب أروع الأمثلة في الإنابة لله عز وجل، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على أبنته فاطمة الزهراء عليها السلام، وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

ومن مظاهر الإنابة في الدرجات العلى، ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«من قال الحمد لله كما هو أهله» شغل كتاب السماء فيقولون:

«اللهم إنا لا نعلم الغيب» فيقول الله تعالى: «أكتبوها كما قال عبدي، وعلي ثوابها».

* * *

والطرق إلى الله تعالى متعددة ورحمته واسعة، والسبيل الى الجنة سالكة، ذلك بفضل الله عز وجل فآلاؤه على عباده متواترة، وأياديه فوق الأيادي، وقد عبّد للناس جادة الخلاص، وبصّرهم الصراط المستقيم، والعاقل من أتعظ بغيره، وذو الرأي الحصيف من أدرك بعد الغاية، والغيور على نفسه وأمته من أحتاط لهما، واستقام حتى نهاية المدى، وقد يسر الله سبل النجاة للعباد، فلا يعجب ممن نجا كيف نجا، بل يعجب ممن هلك كيف هلك، والعياذ بالله.

قيل للإمام زين العابدين عليه السلام: إن الحسن البصري يقول: ليس

العجب ممن هلك كيف هلك، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا.

فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: أما أنا فأقول: ليس العجب ممن نجا كيف نجا، وإنما العجب ممن هلك كيف هلك مع رحمة الله التي وسعت كل شيء».

ومن بدائع الإشارات الروحية ذلك النقاء والصفاء والإصحار بالمناخ العقلي الى الإلهيات المطلقة، والحياة الفارهة في عوالم المناجاة الابتهال لله عز وجل.

وكان الإمام زين العابدين بطل هذا المنحى وفارسه المجرّب، شأنه بذلك شأن جده أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة الطاهرين.

قال - وهو يناجي ربه - بعبارة موجزة مؤثرة متألقة:

فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر الى شكر، وشكري إياك يفتقر الى شكر، فكلما قلت: «لك الحمد وجب علي لذلك أن أقول: لك الحمد»، وهذا التوجه العالي في المناجاة يطأطئ أمامه الفكر الروحي، إذ يرى الإمام أن الاقتدار على الشكر والنطق به يفتقر الى شكر لأنه من التوفيق الملازم لذلك الشكر، فكلما قال: الحمد لله، كان ذلك مؤشراً أن يحمد الله عليه مجدداً».

هذه الإشارات البارعة يعطي لها حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام لوناً آخر، وذائقة معرفية جديدة، تعنى بالذات الإلهية المقدسة التي لا تدرك ولا تحس، ولا يضارعها شيء، فروي أنه حمد الله تعالى بالقول:

«الحمد لله الذي لا يحس، ولا يجس، ولا يمس، ولا يدرك بالحواس الخمس، ولا يقع عليه الوهم، ولا تصفه الألسن، وكل شيء حسّته الحواس، أو لمسته الأيدي فهو مخلوق...».

والله عز وجل هو الخالق، فلا يشبهه شيء، ولا تدركه الأبصار والأوهام.

وقد وصف أمير المؤمنين أخاً له في الله فأكد على جانبه بالإنابة والإخبات، ومسالك التقوى فقال:

«قد كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان لا يلوم أحداً حتى لا يجد العذر في مقله، وكان لا يشكو وجعاً إلاّ عند برئه، وكان يفعل ما يقول، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إن غلب في الكلام لم يغلب في السكوت، وكان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم وكان إذا بدهه أمران؛ نظر أيهما أقرب الى التقوى فَخَالَفَه».

فعليكم بهذا الخلائق فألزموها، وتنافسوا فيها، فإن لم تستطيعوا فأعلموا أن أخذ القليل خير من ترك الكثير».

وإذا حلّـــت الهدايـــة قلبـــاً ... نـــشطت للعبـــادة الأعـــضاء

والأصل في ذلك التوبة النصوح والإنابة الصادقة، خشوعاً لله تعالى، والتزاماً بأوامره ونواهيه دون رياء، أو نفاق أو مداجاة، فقد حكى أن سبب توبة بشر الحافي أنه اجتاز مولانا الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام على

دار بشر ببغداد فسمع منها الملاهي، وأصوات الغناء، فخرجت جارية صاحب المنزل، وبيدها قماقة، فرمت بها في الدرب، فقال الإمام الكاظم عليه السلام: يا جارية؛ صاحب هذه الدار حر أم عبد، فقالت: بل حر، فقال الإمام: صدقت لو كان عبداً خاف من مولاه!! فلما دخلت قال لها مولاها وهو على مائدة السكر: ما أبطأك؟ فقالت: حدثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافياً يعدو وراء الأمام حتى لقيه، فأعتذر منه وبكى لديه استحياءً من عمله، وتاب مما هو عليه توبة نصوحاً.

ومنازل الإخبات متدرجة في المراتب، والكمال الذاتي عند الأولياء درجات، والأصل في ذلك إصلاح السرائر، وسلامة العلاقة بين المرء وربه، فقد نقل عنهم عليهم السلام: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن تحمل لدينه كفاه الله أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله، أحسن الله فيما بينه وبين الناس».

وسيماء الظاهر قد تدل على سيماء الباطن، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى شاباً يصلي بخشوع وخضوع في المسجد، وبقراءة صحيحة، فدعاه وأعطاه مبلغاً من المال، ثم قال له: أتعرف لماذا أعطيتك هذا المال؟ فقال الشاب: لقرابتي منك من جهة أمك!! فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا، ولكن لحسن صلاتك، وصحة قراءتك».

وذلك إنّ العبادة لله عز وجل، فقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبة له بذي قار:

«أما بعد؛ فإنّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله ليخرج عباده من عبادة عباده إلى عبادته».

وذلك أن لا يخاف الإنسان إلا ذنبه، ولا يخشى إلا ربه، وأن يتوكل على الله تعالى في كل الأحوال، مع التواضع وولاء أولياء الله، فقد روي عن الحسن بن جهم، قال:

سألت الإمام الرضا عليه السلام، فقلت:

جعلت فداك؛ ما حدّ التوكل؟ فقال لي:

«أن لا تخف مع الله أحداً».

قلت: ما حد التواضع؟ فقال لي:

«أن تعطي من نفسك ما تحب أن يعطوك مثله».

قلت جعلت فداك؛ أشتهي أن أعلم كيف أنا عندك؟

فقال عليه السلام: أنظر كيف أنا عندك.

فظنني مذ غدا منه الجواب له   عين السؤال صدى من صفحة الجبلِ

والحب في الله، والبغض في الله يكشف عن حقيقة الإيمان، والإيمان من أسمى مراتب الإنابة، فيروى أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه في الله، ويبغض أقرب الخلق منه في الله».

والمنيب لله عز وجل ينبغي أن يحكم عقله في مجريات الأمور، وساعات

الليل والنهار بما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات:

ساعة يناجي فيها ربه.

ساعة يحاسب فيها نفسه.

وساعة يتفكر فيها بصنع الله عز وجل.

وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب».

إن هذا التقسيم لساعات العاقل فيها من الذائقة الفطرية ما فيها.. فساعة يتمحض للعبادة المثلى فيناجي الله تعالى، فيؤدي الواجبات المفروضة وجوباً، ويتعقبها بالمستحبات. وأخرى يحاسب فيها نفسه فيما كسب وأكتسب، وقال وعمل، وفيما قدّم وأخر، وفيما أخذ وأعطى.

وساعة يتفكر في جميع صنع الله به، وعظيم خلقه للسماوات والأرض والبحار، وهو عالم فسيح يطل به على ملكوت الله تعالى، في دقة الصنع وجليل الإيجاد، وتوازن الأشياء، يضاف الى لذلك: العوالم الأرضية في الانبساط والدحو، والجبال والتلال والوهاد والمرتفعات والمنخفضات والشواطئ والموانئ، وما أنبتت الأرض وأخرجت.

ولّما كانت الطبيعة البشرية جبلت على احتياجاها المشروعة وفيما أباحه الله لهذا الإنسان، فلا بدّ له من ساعة يخلو فيها لملذاته في غير محرم، والى

حاجته فيما يسدّ به رمقه فيما يطعم ويشرب من طيبات رزق الله تعالى.

وكان مما أوصى به أمير المؤمنين بعض أصحابه ممهداً بين أيديهم سبل الخير ومعالم الطريق ومكارم الأخلاق، مما روي أنه قال:

«أوصيكم بالخشية من الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والاكتساب في الفقر والغنى، وأن تصلوا من قطعكم، وتعفوا عمن ظلمكم، وتعطفوا على من رحمكم، وليكن نظركم عبراً وصمتكم فكراً، وأقوالكم ذكراً وطبيعتكم السخاء، فأنه لا يدخل الجنة بخيل، ولا يدخل النار سخي».

وللمؤمن المنيب صورة مشرفة في سجل أهل البيت عليهم السلام؛ متمثلة بروح روحاء تحضره عند الإحسان، وتتوارى عنه لدى الإساءة، فهي بين سرور وحزن، وذلك وفوق ذلك ما روي في الكافي للكليني عن محمد بن سنان عن أبي خديجة قال: دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقال لي:

«إن الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن بروح تحضره في كل وقت يحسن فيه يتقي، وتغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتز سروراً عند إحسانه وتسيح في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقيناً، وتربحوا نفيساً ثميناً، رحم الله امرءاً هم بخير فعمله، وهم بشرّ فأرتدع عنه».

وهذه الإفاضة فيها رفق بالإنسان وعطف عليه، وتوجيه له نحو معالي الأمور، واجتناب المساوئ والمكاره.

ولكرامة المؤمن عند الله تعالى أحاديث لأهل البيت تترى، ومنازل مرفوعة تتواصل بالمسير معه حتى قبض روحه براحة واطمئنان، فقد روي الكليني في الكافي عن سدير الصيرفي قال: قال: قلت لأبي عبد الله (يعني الإمام الصادق عليه السلام): جعلت فدالك يا ابن رسول الله: هل يكره المؤمن على قبض روحه؟.

فقال عليه السلام: «لا والله؛ إنه إذا أتاه ملك الموت ليقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول ملك الموت، يا ولي الله لا تجزع، فو الذي بعث محمداً لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والدٍ رحيم لو حضرك، افتح عينيك فأنظر!! فيتمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة رفقاؤك، فيفتح عينيه وينظر، فينادي منادٍ من قبل رب العزة، فيقول:

يا أيتها النفس المطمئنة أرجعي الى ربك راضية مرضية بالثواب، فأدخلي في عبادي يعني محمداً وأهل بيته وأدخلي جنتي، فما من شيء أحب إليه من استلال روحه، واللحوق بالمنادي».

وكان أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره المقربون يتهافتون على المنية دون الحسين ببصيرة نافذة، ويقين ثابت، ونفوس أبية، منيبين لله عز وجل متكلين عليه في السراء والضراء والبلاء، فقد روي الصدوق بسنده عن أبي عمارة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن

أصحاب الحسين عليه السلام وإقدامهم على الموت؟ فقال عليه السلام:

(إنهم كشف لهم الغطاء فرأوا منازلهم في الجنة فكان الرجل يقدم على القتل ليبادر إلى حوراء يعانقها، والى مكانه من الجنة).

أقول إن صحت الرواية فتأويلها أن الإمام الحسين عليه السلام لما عرف من أصحابه صدق العزيمة، والثبات على المبدأ، والصلابة في الحق، والتهافت على الشهادة، والتصميم على نصرته والتضحية بين يديه بأنفس ما يملكون وذلك أنفسهم، فأومأ إليهم - كما في بعض الروايات - بالنظر الى منازلهم الرفيعة في الجنان.

وفي هذا تعرف مدى الإخلاص لقضية الحسين عليه السلام من قبل أصحابه، ومدى خلوص نياهم، فوفقوا إلى معرفة مصائرهم، وإراءة درجاهم، وعلو منازلهم عند الله تعالى.

وقد ورد في الحديث القدسي سمة هؤلاء المخبتين ممن يتقربون الى الباري عز وجل بالنوافل، وإذا بهم أحباب الله تعالى.

جاء في هذا الحديث: «إن عبدي ليتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته».

ذكر القاضي التنوخي في (الفرج بعد الشدة) إن أصحاب الأخدود كانوا من المؤمنين الداعين الى الله تعالى، وأن ملكهم، أضرم لهم ناراً، وطرحهم فيها، فأطلع الله على صبرهم، وخلوص نياهم في دينه وطاعته، فأمر النار أن

تحرقهم، فشوهدوا فيها قعوداً، وهي تضطرم عليهم ولا تحرقهم، ونجوا منها، وجعل الله دائرة السوء على الملك وأهلكته.

والرواية عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام، أخبر عنهم: أن الله بعث رجلاً حبشياً وهم حبشة فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه، وأسروه وأسروا أصحابه، ثم بنوا حيراً فملأوه ناراً ثم جمعوا الناس، فقالوا من كان على ديننا وأمرنا فليعتزل، ومن كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النار معه، فجعل أصحابه يتهافتون في النار، فجاءت امرأة معها صبي لها أبن شهر، فلما هجمت على النار هابت ورقت على أبنها، فناداها الصبي: لا تهابي وإرمِ بنفسك في النار فإن هذا والله في الله قليل. ورمت بنفسها في النار وصبيها كان ممن تكلم في المهد».

ذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان لدى تفسيره لسورة البروج، ومن الإنابة المطلقة الاستعداد للموت بما يطيل به الفكر ويوجه إليه النظر، ولذا إستحب للإنسان أن يهيىء كفنه وأن ينظر فيه، وفي ذلك من العظة والاعتبار ما فيه....

قد روي أن محمد بن عثمان بن سعيد العمري وهو وكيل الناحية المقدسة ـ قد حفر لنفسه قبراً وسواه بالساج، ونقش آياته من القرآن، وأسماء الأئمة عليهم السلام على حواشيه، فسئل عن ذلك فقال: للناس أسباب!!

وكان في كل يوم ينزل في قبره، ويقرأ جزءاً من القرآن ثم يصعد، وقبره اليوم في بغداد في شارع باب الكوفة قديماً، وبالقرب من الباب الشرقي حديثاً

ويعرف عند أهل بغداد بالشيخ الخلاني، وعنده الآن مسجد الخلاني وفيه مكتبة عامرة أسسها المغفور له السيد العلامة محمد الحيدري المعروف بالسيد محمد الخلاني، لأنه إمام المسجد والمسؤول عن القبر والمكتبة التي تضمّ عشرات الآلاف من كتب التراث.

وفي ظل الإنابة والتوكل، ما روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل على شاب يجود بنفسه فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي!! فقال النبي صلى الله عليه وآله: «الرجاء والخوف لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا بلغه ما يرجو، وأمنه مما يخاف».

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام منصهراً في ذات الله.. إذا توجه في صلاته فلا يشغله تفكير أو التفات عنها إلى شيء آخر، فروي أنه وقع حريق كان فيه زين العابدين عليه السلام وهو في صلاته، فجعلوا يقولون له: يا أبن رسول الله، يا أبن رسول الله: النار النار، فما رفع رأسه من سجوده حتى أطفأت النار.

فقال له بعض خواصه: ما الذي ألهاك عنها؟ فقال: نار الآخرة.

وروى أبو حمزة الثمالي قال:

رأيت علي بن الحسين عليهما السلام يصلي وقد سقط رداؤه عن منكبته، فلم يسوه حتى فرغ من صلاته. فقلت له في ذلك!! فقال: «ويحك أتدري بين يدي من كنت؟ إن العبد لا يقبل منه صلاة إلا ما أقبل فيها» فقلت جعلت فداك، هلكنا إذن!! فقال كلا: إن الله يتم ذلك بالنوافل.

وكان عليه السلام يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل يطوف به على فقراء المدينة يتصدق به عليهم ويقول: «صدقة السر تطفئ غضب الرب» والمؤمن اليوم وأمس وغداً قد يعيش غريباً يعاني من الوحشة ويقاسي آلام الوحدة في حياته هذه، ولكن الله تعالى جعل له من إيمانه أنساً يسكن إليه، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من مؤمن إلا جعل الله له من إيمانه أنساً يسكن إليه، حتى لو كان على قلة جبل لم يستوحش. وعلى العكس من هذا من كانت الدنيا كل همه وأكبر شغله كما نحن عليه اليوم، فسوف يلاقي أمره بالشتات، وحياته بالنكبات، حتى يعود الإنسان الى ضميره فيستيقظ من هذا السبات ويفيق من ذلك الغرور، فتعود الآخرة أكبر همه فتتغير الحال، وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

«من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همته، جعل الله تعالى الفقر بين عينيه، وشتت أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم له، ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه؛ جعل الله تعالى الغنى في قلبه، وجمع له أمره».

وهذا أمير المؤمنين فيما روى عدي بن حاتم الطائي: أنه نظر إلى أمير المؤمنين وبين يديه: «ماء قراح وكسرات من شعير، وقليل من الملح»، فقال له: يا أمير المؤمنين: تظل نهارك طاوياً مجاهداً وتظل ليلك ساهراً مكابداً، ثم يكون هذا طعامك ».

فقال عليه السلام:

علّل النّفسَ بالقنوعِ وإلاّ ... طلبت منك فوق ما يكفيها

والمخبتون إلى الله تعالى حقاً هم الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾[(١)].

«ربنا ما خلقت هذا باطلاً..» تمشياً مع دعوة القرآن للتفكر في آيات الله، والتبصر ببديع صنعه، والتدبر بعجيب آياته.. وهو ما يشغل حيزاً متميزاً من القرآن العظيم وقد نهض الموضوع بعدة رسائل جامعية قيمة، وشذرات تفسيرية رائعة.

وقد نبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى عظمة ذلك، وأضاف إليها تفرع الألسن واللغات، وعوالم الشجر والنبات، واختلاف الليل والنهار، استدلالاً منه على الصانع الحكيم، وشجباً لدعاوى الإنكار والإلحاد فقال عليه السلام:

«فأنظر إلى الشمس والقمر،والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار وكثرة هذه الجبال، وطول هذه الظلال، وتفرق هذه اللغات والألسن، المختلفات، فالويل لمن جحد المقدر وأنكر المدبر!!.

زعموا أنهم كالنبات ما لهم زراع، ولا لاختلاف صورهم صانع، وهل يكون بناء من غير بانٍ أو جناية من غير جان» ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[(٢)].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩١.

(٢) سورة ص / ٢٧.

ومن الإنابة إلى الله تعالى: الابتعاد عن الظالمين وأعوانهم، والاحتراز من كيدهم وإغرائهم، والإيغال بالنفس عنهم قدر المستطاع، وهذا ما فعله أئمتنا عليهم السلام في سنتهم القولية والفعلية معاً.

يروى أن المنصور الدوانيقي كتب إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

لِمَ لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فأجابه الإمام:

«ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك بها، ولا نعدّها نقمة فنعزيك بها».

فكتب المنصور إلى الإمام تصحبنا لتنصحنا!!

فكتب إليه الإمام الصادق عليه السلام: «من يطلب الدنيا لا ينصحك، ومن يطلب الآخرة لا يصحبك».

حياة الدنيا والآخرة وعالم الغيب

الحياة الدنيا خلق لها الإنسان لإعمارها بالباقيات الصالحات، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

وأباح الله طيباتها للناس، ولم يحرم زينتها، وأراد من الإنسان المتكامل: أداء الواجبات، والامتناع عن المحرمات، والتورع عند الشبهات، فإذا تفرغ الإنسان لذلك قام بحقوق الدنيا والآخرة، وكان من الذين قال الله بحقهم:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

أما الطغاة وأرباب الدنيا من الظلمة والفجرة، فقد رضوا من الدنيا بالانتفاخ وعسف الناس، والتسلط على الأموال والأعراض، وانتهاك الحرمات، وقتل الأبرياء، متناسين ذلك اليوم الذي ينتصف فيه للمظلوم من

---

(١) سورة الذاريات / ٥٦.

(٢) سورة القصص / ٨٣.

الظالم، يرونه بعيداً، ويراه الله تعالى قريباً، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«يقول الله تعالى: أشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم».

وقال عليه السلام أيضا: «إياك ودعوة المظلوم، فإنما يسأل الله حقه».

ولو أن الناس ابتعدوا عن الظالمين، وولاية أعمالهم، لما استطاع أولئك أن ينفذوا مخططهم الإجرامي بحق الناس، ولكنهم أعانوهم ونصروهم، وعملوا في دواوينهم، ولكن العاقبة للمتقين، فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الظلمة؟ وأعوان الظلمة، وأشياع الظلمة، حتى من برى لهم قلماً، أو لاق لهم دواة، فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم».

وحكي أن الحجاج حبس رجلاً ظلماً، وكل أحكامه ظالمة، فكتب إليه رقعة فيها: «قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والموعد القيامة والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج إلى بينة:

إلى ديّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

وتوجه الناس في القاهرة إلى السيدة نفيسة بنت الحسن بن أبي الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام فأوقفت حاكم القاهرة في الطريق فناولته رقعة فيها:

«ملكتم فأسرتم، وقدتم فقهرتم، وخولتم فعسفتم، ردّت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، لاسيما من قلوب وجبتموها، وأجساد عريتموها،؛ فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا فإنا إلى الله مستجيرون، وأظلموا فإنا إلى الله متظلمون»، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

قال الراوي فعدل الحاكم لوقته.

وقليل المتعظ، لأن الناس أبناء الدنيا ولها يعملون، وقد قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما أكثر حب الناس للدنيا؟. فيروى أنه أجاب: «هم أبناؤها، ولا يلام الإنسان على حب أمه».

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة؛ ما سقى كافراً منها شربة ماء».

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الدنيا، وكشف القناع عن حقيقتها، فيروى أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له».

---

(١) سورة الشعراء / ٢٢٧.

وعن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أن قال:

«الدنيا سبات والآخرة يقظة، ونحن بينهما أضغاث» وشأن الدنيا أنها متقلبة بأهلها من حال إلى حال، فإن بقاء الحال من المحال، وقد ورد في الحديث الشريف:

«إذا أقبلت الدنيا على الرجل أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه» ولهذا أعتبر سيدنا الحسن بن علي عليهما السلام أن أعظم الناس قدراً، من لم يعر للدنيا همة ووكره، فقد روي أنه سئل: من أعظم الناس قدراً؟ فقال عليه السلام:

«من لم يبال بالدنيا بيد من كانت» وهذه منزلة الصديقين والأبرار والمتقين.

وقد مثل الإمام جعفر الصادق عليه السلام الدنيا بما روى أنه قال:

«مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلما شرب منه العطشان ازداد عطشا، حتى يقتله».

وفي هذا الضوء يتحفنا الأمام جعفر الصادق عليه السلام بالقول «عجبت لمن يبخل بالدنيا وهي مقبل عليه، أو يبخل بها وهي مدبرة عنه، فلا الإنفاق مع الإقبال يغرّه، ولا الإمساك مع الإدبار ينفعه» وقد نهي في الحديث الشريف ترك الدين للدنيا، فإن ذلك يفتح باباً فيه من الضرر العظيم، وجاء في الحديث «لا يترك الناس شيئاً من دينهم لاستصلاح دنياهم، إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه».

ومن نفائس الأقوال عملياً ما روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في المقارنة بين الدين والدنيا، قال:

«إن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض، ولا يعطي دينه إلا من يحب» أما المؤمن فيتمتع من الدنيا كما يتمتع غيره وهو على دينه، وقد ورد عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام يوصي بالعمل للدين والدنيا، ليجمع بين الأمرين، فلا يترك هذه لهذه، بل يأخذ من هذه وهذه.

يروى أنه عليه السلام قال: «اعمل لدنياك كأنك تعش أبداً، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» نفعنا الله بهذه الحكمة الفريدة ومنّ علينا بحسن العاقبة.

والحق أن أمير المؤمنين عليه السلام من خلال مواعظه الاعتبارية صوّر حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة كما هما عليه، فعنه أنه قال: أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من دار ممركم لقراركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم بأسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم.

وقد طبّق ذلك أمير المؤمنين عليه السلام عملياً فقد دخل عليه سويد بن غفلة، فوجده جالساً على حصير فقال لأمير المؤمنين عليه السلام:

«بيدك المال ولست أرى في بيتك ما يحتاج إليه البيت!!».

هذا والإمام قد بويع في الخلافة، فقال عليه السلام:

«يا ابن غفلة أن البيت لا يتأثث في دار النقلة، ولنا دار نقلنا إليها خير

متاعنا، وإنا عن قليل إليها صائرون».

والإمام عليه السلام في هذا السياق يوصي ولده الإمام الحسن عليه السلام وذلك لتعليمنا وإنقاذنا وإرشادنا، فالإمام الحسن عليه السلام إمام معصوم مفترض الطاعة،، والكلام جارٍ بـ (إياك أعني وأسمعي يا جارة) قال له أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك العمل الصالح».

ومن كلام لأمير المؤمنين يجري على سبيل الوعظ والإرشاد والتوجه لصالح الأعمال (وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم فللآخرة خلقتم وللدنيا حبستم).

إن المرء إذا هلك؛ قالت الملائكة ما قدّم، وقالت الناس: ما خلف؟ فلله آباؤكم قدموا بعضاً يكن لكم، ولا تتركوا كلاً يكن عليكم، فإنما مثل الدنيا مثل السم يأكله من لا يعرفه».

ولهذا وذلك فقد أمر أمير المؤمنين عليه السلام المسلمين بمحاسبة أنفسهم قبل الحساب، والتمهيد لها قبل العذاب، والتزوّد للرحلة الكبرى قبل الإزعاج». قال عليه السلام: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، ومهّدوا لها قبل أن تعذّبوا، وتزودوا للرحيل قبل أن تزعجوا، فإنما هو موقف عدل، وقضاء حق، ولقد أبلغ في الاعتذار من تقدم بالإنذار».

وكان ديدن أمير المؤمنين متابعة الآخرين، وتحذيرهم من مزالق الدنيا، وترغيبهم بحياة الآخرة، فقد قال لرجل سأله أن يعظه: «لا تكن ممن يرجو

الآخرة بلا عمل، ويرجو التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع لم يقنع، ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي..».

وقد أعطى أمير المؤمنين لمصائب الدنيا أجرها عند الله تعالى بالتعبير عن ذلك بما روي عنه أنه قال:

«مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة».

وقد رغّب الإمام في الزهد بالدنيا وأوصى بعدم البذخ والسرف فيها، وحبب للناس القناعة دون الاستكثار والتقشف دون الاستئثار، فقد روى أن شريحاً القاضي أشترى داراً، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، فقال أمير المؤمنين له:

«لو أنك حين أردت شراء الدار أو أحد أراد شراء دار، وجاءني كنت أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أشترى عبد ذليل، من ميت قد أزعج بالرحيل، أشترى داراً من دور الآفات، من الجانب الفاني من عسكر الهالكين ومجمع الغافلين، يجمع هذه الدار حدود أربعة:

فالأول ينتهي إلى لهش الآفات، والثاني ينتهي إلى عظيم المصيبات، والثالث ينتهي إلى كثرة الغفلات، والرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي، والهوى الموقع في التهلكات، وإليه يشرع باب هذه الدار التي أشتراها هذا المزعوج بالأجل، من هذا المغرور بالأمل، فما أدرك مشتري هذه الدار فعلى مبلبل الأجسام وقاصم الجبابرة العظام، ثم تبّع وحميّر، وكسرى، وقيصر، ما أوضح

الحق لذي عينين، إن الرحيل هو احد اليومين».

وفي هذا الضوء من الاعتبار نجد الإمام الصادق عليه السلام يشير إلى مخافتين يتعايشهما المؤمن الحق، فروي أنه قال:

«ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما لله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته».

وقد جاء في المأثور «أن الموعظة إذا خرجت في القلب دخلت إلى القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان».

❊ ❊ ❊

وبعد هذا الموجز لحياتنا الدنيا نتوجه بالحديث عن الحياة الأخرى بشيء من الاختصار النافع إن شاء الله.

للآخرة حياة نجهل تفصيلاتها بحدود، ونعرف بعضها بحدود أخرى وما تحدث به القران يكشف عن طبقات الناس في الآخرة وهم: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وعن الجنة والنار والحشر والنشر، وقيام الساعة، وبعثرة ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور، وحالات الموت وانتزاع الأرواح، وأهل الجنة، وأهل النار، ورجال الأعراف.

تلك عوالم حية تحدث عن القران العظيم بتفصيل متسع وكتب عن ذلك رعيل من العلماء والمفكرين.

وهذا كله من عالم الغيب الذي صدع به القرآن فأمنا به، ولا بدلنا من المرور به شئنا أو أبينا، وفي هذا الضوء نقف على بعض المأثورات فيما يتعلق بالموضوع على سبيل النموذج ليس غير، فنتحدّث أولاً عن بعض روايات البرزخ والقيامة، ونتبع ذلك بأحداث عالم الغيب أنباءً وإخباراً،و تعلماً من ذي علم، وهو رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم).

١ - روي عن النبي صلوات الله عليه وعلى آله إنه قال:

«كما تنامون تموتون، وكما تستيقظون تبعثون».

وهذا التشبيه البليغ قد طبق المفصل في تصوير حدوث الموت وكيفية البعث والنشور، فكما ينام الإنسان يموت، وكما يستيقظ يبعث، وذلك هو الاستيقاظ الحقيقي.

قال أبو الحسن التهامي:

فالعيشُ نومٌ والمنيةُ يقظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ ساري

وفيما أورده الإمام محمد الباقر عليه السلام عن قول لقمان لابنه، غنية عن التمثيل والاستطراد، قال لقمان لابنه:

«يا بني إن تك في شك من الموت فأدفع عن نفسك النوم، وإن تك في شك من البعث فادفع عن نفسك الانتباه».

٢ - روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال:

«أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد ويخرج من بطن

أمه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة، ويوم يبعث فيرى إحكاماً لم يرها في دار الدنيا».

وهذه المواطن الثلاثة تمثل عوالم مختلفة في طبيعة ظواهرها، فيوم يولد الإنسان يكون إيذاناً بانتهاء حياة الأرحام والأطلال على هذا العالم الفسيح، ولكن المفارقة أن يولد باكياً والناس في سرور.

قال الشاعر:

ولدتك أمّك يا ابن آدم باكياً والناسُ حولك يضحكون سرورا

فارغب بنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسرورا

وهذا الميلاد لابد أن ينتهي إلى الموت قطعاً كما سنرى.

قال الشاعر:

يا أيّها المعدود أنفاسه لابد يوماً أن يتمّ العددْ

لا بدَّ من يومٍ بلا ليلةٍ وليلة تأتي بلا يوم غدْ

فينظر الإنسان حينئذ إلى عوالم الآخرة، وهو أخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، وكان البعث والنشور هو الموطن الثالث العجيب، فيرى من المشاهد والإحكام والظواهر الجديدة مالا عهد له به.

ويتحدث الإمام زين العابدين عليه السلام عن اللحظات الصعبة، والأوقات الحرجة على الإنسان فيقول:

«ثلاث ساعات من أصعب الساعات على ابن ادم:

الساعة التي يعاين فيها ملك الموت. والساعة التي يقوم فيها من قبره.

والساعة التي يقف فيها بين يدي الله عز وجل، فأما إلى الجنة، وإما إلى النار».

وهذا ما هو جار على العباد لا محالة، فالساعة التي ينظر فيها ملك الموت أخر عهده في الدنيا، والساعة التي يقوم فيها من قبره تعني النشور ولا يعلم الإنسان ما يلاقي، والساعة التي يقف فيها بين يدي الله تعالى، تكون الفاصلة في المصير، إذ يعطى كتابه؛ فأما إلى جنة وإما إلى نار.

٣ ـ ولحظات الموت لحظات حاسمة كثير من أبعادها، بل في كل إبعادها، فالمرء في سكرات موته يشاهد أمورا لم يألفها من ذي قبل، كلها جديدة عليه، مذهلة له، فأستخرج الروح من اشق العمليات عليه، ومعاينة الملائكة وهم يتولون ذلك أمر غريب، والانتقال من عالم الدنيا إلى الآخرة درس جديد يتلقاه بمرارة إلا من رحم الله، وفراق الأهل والأحبة مما يقضّ المضجع، والنزع الأخير مما يكشف عن هول المطلع، ومع هذه الشدائد، وتتزاحم تلك المشاهد، تبدو بعض الإحداث في عالم مثالي متحرك يعبر عما خلف وترك واثر وعمل، كل ذلك يلاحقه ملاحقة الظل للشاخص، وهذا ما يكشفه أمير المؤمنين (عليه السلام) بما روي انه قال:

«إن العبد إذا كان في أخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، مثّل له ماله وولده وعمله!!

فيلتفت إلى ماله ويقول: والله إني كنت عليك حريصاً شحيحاً فمالي عندك؟.

فيقول: خذ مني كفنك!!

فيلتفت إلى ولده ويقول: والله إني كنت محباً، واني كنت عليكم محامياً، فمالي عندكم؟.

فيقولون: نؤديك إلى حفرتك فنواريك فيها!!

فيلتفت إلى عمله ويقول: والله إني كنت فيك زاهداً، وانك كنت عليّ لثقيلاً، فما لي عندك؟.

فيقول: إنا قرينك في قبرك، ويوم نشرك، حتى أعرض أنا وأنت على ربك».

٤ - ومشاهد يوم القيامة، وهو يوم البعث والنشور، والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، مشاهد عديدة، ومواقف مثيرة، ولحظات حاسمة، ومنازل خطيرة، وهو يوم التغابن والحسرة، والندامة، وتتعدد هذه المشاهد بتعدد الحالات بين العبد وربه، ومن ذلك تواتر العفو الإلهي، وشمول المذنبين بالرحمة، فلا ييأس العبد ولا يتراجع ظنه فالظن الحسن بالله عز وجل قد ينجي من الكوارث يوم القيامة، واللطف الإلهي فوق كل الاعتبارات الأخرى، والله عز وجل: وهاب، منّاح، متفضل، كريم، حليم، رءوف، رحيم.

وهي في هذا الصدد رواية عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه قال:

«إذا كان يوم القيامة جيء بعبد فيؤمر به إلى النار فيلتفت فيقول الله سبحانه: ردوه، ثم يقول له: عبدي لم التفت؟ فيقول:

«يا ربّ ما كان بك ظني هذا؟

فيقول الله جلّ جلاله: فما كان ظنك؟

فيقول يا ربّ ظني بك أن تغفر لي، وتسكنني الجنة برحمتك!! فيقول الله جلّ جلاله: يا ملائكتي وعزتي وجلالي، وآلائي وبلائي، وارتفاعي في مكاني، ما ظن بي ساعة من خير قط!!

ولو ظن بي ساعة من خير ما روعته في النار، أجيزوا كذبه وأدخلوه الجنة».

وإذا صحت هذه الرواية فإنها تدل دلالة إيحائية على مدى رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء وتتحدث عن آلائه التي يطمح بها كل أحد، وتجاهر بأفضاله المتواترة التي تشمل حتى أهل المعاصي.

وفي قبال ذلك، لا يجد الإنسان حسنات قد عملها، في صحيفة الأعمال، ويجد ذلك في ميزان غيره، وهذا من أفجع صنوف الندامة، آنذاك، فقد روي عن النبي أنه قال:

«يؤتى بأحدكم يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيدفع إليه كتابه فلا يرى فيه حسنات، فيقول إلهي ليس هذا كتابي!!

فأنا لا أرى فيه طاعتي فيقول له الرب: «إن ربك لا يضل ولا ينسى ذهب عملك باغتياب الناس».

ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة لم يعملها،

فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإني ما عملت هذه الطاعات، فيقول له (إن فلاناً اغتابك، فرفعت حسناته إليك).

٥ - وفي عرصات يوم القيامة تبدو غرائب الصور، وتلوح مغيبات الأحداث، فالكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والنداء قائم بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، كما في قوله تعالى ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١].

والروايات تنصُّ أن المؤذن بهذا النداء هو أمير المؤمنين عليه السلام.

ويأتي نداء أهل النار باهتاً ذليلاً صاغراً بعد تلك الجبروت، قال الله تعالى:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢].

وإذ قارنا بين هذا وبين قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾[٣].

---

(١) سورة الأعراف / ٤٤.

(٢) سورة الأعراف / ٥٠.

(٣) سورة الروم / ٥٥.

والقسم إنما يكون على المتأكد من القضايا، واليمين على ذلك باعتبار اعتقاده من المسلمات.. وإذا نظرنا الى هذا وبين ما أحدث الطواغيت في الدنيا علمنا مدى المفارقة، ففرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، وإذا به ذليل مستجد لشربة ماء ولقمة طعامٍ. قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[١].

وهذا الحساب هو ما تحدث عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه قال:

«والذي نفسي بيده لا تزل قدم عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل الله عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن جسده فيمَ أبلاه، وعن ماله مم أكتسبه وفيم أنفقه، وعن حبنا أهل البيت».

والذي يطيب نفس المؤمن ما ورد في الحديث الشريف «ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد». وعوالم الحساب عسيرة شديدة إلاّ أن تتداركه رحمة الله تعالى وشفاعة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين».

ولعل ما رواه الإمام علي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن قال:

---

(١) سورة النور / ٣٩.

«إذا كان يوم القيامة ولينا حساب شيعتنا، فمن كانت مظلمته فيما بينه وبين الله عز وجل حكمنا فيها فأجبنا، ومن كانت مظلمته فيما بينه وبين الناس استوهبنا فوهب لنا، ومن كانت مظلمته فيما بينه وبيننا كنّا أحق من عفا وصفح»

٦ - وقد تضافرت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المرء لا ينفعه بعد وفاته: إلاّ ولد صالح يستغفر له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية، وقد عبر الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله: «خير ما يخلفه الرجل من بعده ثلاثة: ولد بار يستغفر له، وسنة يقتدى به فيها، وصدقة تجري من بعده» وإذا توافرت هذه الأشياء الثلاثة، كانت بها سعادة المرء غامرة، وهو في قبره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

٧ - وورد في حياة البرزخ، وهي الحياة الفاصلة بين الدنيا وبين يوم القيامة: بنص قوله تعالى ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

ويجري فيها عوالم القبر في إيقاظ للمرء، وسؤال من نوع ما، وورد أن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران، ويؤيده ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مرّ على قبر وصاحبه يعذب، فاخذ جريدة فغرسها الى القبر، وقال عسى أن يرفّه عنه ما دامت رطبة».

ولا غرابة في هذا فهنالك نوع من الحياة في القبر، والبرزخ حد فاصل بين الدنيا والآخرة، يودع به المرء في الدنيا، ويستقبل به الآخرة، وهنالك من

---

(١) سورة المؤمنون / ١٠٠.

الآثار ما يدل على ذلك، فقد روى الواقدي:

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر بالقليب أن تغور، ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف، ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

كذبتموني بئس القوم كنتم لنبيكم، وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس.

فقالوا: يا رسول الله أتنادي قوماً قد ماتوا؟.

فقال: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقّ».

وفي رواية أخرى أنه قال: «ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

وفي هذا الضوء نجد أمير المؤمنين عليه السلام وقد أشرف على القبور بظهر الكوفة فقال عليه السلام:

«يا أهل الديار الموحشة والمحال المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق.

أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم».

ثم ألتفت عليه السلام فقال: أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم: «أن

خير الزاد التقوى».

وقد فصلنا القول في حياة البرزخ في كتابنا الموسوم «رحلة الإنسان من عالم الذر حتى حياة البرزخ».

* * *

وعالم الغيب يتحدث عما سيكون بأذن الله تعالى، والله عز وجل قد يطلع أنبياءه عن الغيب الماضي كما أخبر عن خلق آدم، وطوفان نوح، ونار إبراهيم، ومشاهد موسى، ومعراج عيسى، كما تحدث عن الأحداث المستقبلية بلغة قاطعة كدخول المسجد الحرام آمنين والانتصار ببدر، وغلبة الروم وغلبتهم.. الخ.

وقد يطلع النبي من يشاء على تلك الغيوب، فيكون ذلكً علماً من ذي علم، علّمه أولياءه، فاضطمت عليهم صدورهم، وهنا نقتصر بالحديث عن الملاحم والإنباءات المستقبلية لغرض النموذج ليستدل بما ذكرنا على ما لم يذكر، وعهدة هذه المشاهد على من رواها، وما علينا إلا اختيار النقل، علماً بأن بعضها أحداث وقعت على سبيل الكرامة.

١ - ذكر بن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن إسماعيل بن رجا أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يخطب ويذكر الملاحم فقام أعشى باهلة، وهو يومئذ غلام حدث إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين: ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة!!، فقال عليه السلام: إن كنت آثماً فيما قلت فرماك الله بغلام ثقيف ثم سكت. فقالوا: ومن غلام ثقيف يا أمير

المؤمنين؟ قال: غلام يملك بلدتكم هذه، لا يترك حرمة إلا أنتهكها.. يضرب عنق هذا الغلام...

فما مرت الأيام حتى خرج الأعشى مع عبد الرحمان بن الأشعث، فقبض عليه الحجاج، وضرب عنقه صبراً.

٢ - وفي إرشاد الشيخ المفيد: روي عن أبي سورة احد مشايخ الزيدية، أنه كان في الحائر الحسيني ليلة عرفة، ثم خرج الى الكوفة، ورافقه رجل سأل عن حاله، فأعلمه أنه في ضيق، ولا شيء معه وفي يديه، فقال: إذا دخلت الكوفة فأتي أبا طاهر الزراري، فأقرع عليه بابه فأنه سيخرج إليك وفي يديه دم الأضحية فل له: يقال لك أعط هذا الرجل الصرة الدنانير التي عند رجل السرير ثم فارقه ومضى لوجهه، فدخل أبو سورة الكوفة، فقصد أبا طاهر الزراري، فخرج إليه وفي يده دم الأضحية، فبلغه ما قيل له، فقال سمعاً وطاعة، ودخل فأخرج إليه الصرة فسلمها إليه، فأخذها وأنصرف، أقول: يقتضي أن يكون ذلك الرجل هو الحجة عجل الله فرجه.

٣ - روي أن المأمون حبس أبا الصلت الهروي بعد وفاة الإمام الرضا عليه السلام وكان أبو الصلت وأسمه عبد السلام بن سالم الهروي من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام وهو ثقة صحيح الحديث كما قال النجاشي.. وقد ضاق صدره بالحبس، فدعا الله بمحمد وآل محمد فدخل عليه أبو جعفر الإمام محمد الجواد عليه السلام فضرب يده الى القيود ففكها، وأخذ بيده وأخرجه من الدار، والحرسة والغلمة يرونه، ولم يستطيعوا أن يكلموه، فخرج

من باب الدار، فقال له الإمام: إمضِ في ودائع الله، فأنك لن تصل إليه ولا يصل إليك أبداً، فكان ذلك.

وهذا من دلائل الكرامات العليا التي وقعت لمولانا الإمام محمد الجواد عليه السلام وتحققت على يديه، ولا غرابة في ذلك، فالإمام مستجاب الدعوة إذا دعا، وتجري على يديه الكرامات الإلهية، التي ترتفع إلى مستوى الإعجاز، وله أمثال ذلك.

وفي رواية الخرائج والجرائح، أنه لما صار خارج السجن، قال له الإمام محمد الجواد عليه السلام: أي البلاد تريد؟ قلت: منزلي بهرات، قال: أرخ رداءك على وجهك، وأخذ بيدي، فظننت أنه حولني عن يمينه إلى يسرته!! ثم قال لي الإمام محمد الجواد - عليه السلام - أكشف فكشفته فلم أره، فإذا أنا على باب منزلي، فدخلته فلم ألتق مع المأمون، ولا مع أحد أصحابه إلى هذه الغاية!!.

وتلك كرامة أخرى وما أوسع هذا الباب، ولكننا نتحاشاه حذر الرمي بالغلو، ولكننا لا نغالي، بل نقول إنهم عباد مكرمون، علمهم الله من لدنه علماً، ولا يسبقونه بالقول.

٤ - روى الصدوق عن ابن مهران، قال: كان بالكوفة رجل يكنى بأبي جعفر حسن المعاملة، فإذا جاءه احد العلويين يقول لغلامه: هذا ما اخذ عليّ عليه السلام وما زال على هذا حتى افتقر، فبينا هو جالس على باب داره فمر به رجل وقال: ما فعل غريمك علي بن أبي طالب؟ فأغتم لذلك غماً شديداً.

فلما جنّ عليه الليل رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، في المنام والحسن والحسين عليه السلام يمشيان أمامه، فقال لهما النبي: ما فعل أبوكما؟ فأجابه علي من ورائه: ها أنا ذا يا رسول الله فقال: لم لا تدفع إلى هذا الرجل حقه، فقال بلى يا رسول الله قد جئته به، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ادفعه إليه، فأعطاه كيساً من صوف أبيض، وقال له: «هذا حقك فخذه، ولا تمنع من جاءك من ولدي شيئاً، فأنه لا فقر عليك بعد هذا».

٥ - وعن مجموعة للشيخ الثاني بخط الشيخ محمد الجباعي مسنداً إلى الأصبغ بن بنانه، قال: صحبت مولاي أمير المؤمنين عليه السلام عند وروده إلى صفين، وقد وقف على تل يقال له: «تل عرير» ثم وقف إلى أجمة بين التل وبابل وقال: مدينة وأي مدينة؟ فقلت له يا مولاي: أراك تذكر مدينة؟ أكان هنا مدينة وانمحت آثارها؟، فقال: لا ولكن ستكون مدينة يقال لها «الحلة السيفية» يمدّها رجل من بني أسد، يظهر بها قوم أخيار، لو أقسم أحدهم على الله لأبر قسمه.

أقول: صدق مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فقد بنى الحلة سيف الدولة بن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي في محرم عام ١٤٩٥هـ.

٦ - روي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال على منبر مسجد الكوفة: «سلوني قبل أن تفقدوني». فقال إليه رجل أسمه «نمير» وهو أبو الحصين الذي خرج لحرب الحسين عليه السلام فقال له يا أمير المؤمنين: كم شعرة في راسي؟. فقال عليه السلام: وما علامة الصدق لو أخبرتك؟ كيف تعد

الشعر؟ ولكن أخبرك أن تحت كل شعرة في راسك شيطاناً يلعنك، وعلامة ذلك أن ولدك سيحمل الراية، ويخرج لقتال ولدي الحسين».

فما مضت الأيام حتى تحقق صدق قول أمير المؤمنين عليه السلام وأخباره وخرج الحصين بن نمير إلى كربلاء، وهو على شرطة ابن زياد، ثم خرج لقتال عبد الله بن الزبير في مكة، ورمى الكعبة بالمنجنيق، ثم قتل - لعنه الله - في ثورة التوابين.

٧ - روى القاضي بن يزيد الهمداني قال:

كنت في جامع الكوفة في ليلة ممطرة فدق الباب، وإذا جماعة معهم جنازة فأدخلوها في الصفة تجاه باب مسلم بن عقيل رضي الله عنه ثم نام أحدهم فرأى قائلاً يقول: أما تبصر حتى ننظر ألنا معه حساب؟ فقال له صاحبه: لنا معه حساب. فينبغي أن نأخذه عاجلاً قبل أن يتعدى الرصافة، فلا يبقى لنا معه طريق، فأتبعه الرجل وحكى لأصحابه، وقال: خذوه عجلاً، فأخذوه ومضوا في الحال للمشهد المقدس فدفن، قال الشاعر:

إذا متُّ فادفني إلى جنب حيدرٍ ... أبي شُبّرٍ أكرم به وشبيرِ

فعار على عار الحمى وهو في ... إذا ضل في البيدا عقال بعير

ولست أخاف النار عند جواره ... ولا أتقي من منكر ونكير

٨ - ومن أنباء آخر الزمان، ما تتضمنه عشرات الروايات، وأغلبها مما نشاهد اليوم، ولقد عرضنا لأغلبها في كتابنا: «الإمام المهدي المنتظر / نصب عينيك كأنك تراه».

ومنها ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «يأتي على الناس زمان يرى ويسمع من في المشرق من في المغرب، وإن العرب تخرج من سلطان الأجانب، وتملك نفسها بنفسها، ولا يبقى صنف من الناس إلا ويحكم الناس..».

٩ - ومن عجائب الآثار ما روي عن هشام بن الحكم؛ قال: كان رجل من ملوك أهل الجبل يأتي الإمام الصادق عليه السلام في حجه كل سنة، فينزل أبو عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم في دار من دوره في المدينة، وطال حجه ونزوله، فأعطى أبا عبد الله عليه السلام عشرة آلاف درهم، يشتري له داراً، وخرج الى الحج، ولما أنصرف، قال للإمام: جعلت فداك، اشتريت لي داراً، قال: نعم، وأتى بصك فيه: بسم الله الرحمن الرحيم «هذا ما أشترى جعفر بن محمد عليه السلام لفلان بن فلان الجبلي، أشترى له داراً في الفردوس، حدّها الأول رسول الله صلى الله عليه وآله، والحد الثاني أمير المؤمنين عليه السلام والحد الثالث الحسن بن علي عليه السلام، والحد الرابع الحسين بن علي عليه السلام».

فلما قرأ الرجل ذلك فقال: قد رضيت جعلني الله فداك!!. فقال أبو عبد الله عليه السلام إني أخذت ذلك المال ففرقته في ولد الحسن والحسين عليهما السلام، وأرجو أن يتقبل ذلك، ويثيبك به الجنة ».

قال: فأنصرف الرجل إلى منزله والصك معه، ثم اعتلّ علة الموت فلما حضرته الوفاة جمع أهله، وحلفهم أن يجعلوا الصك معه، ففعلوا ذلك، فلما

أصبح القوم غدوا إلى قبره فوجدوا الصك على ظهر القبر مكتوباً عليه: «وفى لي جعفر بن محمد عليه السلام بما قال».

١٠ - روي أن أمير المؤمنين عليه السلام إذا أراد الخلوة بنفسه أتى طرف الغري، فبينا هو يشرف على النجف.فإذا برجل قد أقبل راكباً ناقته وأمامه جنازة، فسلم على الإمام، فقال له الإمام: من أين؟ قال: من اليمن، فقال الإمام: وما هذه الجنازة التي معك؟ قال: جنازة أبي جئت بها لأدفنها في هذه الأرض قال: لِمَ لم تدفنه بأرضكم؟ قال: هو أوصاني بذلك، وقال لي: إنه يدفن هناك رجلاً يشفع مثل ربيعة ومضر فقال له: أتعرف ذلك الرجل؟ قال: لا قال: أنا والله ذلك الرجل، أعادها ثلاث مرات، ثم قال له: أدفن فقام ودفنه، ولا يزال قبره وسط مسجد كبير يقابل مرقد أمير المؤمنين في النجف الأشرف، ويعرف باسم (الصفا) في المصادر وهو مشهور «صافي صفا» وهو مطل عل بحر «النجف» المندرس الآن.

١١ - وفي ضوء ما تقدم نجد الأخبار والنصوص متواترة في استحباب الدفن في «وادي السلام» في النجف الأشرف وقد أكد ذلك الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقد قال له رجل: إن أخي ببغداد، وأخاف أن يموت بها، فقال: لا تبالِ حيثما مات، أما أنه لا يبقى مؤمن في شرق الأرض وغربها، إلا حشر الله روحه إلى وادي السلام، فقال الرجل: وأين وادي السلام؟ فقال عليه السلام: ظهر الكوفة، أما أني كأني بهم حلق حلق قعود يتحدثون».



الفصل الثاني

المثل الأخلاقية

١ - السلوك الإنساني في منظور أخلاقي.

٢ - نظرات في العفو والغضب والمغفرة.

٣ - بر الوالدين وصلة الأرحام.

٤ - من مساوئ الصفات.. الغيبة والحسد والعجب

السلوك الإنساني في منظور أخلاقي

دأب الإسلام أن يرتفع بالأمة إلى مستوى الحضارة، الإنسانية المثلى، وأراد لأفراد ها سلوكاً رفيعاً،وخلقاً عالياً، تتسنم فيه مراتب الرقي والعزة والكرامة، وقد حشد عدة مواصفات أخلاقية تقوّم السلوك، وتضئ المسيرة في ظلال كثيفة من الآداب العامة التي تفوق حد التصور العقلي من أجل إعداد والأجيال إعداديا كريماً متألقاً، وكانت مفردات هذه التعليمات الفذة من الأتساع بمكان، وأغصانها المتفرعة من الشمولية الاستيعابية في ذروة ما تحققه أعرق الثقافات العالمية، وتنشره أبرز الدساتير الأممية.

وكان من إفادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأكرمين عليهم السلام ما يخامر القلب رقةً وأناقة، ويستقطب العقل تدبراً وتفكيراً، وينير الطريق بين يدي السائرين في ركب قيادي نحو حياة أفضل، والإسلام

بهذا يريد للإنسان أن يكون ذا مزايا تبتعد به عن اللامبالاة، وتقترب في مظهر اعتيادي متميز، وواقع داخلي رفيق، وبدأ بظواهر الكمال والجمال، ليتمتع بما وهب الله من الشمائل والمخائل فيما روي «إن الله جميل يحب الجمال» ومعنى هذا التعايش في ظل وارف من نعم الله عز وجل في منأى من التماوت والتباؤس، فلا يثير الاشمئزاز،ولا يدعو إلى التساؤل، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام يوماً لأصحابه «إنّ لله يحب الجمال والتجمل، ويبغض البؤس والتباؤس، فأن الله إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يرى أثرها عليه». فقالوا: كيف ذالك؟ فقال الأمام هادفاً ومترسلاً ببساطة مذهلة:

«ينظّف ثوبه، ويطيّب ريحه، ويجصص داره، ويكنس أفنيته والعناية بهذه المواصفات، والاستماع لهذه التوجيهات، والتقيّد الفعلي بتنفيذها تحقق مظهراً جميلاً، والمظهر الجميل في هذا الملحظ قد يكشف عن الواقع الجميل، وإذا اجتمعا فذلك بفضل الله تعالى، فقد يجمع المرء بهما الدين والدنيا، وقد قيل: «ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا».

وإذا ألقينا الضوء الأولي على هذا السياق، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان حريصاً ً أن يتمتع أتباعه بحسن الخلق، قال الشاعر:

وإنمـا الأمـم الأخـلاق مـا بقيـت ... فـإن هـم ذهبـت أخلاقهـم ذهبـوا

وهو صلوات الله عليه وعلى آله يقول (إنّما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق».

وفي مقارنة سليمة للرسول الأعظم، وهو أعظم الناس أخلاقاً بشهادة

القرآن «وإنّك لعلى خلقٍ عظيم». تلك المقارنة تأتي للتفريق الدقيق بين حسن الخلق وسوء الخلق مناصفة في معادلة تكشف عن هذا أو ذاك، فقد روي أنّه قال: «حسن الخلق نصف الدين، وأفضل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً».

وتلك مرتبة عليا في التصنيف يغبط عليها ذوو الأخلاق، بكونهم أفضل الناس إيماناً بينما يقابل ذلك سوء الخلق حتّى أنّ سيء الخلق لا يوفّق إلى التوبة؛ لأنّه إذا تاب من ذنبٍ وقع في ذنب، فهو في دوّامة من الذنوب، وصغار من الإيمان، وانحطاط في النفس، فيقول – صلوات الله عليه –: «أبى الله – عزّ وجل – لصاحب الخلق بالتوبة». فقيل له: وكيف ذلك يا رسول الله؟، فقال:

«إذا تاب من ذنبٍ وقع في ذنب أعظم منه».

وقد تبعه أمير المؤمنين بالفكرة ذاتها فقال مؤكّداً:

«ما من ذنبٍ إلاّ وله توبة، وما من تائبٍ إلاّ وقد تسلّم توبته ما خلا سيء الخلق، لا يكاد يتوب من ذنب إلاّ وقع في غيره أشدّ منه».

وذلك من الدواهي نعوذ بالله من سوء الخلق، ونسأله قبول التوبة ن والاقتداء بالنبيّ وآله – صلوات الله عليهم أجمعين – .

والناس في هذا على دين ملوكها حذو القذّة بالقذّة والمتابعة للقادة جارية في أبعاد شتّى، وهي حقيقة لا مناص منها، فليتق القادة الله – عزّ وجل – ولا يكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، فقد قرّر الإمام محمد الجواد فيما يروى عنه «من أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده، فإن كان الناطق

عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس».

وهذا هو الواقع المشهود في تقابل دعاة الحقّ في توجههم الإيماني والأخلاقي، ودعاة الباطل في توجههم الشيطاني مع الأسف الشديد، ومن أصغى لأحد الفريقين فقد عبده، فالصادع بأمر الله تعالى يكون الإصغاء له، والائتمار بأمره؛ استجابةً لداعي الله في عبادته، والصادع بما نطق الشيطان يكون الإصغاء له تنفيذاً لأرادته، والامتنان بأقواله، مشاكلةً لعبادة الشيطان نستجير بالله من ذلك.

ولكن الزمان هو الزمان في شكلين متناقضين، يصدرُ كلّ منها في وادٍ، والناس أبناء الزمان، ومن المأثور الرائع للإمام علي الهادي - عليه السلام - أنّه قال:

«إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور، فحرامٌ أن تظنَّ بأحدٍ سوءاً حتّى تعلم ذلك منه، وإذا كان زمانٌ: الجور فيه أغلب من العدل، فليس لأحدٍ أن يظنَّ بأحدٍ خيراً حتّى يرى ذلك منه».

ويترشح عن قول الإمام هذا تقييم الناس في أخلاقهم وإيمانهم وعملهم في ضوء عصرهم، فإذا كان الزمان زمان عدلٍ ورحمة واستقامة ومواساة ومساواة فظنَّ السوء بأحد يخالف الذائقة الفطرية لطبيعية الأشياء، وإذا كان الزمان زمان جور وظلم واضطهاد فمن الغفلة ظنّ الخير بأحد، إلاّ أن الإمام استثنى العلم بحقائق الأشياء، فمن عُلِمَ منه الخير فلا يُقاس على عصره، ومن عُلِمَ منه السوء كذلك لا يقاس على عصره، وإن كان الأمرُ مجهولاً فتؤخذ

الأمور على العموم السائد.

فسلام الله على الإمام الشاب المتحضر الذي درس فلسفة الزمان وطبائع الإنسان،وفاه بما نصح به المسلمين، فلا عجب في ذلك فهو من الأئمة الذين قال فيهم الشاعر الكوفي سفيان بن مصعب العبدي:

آل النبي محمدٍ أهل الفضائل والمناقبْ

الناطقون الصادقون السابقون إلى الرغائبْ

فولاؤهم فرض من الرحمن في القرآن واجبْ

وللإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام شذرات ثمينة وإفاضات قيمة في بحر لا تدرك سواحله، وبين يدي ثلاثة أحاديث، فيها ما فيها من أدب النفس وتقويم السلوك، وإضاءة بين يدي الأخلاقيين في قيم عليا:

١ - قال الإمام الرضا عليه السلام: «المؤمن إذا أحسن أستبشر، وإذا أساء أستغفر، والمسلم الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده، وليس منا من لم يأمن جاره بوائقة».

وأنت ترى في هذا الحديث مكارم أخلاق المؤمن في الاستبشار والاستغفار، وصفات المسلم الذي يسلم المسلمون من يده ولسانه، وحديث البراءة ممن لم يأمن جاره جرائره.

٢ - وقال الإمام الرضا عليه السلام:

«من علامات الفقيه: الحلم والعلم والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة.. إن الصمت يكسب المحبة.. إنه دليل على كل خير».

والحمد لله رب العالمين أن توافرت هذه الصفات في فقهائنا وعلمائنا ومراجعنا العظام، فهم يتمتعون بالحلم والعلم، وهم يميلون إلى الصمت إلا أن يسألوا، وبذلك اكتسبوا المحبة التلقائية، وملكوا قلوب الناس ومشاعرهم.

٣ - وقال الإمام الرضا عليه السلام:

«يأتي على الناس زمان تكون فيه العافية على عشرة أجزاء، تسعة في اعتزال الناس، وواحدة في الصمت».

نرجو أن لا يكون هذا الزمان زماننا، على أن البوادر تلوح فيه والشكوى إلى الله تعالى، وبه المستعان في الشدة والرخاء، وعليه المعول في الأمن والبلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وليس لنا بعد هذا إلاّ الاتكال على الله عز وجل والانقطاع إليه وفي ذلك تقويم للسلوك، والوصول إلى قمة الاعتداد المرضي من قبل الله عز وجل فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أنقطع إلى الله عز وجل كفاه الله كل مئونته ويرزقه رزقاً حلالاً طيباً من حيث لا يحتسب. ومن أنقطع إلى الدنيا وكله الله إليها».

والانقطاع إلى الله عز وجل من صفات الصديقين والصالحين والمخبتين وحسب المرء أن ينقطع إلى الله ليكفيه كل مئونته، ويرزقه رزقاً حلالاً طيباً من حيث لا يحتسب».

أما الانقطاع إلى الدنيا فهو الخروج عن نظام الكون في التوجه نحو الأمثل، وإن عقوبة ذلك أن يكله الله إليها.

والمدار في الأمرين أخلاقي صرف، يعبر عن مدى ثقة العبد بربه، أو عدم الثقة، وعلى المرء المتوازن أن يحسن الظن بالله سبحانه،فقد روى أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إن الله كريم يحب الخيرات، يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن الظن به ثم يخلف ظنه ورجاءه».

وهذا الملحظ مطرّد في مسيره الحياة الإنسانية المتجهة إلى الله في الجزئيات الخاصة، والكليات العامة، ونفحات الله القدسية، متواترة على عباده الأكرمين، فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى نبيه داوود عليه السلام.

«ما أعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي - عرفت ذلك من نيته - ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن، وما أعتصم عبد من عبيدي بأحد خلقي - عرفت ذلك من نيته - إلا قطعت أسباب السموات والأرض من يديه، وأسخت الأرض من تحته، ولم أبال بأيّ وادٍ هلك».

والحلم من شيم الأخلاق العظيمة، وخمائل الآداب الراسخة وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال:

«أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل».

وهذه جبلة إنسانية أن ينتصر الناس للحليم على الجاهل، إعجاباً بحلمه وتقديراً له على خلقه والعكس بالعكس بل هو أعظم فيما تحدث به الإمام زين العابدين عليه السلام عن عاهة الغضب وهي تقابل الحلم فروي أنه قال:

«أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب».

والفرق في الآثار المترتبة على هاتين الصفتين المتقابلتين؛ أن الحليم ينال رضا الناس وأن الغضبان يقترب من غضب الله تعالى، وفي مصاف ذلك في الخلق الإنساني العفو عند المقدرة فروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إذا قدرت على عدوك فأجعل العفة شكراً للمقدرة عليه».

وفي هذا السياق في العفو قول أمير المؤمنين:

«أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم فما يعثر منهم أحد إلا ويده بيد الله يرفعه». إذ لابد لكل جواد من كبوة، ولكل سيف من نبوة، ولكل إنسان من هفوة، فإذا عثر ذو المروءة فالمفروض إقالة عثرته فأن أعمال فإن آثار مروءته تقيه عند الله العثرة.

وصنائع المعروف مشكورة عند الله تعالى فتكافئ بالمعروف، وإلاّ ففي الدعاء، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له».

والمعروف قد يحتاج إليه فاعله أكثر من حاجة من أسدى إليه، وقد روي عن الإمام محمد الجواد عليه السلام أنه قال:

«أهل المعروف إلى اصطناعه أحوج من أهل الحاجة إليه، لأن لهم أجره وفخره وذكره، فمهما أصطنع الرجل من معروف، فإنما يبدأ به بنفسه، فلا يطلبنّ شكر ما صنع إلى نفسه من غيره».

وهذا القول المعرق في الفصاحة والبلاغة ذو دلائل مهمة في التوجه

الإنساني نحو المساعدة في الخيرات، والتفرغ للمبرات، وإسداء المعروف فإن أهله بما يكتسبون من الثواب الجزيل أحوج إليه في النتيجة من ذوي الحاجة والعوز والفاقة وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك، فليس من اصطناع المعروف ما يدعو إلى طلب الشكر من الآخرين فمعروفه له ذكره وشرفه، وعليه عائديته وكرامته، فلا ضرورة أن يطلب صاحب المعروف شكر ما صنعه لنفسه، وقد قال الشاعر القديم:

مَنْ يصنعِ الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

ومن المعروف على وجه احترام الناس بما هم أهل له، فقد حكي أن رجلاً دخل المسجد ورسول الله جالس فتزحزح له، فقال الرجل: في المكان سعة يا رسول الله!!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن حق المسلم على المسلم إذا رآه يريد الجلوس أن يتزحزح له ».

وقد اعتاد أهل البيت عليهم السلام على تكريم المؤمن، واحترام الآخرين عملياً فقد روي عن البزنطي: أحمد بن محمد بن أبي النصر الكوفي، وكان أثيراً عند الأئمة عليهم السلام، وقد أجمع الأصحاب على تصحيح ما يصح عنه، قال:

«بعث إلي الرضا عليه السلام.... فمكثت عامة الليل معه ثم أتيت بعشاء، ثم قال: أفرشوا له.. قال ما تريد أن تنام؟ قلت: بلى جعلت فداك فطرح عليّ الملحفة والرداء، ثم قال: بيتك الله في عافية، وكنا على سطح

الدار، فلما نزل من عندي، قلت في نفسي: قد نلت من هذا الرجل كرامة ما نالها أحد قط، فإذا هاتف يهتف بي يا أحمد، ولم أعرف الصوت حتى جاءني مولى له، فقال: أجب مولاي، فنزلت فإذا هو مقبل إلي، فقال: كفك، فناولته كفي، فعصرها ثم قال: إن أمير المؤمنين أتى صعصعة بن صوحان عائداً فلما أراد أن يقوم من عنده، قال: يا صعصعة بن صوحان، لا تفتخر بعيادتي إياك، وانظر لنفسك، فكأن الأمر قد وصل إليك، ولا يلهينك الأمل، أستودعك الله وأقرأ عليك السلام كثيراً».

وما قدمه الإمامان من طيب العشرة وإسداء العاطفة، واستمرارية المودة، وقد ورد عن الأمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«مودة يوم صلة، ومودة شهر قرابة، ومودة سنة رحم من قطعها قطعهُ الله».

وقد ورد التأكيد على هذا الملحظ مشدداً، حق أمرنا بصلة من يقطع، وعطاء من يحرم، والعفو عمن يظلم، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعفُ عمن ظلمك».

وفي تنظيم حياة الإنسان في ظل القصد والاعتدال نجد الإمام الحسن العسكري عليه السلام يتابعها بالتوجيه والإعداد، وذلك في عدة حكم مترادفة السياق، ويبدؤها بالجود فلا يتجاوز حده، ولا يتعدى المألوف، لئلا ينقلب الجود إلى تبذير وسرف، ويعود صاحبه ملوماً مذموماً فيما فعل﴿ وَلَا

نَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[١].

وإنما الجود اعتدالي النزعة فيما أوصى به الإمام العسكري بالقول: «إن للجود مقداراً فإذا زاد عليه فهو سرف».

ويثني الإمام العسكري بالحزم والأعداد للطوارئ، والحزم محمود وهو دليل اليقظة، ولكنه إن بولغ فيه عاد جبناً ومسكتة لا يحمد عليها صاحبها بل هو إلى الذم اقرب، قال الإمام الحسن العسكري عليه السلام:

«وإن للحزم مقداراً فإذا زاد عليه فهو جبن».

وتدبير المعاش والاعتدال في الاقتصاد مما يمدح عليه المرء لموازنته بين الأشياء، حتى ورد عنهم عليهم السلام: «ما عال من أقتصد».

وللاقتصاد ما ينظمه وفق متطلبات الإنسان وواجباته فإذا تجاوز الحد عاد بخلاً منهياً عنه في القرآن وفي السنة وعند الناس، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا.. ﴾[٢].

قال الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «وإن للاقتصاد مقداراً فإذا زاد عليه فهو بخل».

ويختتم الإمام العسكري هذه الشذرات المضيئة بالقول:

«وإن للشجاعة مقداراً فإذا زاد عليه فهو تهوّر».

---

(١) سورة الإسراء: ٢٩.

(٢) سورة الإسراء: ٢٩.

والشجاعة في الحرب فن ذو أساليب متعددة، يجيدها الشجاع المتمرس، والبطل المجرب في كرّ وفرّ، ومجابهة والتفات ومواجهة وانسحاب، والبطل من يصوّب ويصعد في ميزان الحرب نظرة، ويغتنم فجواها وثغراها، فإذا أقدم دون تخطيط دقيق كان عمله تهوراً.

وما زلنا في عالم التدبير في شؤون الحياة، فإن الإمام الصادق عليه السلام قد فتق أقوالاً في هذا الشأن جارية مجرى الأمثال، وسائرة مسير الشمس في تنظيم حياة الاقتصاد وتعزيز ملاحظ التدبير في أربع حكم لا تقدّر بثمن:

١ ـ ضمنت لمن أقتصد أن لا يفتقر.

٢ ـ القصد يورث الغنى

٣ ـ ما عال من أقتصد.

٤ ـ التدبير نصف المعيشة.

ولكل من هذه الحكم النوادر أبعاد خاصة بها وإن كانت متقاربة المضامين، ولكنها متعددة الدلالات.

ففي ضوء الاقتصاد الحديث: أن الذي ينظم شؤونه الاقتصادية ضمن خطط مدروسة، وفي ظلّ الأناة والتدبير يكون حفظ النظام الاقتصادي العام. ولا يمكن أن يفتقر من رعى ذلك، وهذا ما نطقت به الحكمة الأولى.

والتدبير المذموم قد يورث الفقر والعوز والاحتياج؛ لأنه غير متساوق مع طبيعة الموازين في الإنفاق، أما إخضاع ذلك لموازين القصد، فإنه يورث الغنى وهذا ما نطقت به الحكمة الثانية.

ولا يلام من اقتصد ولا يجابه، ولا يشتكي العيلة وهو ما تقوله الحكمة الثالثة، وقد يراد - والله العالم - أن الإنسان إذا اقتصد بمقادير معينة، فلا يهمه كثرة العيال فما عال من أقتصد.

ويأتي التدبير في الحكمة الرابعة ليكون نصف العيش، وذلك بوضع الأمور في مواضعها ونصابها، واستيعاب منافعها ومحاسنها ثم يوازن ذلك بنظره وعقله.

وفلسفة هذا كله أن الله سبحانه وتعالى وهب ومنح وأعطى وأغنى، ومن مظاهر شكر النعم إرادتها بجدارة ونظام، وهذا ما يتطلب معرفتها، فإذا عرفها فقد شكرها، وإذا جهلها فقد أنكرها وجحدها، وفي ظل هذا الفهم نجد الإمام الحسن العسكري عليه السلام متابعاً لذلك فيروى أنه قال:

«لا يعرف النعمة إلا الشاكر ولا يشكر النعمة إلا العارف» وهذه منتهى البلاغة لأنه الشاكر لا تبطره النعمة، ولا تزلزله عن الشكر المستديم، لان عرف النعمة فشكرها.

ويأتي العامل البلاغي عند الإمام عليه السلام ليؤكد أنَّ النعمة لا يشكرها إلا العارف، لأنه خبير بآلائها وأفضالها، متبحر في فهمها وإدراكها، مقوّم لمنزلتها وقيمتها، فهو ذاكر شاكر.

وفي هذا السياق نجد أمير المؤمنين عليه السلام مبرمجاً روحياً لشغل الإنسان اقتصادياً وهو يكابد التفكير بذلك في معاناة وجهد، وقد روي عن أمير المؤمنين أنه قال:

«لا يكن أكثر شغلك بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله، فإن الله لا يضيع أولياءه وإن يكونوا أعداء الله، فما همك وشغلك بأعداء الله».

وهدف أمير المؤمنين في هذا هو التخطيط للحياة الهانئة في ظل هدوء النفس وإراحة التفكير فالحياة الكريمة هي التي يكتب بها سعادة الإنسان لا شقاءه، وفرحه لا ترحه، وهمّ العيال من العناء الملازم لاسيما مع الحاجة وضيق اليد، وقد يحاول المرء أن ينفذ الأطاريح التي ينبغي تنفيذها للأهل والولد...

فيكون ذلك شغله الشاغل وأكثر شغله، وهنا يضع أمير المؤمنين اللبنة الأولى في إيقاظ الذات، ويضع الإنسان بين يدي معادلة بعيدة الأثر في إصلاح الفاسد من أمور الدين والدنيا، وذلك بنهيه أن يكون أكثر شغله بالأهل والولد، إذ لا يخلو أن يكون هؤلاء إمّا أولياء الله تعالى وإما أعداء له، فإن كانوا أولياء فالله لا يضيع أولياءه طرفة عين أبداً، وإن كانوا أعداء الله فينبغي للمرء أن لا يكون همه وشغله بأعداء الله.

هذه الأطروحة الفريدة تجعل الإنسان في حيز من الأمان والاستقرار النفسي في الحياة الدنيا، وهي مظنة للاتكال على الله وتفويض الأمر إليه.

وفي مجال السلوك الإنساني المتوازن والقيم الأخلاقية العليا نجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفيض بجوامع كلمه فيما يروى أنه قال:

«سبعة في ظل عرش الله عز وجل يوم لا ظلّ إلا ظله: إمام عادل،

وشاب نشأ في عبادة الله – عز وجل – ورجل تصدق بيمينه وأخفاه عن شماله، ورجل ذكر الله عز وجل ففاضت عيناه من خشية الله ورجل لقي أخاه المؤمن فقال: إني لأحبك في الله، ورجل خرج من المسجد وفي نيته أن يرجع إليه، ورجل دعته امرأة ذات جمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله رب العالمين».

وهذه الإفاضة تدل على ذاتها بذاتها، وتكشف عن المراد منها بدلائلها، فيها وضوح ودقة وتحديد.

وعن رسول الله أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس، وأمرت بمداراة الناس كما أمرت بأداء الفرائض».

وهذا توجيه منه إلى المؤمنين بأن يكونوا بالمستوى الأخلاقي الذي يقربهم إلى الناس بالتودد إليهم ومداراتهم، وأبان لنا أنه أمرنا بأداء الفرائض وذلك منتهى التشبيه البليغ.

ومن ذلك ما ورد في الخبر: «إذا التقى المسلمان فتصافحا، وتبسم أحدهما إلى صاحبه قسمت بينهما مئة رحمة».

وهذا نوع من التأديب أن يطفح البشر بوجه المرء وهو يصافح أخاه المسلم، ويبدي له من البشاشة ما يسره.

ومما أفاضه الإمام الصادق عليه السلام على أصحابه أن قال أحدهم: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام ما بين مكة والمدينة فمررنا على رجل في أصل شجرة وقد ألقى بنفسه، فقال الإمام: «ملْ بنا إلى هذا الرجل فإني

أخاف أن يكون قد أصابه العطش». فملنا إليه فإذا هو رجل من النصارى، طويل الشعر، فسأله الإمام عليه السلام أعطشان أنت؟ فقال: نعم، فقال: إنزل فأسقيه، فنزلت فسقيته ثم ركبت وسرنا، فقلت له: هذا نصراني!! أفتتصدق على نصراني؟ قال: نعم.

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام نصاً أو معنى:

«افعل الخير مع أهله ومع غير أهله فإن لم يكن من أهله فأنت من أهله».

وروي أن سيدنا ومولانا الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام مرّ برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلّم عليه ونزل عنده، وحادثه طويلاً ثم عرض القيام بحاجته إن كان له حاجة!! فقيل له: يا أبن رسول الله أتنزل إلى هذا وتسأله عن حاجته؟ فقال عليه السلام: «عبد من عبيد الله وأخ في كتاب الله، وجار في بلاد الله، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم، وأفضل الأديان الإسلام، ولعل الدهر يرد من حاجتنا إليه، يرانا بعد الزهو عليه متواضعين بين يديه».

وهذا هو التواضع الجم الذي ندب إليه الإسلام وقد فعله الإمام الكاظم بنفسه ليكون بذلك قدوة لغيره».

وهنالك آداب في عيادة المريض، وعادات في استقبال الضيف، ومراسم لتعزية المصاب وقد ندبت إليها جميعاً تعليمات أهل البيت. فقد روي أن الإمام الصادق عليه السلام لقي ببعض أصحابه في الطريق فقال لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد فلاناً نعوده!!، فقال عليه السلام: هل معكم فاكهة أو

طيب تأخذونه له؟» قالوا: ليس معنا شيء، فقال عليه السلام:

«أما تعلمون أن المريض يستريح إلى كل ما أدخل عليه؟».

وفي مجال استقبال الضيوف والترحيب بالوافدين يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الضيف يجئ معه رزقه، وإذا رحل رحل بذنوب أهل البيت» فيالها من نعمة فارهة، أن تكرم ضيفك، والله يجئ برزقه، ويرحل بذنوب أهل البيت.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إذا دخل الضيوف عليك دخلوا برزق من الله كثير، وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة لك».

قال الشيخ الأعسم في أرجوزته:

والضيف يأتي معه برزقه   فلا يقصر أحد في حقه

وقال الإمام الرضا عليه السلام:

«السخي يأكل من طعام الناس ليأكلوا من طعامه، والبخيل لا يأكل من طعام الناس لئلا يأكلوا من طعامه». نستجير بالله من ذميم الصفات.

وفي مقام التعزية بالمصيبة يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة». فيالها من بشرى.

وهذه الآداب العامة تدعو إلى الألفة والتوادد والتحابب بين المسلمين، والتقارب بين الأخوان.

وفي هذا السياق فإن احترام الكبير والعطف على الصغير من أبرز مقومات الآداب في الإسلام فقد جاء شيخ إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حاجة فأبطئوا عن الشيخ أن يوسعوا له، فقال: ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا».

ومما نبّه إليه التراث الإسلامي عند أهل البيت أن يوضع ما للإنسان في محله من إغاثة الملهوف، واكتساب المكارم، وإبقاء الثواب العظيم، فقد ورد في الحديث الشريف:

«خير المال ما أكتسب الإنسان به ثناءً وشكراً وأوجب له ثواباً وأجراً».

وإلا فالمال كارثة على صاحبه، إن لم يعطِ حقه في إخراج الحق الشرعي زكاة وخمساً ويقضي به حقوق الإنسان، إذ ورد في الخبر: أول ما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة عن ماله مما أكتسبه وفيم أنفقه».

وللمال طرقه المشروعة في الاكتساب من حله، وطرقه المشروعة في إنفاقه على الأهل، والولد والرحم والمبرات. وعلى المسلم أن يكون هيناً لينا في هذا المجال.

فقد كان محمد بن أبي عمير - وهو يعد من أصحاب الإمام موسى الكاظم عليه السلام - رجلاً بزازاً وجرى ما جرى له من السجن والاضطهاد وكان له على جار له عشرة آلاف درهم، وحملها الجار إليه، وقال

لابن أبي عمير: هذا مالك الذي لك علي؟ قال: ابن أبي عمير: من أين لك هذا المال؟ ورثته؟، قال: لا، ولكني بعت داري لأقضي ديني، قال ابن أبي عمير: حدثني ذريح المحاربي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام السلام: لا يخرج الرجل عن مسقط رأسه بالدين، أرفعها فلا حاجة لي فيها، والله إني محتاج في وقتي هذا إلى درهم، وما يدخل ملكي منها درهم».

فأنظر إلى هذه النظرة الفاحصة في الإيثار والمواساة.

وكان محمد بن مسلم الطحان رجلاً موسراً ثرياً، وهو من أهل الكوفة، ودخل على الإمام محمد الباقر عليه السلام فقال بشر المخبتين!! وقال له الإمام: تواضع فأخذ قوصرة تمر وجعلها على باب المسجد، وجعل يبيع التمر!! فجاء قومه فقالوا له: فضحتنا، فقال: أمرني مولاي بشيءٍ فلا أبرح حتى أبيع القوصرة!! فقالوا: أما إذا أبيت إلا هذا، فأقعد في الطحانين، ثم سلموا إليه رحى، فقعد على بابه يطحن».

فأنظر إلى هذا التواضع من جهة، وإلى امتثاله أمر الإمام من جهة أخرى، ودقق النظر في مخالفة النفس، وقهر الشهرة.

وروى الشيخ الطوسي قدس سره عن (سالمة) مولاه أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام قالت:

كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام حيث حضرته الوفاة، وأغمي عليه، فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي بن علي بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً (ذهبيا) وأعطوا فلاناً كذا، وفلاناً كذا،

فقلت: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟.

قال: تريدين أن لا أكون من الذين قال الله عز وجل:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾[1].

نعم يا سالمة؛ إن الله خلق الجنة فطيبها وطيب ريحها، وإن ريحها يوجد من مسيرة ألفي عام، ولا يجد ريحها عاقُ ولا قاطع رحم.

وهكذا يكون المال سبيلاً إلى صلة الأرحام، ودرء العقوق وإشاعة المحبة والسلام.

وكل هذه النماذج من المعروف، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«المعروف قرض، والأيام دول، ومن توانى عن حقه ضاع، ومن قاهر الحق قهر».

وهذه تعليمات لنا في تقويم الأوّد وتوازن السلوك. وقد ندب الإسلام إلى التجارة، وكسب المال الحلال، حتى روي: أن التاجر حبيب الله، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة».

وينبغي أن يكون الاتجار وطلب الرزق خالياً من الشبهات وطريقاً موصلاً إلى رحمة الله تعالى، ولا يتطلبه بإعانة الظالمين والحكام المارقين من

(١) سورة الرعد: ٢١.

الإسلام ولا يكون عوناً للطغاة على استمرارية حكمهم الزائل.

فعن صفوان الجمال قال: دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام يعني الإمام موسى بن جعفر - فقال لي:

«يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا واحداً!! قلت: جعلت فداك أي شيء؟ قال:

إكراؤك جمالك من هذا الرجل - يعني الرشيد - قلت: والله ما أكربته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للهو ولكن أكربته لطريق مكة ولا أتولاه بنفسي ولكن أبعث معه غلماني!! فقال لي: «يا صفوان يقع كراؤك عليهم؟». قلت: نعم جعلت فداك فقال لي: «أتحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟، قلت: نعم، قال: «فمن أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فهو وارد النار».

قال صفوان: فبعث جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك هارون، فدعاني، وقال: لم بعت جمالك؟، قلت: أنا شيخ كبير، والغلمان لا يفون بالأعمال، فقال: هيهات هيهات!! إني لأعلم من أشار عليك، أشار عليك موسى بن جعفر!! قلت: ما لي ولموسى بن جعفر، فقال: دع عنك هذا، فو الله لولا حسن الصحبة لقتلتك».

وقد يكون المال ملهاة ومدعاة لارتكاب المآثم ونسيان الذنوب ولكن ذكر الله أكبر من ذلك فعلى الإنسان أن يرفع ذكر الله مناراً وحمده شعاراً على كل حال.

فقد روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«أوحى الله إلى موسى، يا موسى لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كل حال فإن كثرة المال تنسي الذنوب، وإن ترك ذكري يقسي القلوب».

ومما طبع عليه الشرع الشريف عدم التشدد في كل شيء، وإنما يمس الأمر مساً رفيقاً، ويعالج كل شيء علاجاً رقيقاً فتؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

وقد ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، فأقبلوا رخص الله ولا تكونوا كنبي إسرائيل حين شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم».

والتشدد على الأنفس في غير موضعه مذموم، وهو في موضعه محمود، فقد أخذ الله على خلفاء الله في أرضه أن يكونوا قدوة، ويشددوا على أنفسهم، وبذلك يصبحون نموذجاً للزهد وللعدل وللأمانة، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من رقعها (راقعها)، ولقد قال قائل: ألا تنبذها؟ فقلت:

«أغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى».

ولقد روي عن أبن عباس انه: شاهد أمير المؤمنين وهو في رحبة

الكوفة، وعليه قطيفة، وهو يرتعد من البرد!! فقلت: يا أمير المؤمنين بما مؤداه: (لو غيرتها أو استبدلتها) فقال: والله لا أرزؤكم من مالكم شيئاً، إنما هي قطيفتي التي خرجت بها من المدينة». وقد رويت هذا الخبر بالنص أو بالمعنى.

وإذا أصابت المرء ضائقة مالية فلا يستدين إلا اضطراراً لسد الحاجة فقد جاء النهي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه: فروي أنه قال: «إياكم والدين فإنه هم بالليل وذل بالنهار». وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وروي عن الإمام جعفر الصادق صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«خففوا الدين فإن في خفة الدين زيادة العمر».

ومن آداب السلوك الإنساني والقيم العليا ما نبه عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المعاملة والحديث والوعد، فروي أنه قال:

«من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فقد كملت مروءته، وطهرت عدالته، ووجبت أخوته».

وفي لفتة بارعة للإمام جعفر الصادق عليه السلام وقد سئل عن المؤمن العادل فقال:

«إذا غض طرفه عن المحارم، ولسانه عن المآثم، وكفه عن المظالم».

وفي هذه الفقرات جماع أسس العدالة التي ينبغي أن تتوافر في المؤمن في

طرفه، في لسانه، ويده.

فغض الطرف عن المحارم سيماء الصالحين، وكف اللسان عن الغيبة والنميمة والبهتان وقول الزور شعار المتقين، وصد الكف عن الظلم صغيره وكبيره من صفات العادلين.

والوثاقة في المؤمن العادل أساس الأخذ بما يفعل ويقرر ويقول، جعلنا الله كذلك.

لهذا وذاك فقد أمرنا على لسان الإمام الصادق أيضا بالتثبت في كل قضية، وردّ الأمر إلى أهله فهم أرباب السنن وأساطين الشريعة، وأئمة الحق وهو يدور معهم حيثما داروا، وفيه جلاء الواقع دون شبهة، وإظهار الهدى، والحمل على القصد، فقد قال عليه السلام، وقوله الفصل فيما يروي عنه:

«لا يسعكم فيما ينزل بكم مما لا تعلمون، إلاّ الكف عنه، والتثبت والرّد إلى أئمة الهدى حتى يحملوكم فيه على القصد ويجلوا عنكم فيه العمى، ويعرفوكم فيه الحق».

وهذا مما لا يختلف فيه اثنان فهم أهل النهى وأرباب الحمية، وقادة الهدى، والعروة الوثقى.

ومن مقومات النفس الإسلامية دربتها على ما يكون درءاً للإسلام عند الخطر، وصوناً للعقيدة عند الضياع وحفظاً للتكليف الشرعي جهاداً ودفعاً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وفي هذا الضوء شرع الله الجهاد وجعله فرضاً

وحبب إليه انتداباً وأثاب عليه جزاءاً، وحسبنا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[١].

والجهاد في سبيل الإسلام دفاعي لا هجومي وإصلاحي لا عدواني، وتوجيهي لا انتقامي، وكل حروب الإسلام هكذا...

ويضاف إلى ذلك نقض العهود وخفر الذمم، وغدر المواثيق كما في قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليهود قريظة والنظير، جزاءاً وفاقاً بما غدروا وقد كانت جميع حروب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفق هذا المجال في أبرز المشاهد: بدر، أحد، الأحزاب، حنين، خيبر، تبوك... ألخ.

وخاض أمير المؤمنين عليه السلام معاركه في الجمل وصفين، والنهروان، في هذا الضوء حفاظاً على الشريعة من الانهيار، وبأخبار من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سيقاتل: الناكثين والقاسطين والمارقين، وكان ذلك.

وضرب سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام أروع الأمثلة في التضحية والجهاد في سبيل الله وطلب الإصلاح في أمة جده محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكان أنشودة الأجيال وخلود الدهر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في الجهاد فيما يروي عنه:

«إن الجنة تحت ظلال السيوف»

وكان أهل بيته وأصحابه المثال الأرقى في الجهاد، فقد أبلى أمير المؤمنين

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٩.

عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وعبيدة بن الحارث في بدر بلاء حسناً كان حديث التاريخ.

ولقد أبلى أمير المؤمنين عليه السلام وأبو دجانة الأنصاري ومصعب بن عمير وسواهم أرقى صنوف التضحيات في أحد.

وكان علي وحده بطل الفتح في كل من الأحزاب، وخيبر، وحنين، وهو أبو الحسن، ولقد قيل له، وهو على بغلة في بعض الحروب، لو اتخذت الخيل يا أمير المؤمنين!! فقال: لا أفرّ ممن كر، ولا أكرّ على من فر، فالبغلة تكفيني.

وهو بطل الأبطال الذي لم يرهب الحروب، ولم يهب الموت، وينسب إليه - دليلاً على صلابته وشجاعته - أنه قال:

«والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون علي من موتة على فراش».

وقيل له عليه السلام: إذا جالت الخيل فأين نطلبك؟

قال: «حيث تركتموني».

وهي تعبير مجازي بأنه لا يفر ولا يغادر بل يصمد ويثبت وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال لمعاوية في صفين:

«قد دعوت الناس إلى الحرب، فدع الناس جانباً وأخرج لي ليعلم أينا المران على قلبه والمغطى على بصره؟، وأنا أبو الحسن قاتل جدك، وخالك،

وأخيك شدخاً يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقي عدوي».

فنكص معاوية عند ذلك، وأبى مبارزته، لعلمه بأنه مقتول.

وكان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام من ألمع الأبطال في عهد الشيخين، وفي خلافة أمير المؤمنين، فروي مشاركتهما في الفتوح والبعوث، وكان أمير المؤمنين عليه السلام ينفس عليهما في الحرب، ويقذف بابنه محمد بن الحنفية في الحروب، ولا يسمح للحسن والحسين بذلك، وكان يقول عن محمد هو ولدي، وعن الحسن والحسين: هما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقيل لمحمد بن الحنفية كيف يسمح بك أبوك في الحروب ويبخل بهما؟.

فقال رضي الله عنه: «أنا يمينه وهما عيناه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه».

وهذا باب متسع ألمعنا إليه إلماعاً لأننا قد بحثنا أغلب تفصيلاته الهادفة في كتبنا: «النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحي السماء ورسالة الإسلام» و«الإمام علي سيرته وقيادته في ضوء المنهج التحليلي» و«الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري» وسواها.

والإشارة هنا على سبيل المثال لا أكثر ولا أقل.

ولقد كان للمجاهدين لفتات في الحروب، تؤكد الجانب الإيماني فقد روي أن سعد بن الربيع الأنصاري قد قتل يوم أحد، فأدركه رجل وبه رمق، فقال: «أبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عني السلام، وقل له: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته!!.

وأبلغ قومي السلام وقل لهم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أذىً وفيكم عين تطرف».

ثم مات رضوان الله عليه وقيل إنه سعيد بن الربيع.

وما جاء في فضل الجهاد وأحاديثه يكشف عن منزلة المجاهدين عند الله، فبدمائهم شيد الإسلام، ورسخت كلمة الله في الأرض، ومع هذا كله، بل وفوق هذا كله، وما رأيت من مشارف الشهداء وحياتهم ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾[1]، فقد روي عن أمير المؤمنين أنه قال: «ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعّف لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة».

فما هي منزلة العفاف عند الله، وما هي درجة العفيف في الميزان. ونختم هذه المقالة بحديثين عن النبي في الصلاة على محمد وآله وآخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

قال صلوات الله عليه: «من صلى عليّ مرة لم تبق من ذنوبه ذرة».

قال صلوات الله عليه: «الصلاة علي وعلى أهل بيتي تذهب النفاق».

قال الصادق عليه السلام: «لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلى على محمد وآل محمد».

---

(١) سورة ياسين / ٢٦ - ٢٧.

نظرات في العفو والغضب والمغفرة

طلب العفو والغفران من الله أمران جوهريان في إنابة العبد إلى ربه عز وجل، وإذا عفا الله سبحانه فقد غفر، فيا لها من نعمة كبرى لا يستوعبها إلا الفكر البشري المتنور، فما أكثر الذنوب والزلل، وما أعظم التجاوز والانحدار، وهفوات الإنسان تتجدد مع المغريات وما أكثرها، وتزداد بمرور الزمن، ولا عاصم إلا الباري عز وجل.

وطلب العفو من الله سبحانه سيرة المتشرعة، ونظام الحياة المتقلبة، ففيه يشعر الإنسان بالسعادة الغامرة، فينفس عن كربه وتطمئن نفسه لذلك الفيض الإلهي برحمته التي وسعت كل شيء والغضب على العكس من ذلك كما سنرى. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[1].

يروى أن أعرابياً قال: يا رسول الله، من يحاسب الخلق يوم القيامة؟

---

(١) سورة النساء /٤٣.

قال: الله عز وجل!! قال الأعرابي: نجونا ورب الكعبة، قال وكيف ذلك يا أعرابي؟ قال: لأن الكريم إذا قدر عفا[١].

هو استخراج لطيف، وبشارة للناس فكرم الله ولطفه وعطفه جدير بهذا الاعتقاد لذا وردت الآثار بالتضرع إلى الله طلباً للعفو، فقد ذكر ابن ماجة في سننه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سألته عائشة عن الدعاء ليالي القدر قال: تقولين «اللهم إنك عفوٌ تحب العفو، فأعف عني»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«اللهم أحملني على عفوك ولا تحملني على عدلك»[٣].

ولهذا ورد: اللهم عاملني بعفوك ولا تعاملني بعدلك، أو ما يشبهه هذا.

وفي مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام:

«إلهي أفكر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم علي بليتي»[٤].

وإذا كان أمير المؤمنين بهذا المستوى من الرجاء والخوف فكيف بنا؟ وهو المعصوم من الزلل والإمام المفترض الطاعة. ولكنه أيضاً بإزاء إرشادنا وأمره لنا بالمعروف، ونهيه عن المنكر، يقول فيما روي عنه:

---

(١) تنبيه الخواطر: ١/٩.

(٢) إبن ماجة / السنن٢/ ١٢٦٥.

(٣) نهج البلاغة / الخطية رقم / ٢٢٧.

(٤) الصدوق / الأمالي: ١٣٨.

«من تنزه عن حرمات الله سارع إليه عفو الله»[١].

ويعطي أمير المؤمنين نموذجاً فريداً من أطاريحه في نيل عفو الله تعالى في ضوء الاختبار والامتحان في الشدائد والمكاره دفعاً للتكبر وإسكانةً للتذلل، فيقول: «ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبر من قلوبهم وإسكاناً للتذلل من نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه»[٢].

ونجد أمير المؤمنين عليه السلام تارة أخرى يوحي بمسائلة الله لعباده عن الصغيرة والكبيرة، والظاهر والباطن فمن استحق العذاب فهو الظالم لنفسه، وإن عفا الله فهو أكرم يقول – صلوات الله عليه –: «إنّ الله تعالى يسألكم معشر عباده عن الصغيرة والكبيرة، والظاهرة والباطنة، فإن يعذّب فأنتم أظلم، وإن يعفو فهو أكرم»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أرواحنا فداه، أنه قال: «اللهم إنك بما أنت له أهل من العفو. أولى مني بما أنا له أهل من العقوبة»[٤].

وكما يطلب الإنسان من ربه العفو، فأنه يجب أن يعفو الإنسان عن الآخرين، فيخفف من غلوانه وينهنه عن غضبه. وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك مراراً وتكرارا.

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار /٧٨/ ٩٠.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة / ١٩٢.

(٣) نهج البلاغة / الكتاب / ٢٧.

(٤) الإربلي / كشف الغمة: ٢/ ٤١٨.

فيروى أنه قال: «إن الله عفوٌ يحب العفو»[١]. وقال أيضاً: «من كثر عفوه مدّ في عمره»[٢]، وقال: «عليكم بالعفو فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فتعافوا يعزكم الله»[٣]. والأعظم من ذلك أن يقول صلوات الله عليه:

«تجاوزوا عن عثرات الخاطئين يقيكم بذلك سوء الأقدار»[٤]. ودرء الغضب بالعفو يكون أجره على الله يوم القيامة فروي عن رسول الله أنه قال؛ ويا له من قول نافذ!!

«إذا عنت لكم غضبة فادرؤوها بالعفو، ؛ أنه ينادي منادٍ يوم القيامة من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون، ألم تسمعوا قوله تعالى: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله»[٥]. وقد أعتبر الإمام الصادق عليه السلام العفو أحد مكارم الدنيا فيروى أنه قال: «ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة: تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك»[٦].

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة»[٧].

---

(١) المتقي الهندي / كنز العمال / الحديث: ٧٠٠٥.

(٢) أعلام الدين / ٣١٥.

(٣) الكليني / الكافي: ٢/ ١٠٨.

(٤) تنبيه الخواطر: ٢/ ١٢٠.

(٥) أعلام الدين / ٣٣٧.

(٦) الكليني / الكافي: ٢/١٠٧.

(٧) المصدر نفسه: ٢/١٠٨.

وعن الإمام الرضا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾[1]، قال: عفوٌ من غير عقوبة، ولا تعنيف، ولا عتب»[2].

وأعظم مراتب العفو هو العفو عند المقدرة كما تصرح بذلك المرويات الصادرة من أهل بيت الرحمة صلوات الله عليهم، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من عفا عند القدرة عفا الله عنه يوم العسرة[3].

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «إذا قدرت على عدوك فأجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»[4].

ومن التعابير البليغة للإمام علي عليه السلام «العفو زكاة الظفر»[5].

وعن سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، أنه قال: (إن أعفى الناس من عفا عند قدرته»[6].

والعفو قد يكون مظنة للإصلاح واستصلاح القلوب، والغض عن سوء الأدب، وقد يكون مفسدة للئيم بقدر ما هو إصلاح للكريم؛ فمن الأول ما روي أنه: «شكا رجل إلى رسول الله خَدَمَه فقال له: أعف عنهم تستصلح قلوبهم، فقال: يا رسول الله: إنهم يتفاوتون في سوء الأدب!! فقال: «أعف

---

(١) سورة الحجر / ٨٥.

(٢) أعلام الدين: ٣٠٧.

(٣) المتقي الهندي / كنز العمال / الحديث: ٧٠٠٧.

(٤) نهج البلاغة / الحكمة رقم ١١.

(٥) المصدر نفسه / الحكمة رقم ٢١١.

(٦) الدرة الباهر / ٢٤.

عنهم. ففعل»[١].

وعلى العكس من هذا ما يكون العفو فيه إفساداً فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم»[٢].

ويوصي أمير المؤمنين عليه السلام ويوجه بأن تجازى السيئة بالحسنة، وهذا شأن الأبرار، إلا إذا كان التجاوز عن السيئة يحدث ثلماً في الدين ووهناً في سلطان الإسلام فيقول (جاز بالحسنة وتجاوز عن السيئة ما لم يكن ثلماً في الدين أو وهناً في سلطان الإسلام)[٣].

والغضب يقابل العفو من وجه، وكما كان العفو صفة من صفات الرحمن، فالغضب إيحاء من نزوات الشيطان، وأفضل الناس من أمسك نفسه عند الغضب، ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليه ولا للحمق طريقاً إليه، وقد ورد عن رسول الله أنه قال:

«ألا أخبركم بأشدكم؟ من ملك نفسه عند الغضب»[٤].

وقد تسيطر القوة البهيمية على الإنسان فيغضب، فإذا سيطرت على العقل قوّة عفا وحكم وكظم غيظه، فقد ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «لا قوة كرد الغضب»[٥].

---

(١) النوري / مستدرك الوسائل.

(٢) كنز الفوائد: ٢/ ١٨٢.

(٣) غرر الحكم / ٤٧٨٨.

(٤) نثر الدرر: ١/١٨٣.

(٥) تحف العقول / ٢٨٦.

وربما قد وازن الإمام جعفر الصادق عليه السلام مقارناً بين من يملك غضبه فملك عقله وبين من يملك غضبه فلم يملك عقله، وبدليل المخالفة فإن من غضب لم يملك عقله، وعلى العكس فإن من لم يغضب وجعل للحلم والعفو سبيلاً فقد ملك عقله.

قال عليه السلام: «من لم يملك غضبه لم يملك عقله»[1].

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغضب بما روي عنه أنه قال: «الغضب جمرة من الشيطان»[2].

وقد صور الإمام علي عليه السلام حالة الغضبان في صورتي ندمه وعدم ندمه على غضبه فيروى أنه قال:

«الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم»[3].

وقد أعتبر الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن الغضب مفتاح كل شر فقال: «الغضب مفتاح كل شر»[4]. وتارة أخرى يقول عليه السلام: «الغضب ممحقة لقلب الحكيم»[5].

وقد ندب القرآن الكريم إلى المغفرة عند الغضب، وكظم الغيظ، والعفو

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/٣٠٥.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٣/٣٠٥.

(٣) نهج البلاغة / الحكمة رقم ٢٥٥.

(٤) الكليني / الكافي: ٢/٣٠٣.

(٥) المصدر نفسه: ٢/٣٠٥.

عن الناس في كثير من آياته:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿.. وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

وقد ورد عن أهل البيت من الآثار في كبح الغضب وردّ الحدة ما يعبر عن رضا الله عز وجل، ورجاحة العقل.

فعن الرسول الأعظم أنه قال: «من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابه»[٣].

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «من كظم غيظه وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة»[٤].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها..»[٥].

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام بعدم الغضب معالجاً ذلك بتوجيهه السديد فروي أنه قال: «يا عليّ؛ لا تغضب فإن غضبت فأقعد وتفكر بقدرة الرب على العباد وحلمه عنهم، وإذا قيل لك

---

(١) سورة الشورى / ٣٧.

(٢) سورة آل عمران / ١٣٤.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٢٦٣/٧٣.

(٤) الكليني / الكافي: ١١٠/٢.

(٥) المصدر نفسه: ١٠٩/٢.

أتق الله فأنبذ غضبك، وراجع حلمك»[١].

وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «داووا الغضب بالصمت والشهوة بالعقل»[٢].

والغضب لله محمود ما في ذلك شك وقد وصف الإمام علي عليه السلام الرسول الأعظم بأنه:

«كان لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له»[٣].

وعنه عليه السلام: «من شنيء الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة»[٤].

ومما يتساوق مع هذا الباب ويناسب مقاربته بعضاً من بعض، الاستغفار من الله تعالى، وطلب المغفرة منه، وذلك أن عفو الله، ومدح الله لردّ الغضب لأنه من الشيطان فلا يبقى للإنسان إلاّ أن يستغفر الله من ذنبه وهو الغفور الرحيم.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[٥].

---

(١) تحف العقول / ١٤.

(٢) غرر الحكم / ٥١٥٥.

(٣) المحجة البيضاء: ٥/٣٠٣.

(٤) نهج البلاغة / الحكمة رقم ٣١.

(٥) سورة آل عمران / ١٣٥.

وعمل السوء من المحرمات وظلم النفس بارتكاب الذنوب من المحظورات، إلا أن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة، ومن يستغفر يغفر له؛ لهذا كان الاستغفار من خير العبادة والدعاء، إذ قد يغفر الله الذنب وقد يستجيب الدعاء، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «خير العبادة الاستغفار»(١).

وروي عنه صلوات الله عليه أنه قال: «خير الدعاء الاستغفار»(٢)، ومن أروع ما أستنتجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأستنبطه وأشار إلى أمته به، أنه قال:

«أكثروا من الاستغفار فإن الله عز وجل لم يعلمكم الاستغفار إلا وهو يريد أن يغفر لكم»(٣).

ومن أبلغ ما ذهب إليه الإمام علي في طلب المغفرة والإسراع إلى الاستغفار قوله مستعيراً ومكنياً بالاستعارة:

تعطروا بالاستغفار لا تفضحكم روائح الذنوب»(٤)، وهو عليه السلام يحث على الاستغفار ويدعو معه إلى عدم القنوط فيروي أنه قال:

«عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار»(٥)، وقوله عليه السلام: «من أعطى

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/ ٥١٧.

(٢) الكليني / الكافي: ٢/ ٥٠٤.

(٣) تنبيه الخواطر: ١/ ٥.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار: ٩٣/٢٧٨.

(٥) نهج البلاغة / الحكمة رقم ٨٧.

الاستغفار لم يحرم المغفرة»[١].

والله عزّ وجل رءوف بعباده، وقد يبدو من الروايات أن بعض الذنوب التي يرتكبها المرء صباحاً قد لا تسجل انتظاراً إلى الليل، فإذا استغفر منها لم تكتب عليه، فقد روي هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن العبد إذا أذنب ذنباً أجلّ من غدوة إلى الليل، فإن أستغفر الله لم يكتب عليه»[٢].

والمرويات عن أهل البيت عليه السلام تشير إن طلب المغفرة من الله تعالى يزيد في الرزق، وهو رحمة للخلق، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «وقد جعل الله الاستغفار سبباً لدرّ الرزق ورحمة الخلق، فقال سبحانه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾[٣]. فرحم الله أمرا استقبل توبته واستقال خطيئته، وبادر منيته»[٤]. وأكد هذا المعنى صلوات الله عليه بالقول: «الاستغفار يزيد في الرزق»[٥]، وعنه عليه السلام: أيضاً «أستغفر ترزق»[٦].

وقد حذّر أئمة أهل البيت عليهم السلام من الاستغفار جزافاً مع

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة رقم ١٣٥.

(٢) الكليني / الكافي: ٢ / ٤٣٧.

(٣) سورة نوح / ١٠.

(٤) نهج البلاغة / الخطبة رقم ١٤٣.

(٥) المجلسي / بحار الأنوار: ٩٣/٢٧٧.

(٦) غرر الحكم / ٢٢٢٨.

الإصرار على الخطايا والذنوب وعدوّا ذلك ذنوباً مجددةً تارة، واستهزاء بالرب تارة أخرى، واستهزاء بالنفس سواهما.

فعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «الاستغفار مع الإصرار على الذنب ذنوب مجددة»[١].

وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «المستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربه»[٢].

وعنه أيضاً: «من أستغفر بلسانه ولم يندم بقلبه فقد استهزأ بنفسه»[٣].

وخير ما نختم به هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾[٤].

---

(١) تحف العقول / ٢٢٣.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٤٠١/٧٧

(٣) المصدر نفسه: ١٩٠/٧٨.

(٤) سورة هود / ٣.

«برُّ الوالدين... وصلةُ الأرحام»

قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1].

والآيتان ناظرتان إلى مواقع البر للوالدين في أرفع منازل البر وأسمى الآداب التربوية، فقد قرن عبادته بالإحسان إليهما، وبرعايتهما عند الكبر أحدهما أو كلاهما، ولو وجدت كلمة في التضجر أدنى من كلمة «أف» لأستعملها القرآن العظيم فضلاً عن أن ينهرهما بل يقول لهما قولاً كريماً مصاقباً لخفض الجناح لهما تذللاً، والدعاء لهما بالرحمة كما ربياه صغيراً.

وسأل أبن مسعود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر

(١) سورة الإسراء / ٢٣ - ٢٤.

الوالدين»[1] فقرن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة بوقتها ببر الوالدين، وأعتبرهما أحب الأعمال لله عز وجل، وفي هذا عبرة لمن أعتبر وتذكرة لمن تذكر.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«من برّ والديه طوبى له، زاد له في عمره»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«رضا الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد»[3].

وفي مقابلة المثل بالمثل روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«بروا آباءكم، يبركم أبناؤكم»[4].

وهذه مقاصة عجيبة تشهد عليها دلائل الآثار ومجريات الأحداث.

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال:

«بر الوالدين واجب، فإذا كانا مشركين فلا تطعهما ولا غيرهما في المعصية، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[5].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: (إن الله عز وجل أمر بالشكر

---

(١) الترغيب والترهيب: ٣/ ٣١٤.

(٢) الترغيب والترهيب: ٣/ ٣١٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٣١٤.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار: ٧٤/ ٦٥.

(٥) الصدوق / الخصال / ٦٠٨.

له وللوالدين، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله)[١].

وكما كان البر للوالدين واجباً في حياتهما، فالبر لهما بعد وفاتهما واجبٌ أيضاً وقد أشار له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سئل عن بر الوالدين بعد موتهما؛ فقال: نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إن العبد ليكون باراً بوالديه في حياتهما، ثم يموتان فلا يقضي عنهما ديونهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عاقاً، وإنه ليكون عاقاً لهما في حياتهما غير بار بهما، فإذا ماتا قضى عنهما دينهما وأستغفر لهما، فيكتبه الله عز وجل باراً»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أدنى العقوق (أفٍ) ولم علم الله عز وجل شيئاً أهون منه لنهى عنه»[٤].

وعنه سلام الله عليه في قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾[٥]، قال: «لا تملأ عينيك من النظر إليهما ولا يدك فوق أيديهما ولا

---

(١) المصدر نفسه / ١٥٦.

(٢) الترغيب والترهيب: ٣/٣٢٣.

(٣) الكليني / الكافي: ٢/١٦٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢/٣٤٨.

(٥) سورة الإسراء / ٢٤.

تقدم قدامهما»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه قال:

«يقال للعاق: اعمل ما شئت فإني لا أغفر لك»[٢].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

«عقوق الوالدين من الكبائر، لأن الله تعالى جعل العاق شقياً عصياً»[٣].

وعنه سلام الله عليه:

«من العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر إليهما»[٤].

وعن الإمام الهادي عليه السلام:

«العقوق يعقب القِلة ويؤدي إلى الذلة»[٥].

وفي ظل الأبوة والبنوة قد نشاهد المفارقات، وقد تسود الفوضى - أحيانا - بين الإفراط والتقصير وقد يؤدي ذلك إلى العقوق من حيث لا يشعر الآباء والأبناء ومن حيث لا يشعرون، فقد روي عن الأمام الباقر عليه السلام أنه قال: «شر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط، وشر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق».

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/١٥٨.

(٢) المجلسي / البحار: ٧٤/ ٨٠.

(٣) الصدوق / علل الشرائع / ٤٧٩.

(٤) الكليني / الكافي: ٢/٣٤٩.

(٥) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٤/ ٨٤.

فهذا وجه واقع بين القصور والتقصير وقد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه والنمط الأفضل، والنمط الأوسط وهو الاقتصار من هذا وذاك إلى حدود معينة تميل إلى الاعتدال.

والمرء قد يحب ولده إلى درجة الهيام، وقد لا يلام على ذلك فالولد قطعة من الكبد، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن الله عز وجل ليرحم الرجل لشدة حبه إلى ولده»[١].

وهذا فضل كبير من الله عز وجل باحتضان هذا المستهام، والعطف عليه واللطف به، والله هو اللطيف الخبير.

وقد قال رسول الله فيما يروي عنه: «الولد مجبنةُ، مبخلةً، محزنةُ»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«أولادنا أكبادنا صغراؤهم أمراؤنا، وكبرائهم أعداؤنا، فإن عاشوا فتنونا، وإن ماتوا أحزنونا»[٣].

وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«من سعادة الرجل أن يكون له الولد يعرف فيه شبهه: خلقه وخلقه، وشمائله»[٤].

---

(١) الكليني / الكافي: ٦/٥٠.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ١٠٤/٩٧.

(٣) جامع الأخبار / ٢٨٣.

(٤) الكليني / الكافي: ٦/٤.

وللأطفال العطف الخاص، واللغة الخاصة، والمعاملة التي تناسب عمره، وقد ورد الحث على مجاراته بأولاعه.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«من كان عنده صبي فليتصاب له»(١).

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعتبر الحسن والحسين ريحانتيه، وهما صبيان، فقد روي جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحسن والحسين عليهما السلام على ظهره، وهو يجثو لهما، ويقول: «نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما»(٢).

والسعادة المركزية للإنسان أن يرزقه الله عز وجل ولداً صالحاً وخلفاً مؤمناً، يكون عوناً له في حياته، وذكراً له بعد وفاته، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن الولد الصالح ريحانة من رياحين الجنة»(٣).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«الولد الصالح ريحانة من الله، قسمها بين عباده»(٤).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) الصدوق / من لا يحضره الفقيه: ٣/٤٨٣.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٤٣/٢٨٥.

(٣) الكليني / الكافي: ٦/٣.

(٤) الكليني / الكافي: ٦/٢.

«من سعادة الرجل الولد الصالح»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«ما سألت ربي أولاداً نُظر الوجوه، ولا سألته ولداً حسن القامة، ولكن سألت ربي أولاداً مطيعين لله وجلين منه، حتى إذا نظرت إليه وهو مطيع لله قرّت عيني»[2].

وفي هذا الضوء صدرت التوجيهات الحضارية لأهل البيت عليهم السلام بتأديب الولد والعناية بتربيته، وتحبيب المكرمات له، وحثه على اكتساب الفضائل.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم»[3].

وقد أشار النبي إلى خصال ثلاث مما ينبغي تأديب الأبناء عليها فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم وحب أهل بيته، وقراءة القرآن»[4].

وهناك حقّان في الأبوة والبنوة، حق الوالد على الولد، وحق الولد

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار: ١٠٤/ ٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٤/ ٩٨.

(٣) المتقي الهندي / كنز العمال: الحديث (٤٥٤١٠).

(٤) المتقي الهندي / كنز العمال: الحديث (٤٥٤٠٩).

على الوالد، ليجعل التكافؤ التربوي الأخلاقي بينهما، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سئل عن حق الوالد على ولده!! قال:

«لا يسميه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسب له»(١).

وعنه صلى الله عليه وآله أن رجلاً قال له: إن أبي يريد أن يستبيح مالي! فقال صلى الله عليه وآله: «أنت ومالك لأبيك»(٢).

وفي قبال هذا وضع الإسلام حقاً للولد على الوالد أشارت إليه الأحاديث الشريفة ونصّت عليه المرويات. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من حق الولد على والده ثلاثة: يحسّن أسمه ويعلمه الكتابة، ويزوجه إذا بلغ»(٣).

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«حق الولد على والده أن يحسن أسمه ويحسن موضعه، ويحسن أدبه».

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«تجب للولد على والده ثلاث خصال: اختياره لوالدته، وتحسين أسمه، والمبالغة في تأديبه»(٤).

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/١٥٩.

(٢) المتقي الهندي / كنز العمال: الحديث (٤٥٩٣٣).

(٣) مكارم الأخلاق: ١/٤٧٥.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٨/٢٣٦.

ومن أنفس الكلمات في هذا المقام قول الإمام الصادق عليه السلام فقد روي عنه أنه قال: «برّ الرجل بولده، بر بوالديه»[١].

ومن البر أن يأمر ولده بالتوجه لمعالي الأمور، ومن أبرزها طلب العلم فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «مروا أولادكم بطلب العلم»[٢].

وينبغي للأب مساواة الأبناء في العطايا والهبات؛ إلا أن يجد مسوغاً آخر فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«أعدلوا بين أولادكم في النحل،كما تحبون أن تعدلوا بينكم في البر واللطف»[٣].

وقد روي أن الإمام علياً عليه السلام قال:

«أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً له ولدان فقبّل أحدهما وترك الآخر فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فهلاّ واسيت بينهما»[٤].

ومن مخلفات الجاهلية التي تمخر في عباب الأذهان حتى اليوم الاعتداد بالأبناء والاستهانة بالبنات، وقد حدب أهل البيت عليهم السلام على درء هذه الظاهرة والدعوة إلى النظر بموضوعية لكل من الأبناء والبنات، فقد ورد

---

(١) مكارم الأخلاق: ١/٤٧٥.

(٢) المتقي الهندي / كنز العمال: الحديث (٤٥٩٥٣).

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٤/٨٤.

(٤) المتقي الهندي / كنز العمال: الحديث (٤٥٣٤٧).

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«البنات هنّ المشفقات المجهزات المباركات»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إن الله تبارك وتعالى على الإناث أرأف منه على الذكور، وما من رجل يدخل فرحة على امرأة بينه وبينها حرمة إلا فرّحه الله تعالى يوم القيامة»[٣].

وليكن ختام هذا الباب بما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«البنون نعيم والبنات حسنات، والله يسأل عن النعيم ويثيب على الحسنات»[٤].

وأما صلة الأرحام فقد ندب إليها الشرع وحثت عليها الآثار النبوية، وتناولتها الأحاديث القدسية.

وقد ورد في الأثر: «الأرحام معلقة بين السماء والأرض، تقول ربِّ

---

(١) المصدر نفسه: الحديث (٤٥٣٧٤).

(٢) المصدر نفسه: الحديث (٤٥٣٩٩).

(٣) الكليني / الكافي: ٦/٦.

(٤) الكليني / الكافي: ٦/٧.

صل من وصلني، وأقطع من قطعني».

وعلى صلة الأرحام تترتب الآثار الوضعية في استجابة فعل لفعل تقابل ردّة الفعل وما ورد في هذا الشأن تفضل من الله على العبد من جهة وإبرام للعقد الاجتماعي بين الأرحام في التواصل والتزاور والمحبة والوئام.

وهنالك حدود دنيا في صلة الأرحام تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما روي عنه أنه قال:

«صلوا أرحامكم ولو بالسلام»[١].

وهذا أدنى ما يوصل به الرحم، والسلام فاتحة كل خير، وهو تحية الإسلام ومظهر من مظاهر الدعة والأمان.

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال:

«صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما توصل به الرحم كف الأذى عنها»[٢].

ونجد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يتحدث عن أقل ما يوصل به الرحم كما يتحدث عن أفضل ما يوصل به الرحم وهو كف الأذى وإماطة الشرور.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «سرْ سنة صل رحمك»[٣].

---

(١) تحف العقول / ٥٧.

(٢) الكليني / الكافي: ٢/١٥١.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ١٠٣/٧٤.

وهذا من أبلغ الانتداب لصلة الأرحام أن تتجشم عناء مسيرة عام.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم»[١].

وعن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام أنها قالت:

«فرض الله صلة الأرحام منماةً للعدد»[٢].

وعن سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «من سره أن ينسأ في أجله، ويزداد في رزقه، فليصل رحمه)[٣].

أما الإمام محمد الباقر عليه السلام، فقد أعطى لصلة الأرحام زخماً عالياً في إفاضة محاسن الأعمال، وجلائل الصفات والتأكيد على الجانب الخلقي والخلقي والنفسي في حديثين بلغا القمة في الدفع إلى صلة الرحم، والتوجه إليها فقد روي أنه قال:

١ - «صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسئ من الأجل»[٤].

٢ - وقال عليه السلام: (صلة الأرحام تحسن الخلق، وتسمح الكفّ، وتطيّب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسئ من الأجل)[٥].

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/١٥٢.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٤/٩٤

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٤/٩١.

(٤) الكليني / الكافي: ٢/١٥٠.

(٥) المصدر نفسه: ٢/١٥٢.

أما سيدنا ومولانا الإمام علي الهادي عليه السلام فأورد ما أوحي إلى موسى في جزاء من وصل رحمه، فقدر روي أنه – عليه السلام – قال:

«لما كلّم الله عز وجل موسى بن عمران عليه السلام قال موسى: إلهي.. ما جزاء من وصل رحمه؟ قال: يا موسى أنسيء أجله؟ وأهون عليه سكرات الموت»[١].

ويقابل هذا الملحظ في صلة الرحم قطيعة الرحم وقد ذُمت ذماً جذرياً في تراث أهل البيت الإنساني، وحذرت الأحاديث عنهم من قطع الرحم، وإلغاء الصلات القائمة على الحب المتبادل والتعاون المشترك والالتقاء في الله، وأول ما يفجأنا الكتاب العزيز بذلك، قال الله تعالى:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم»[٣].

وعن إمام المتقين وقائد الغر المحجلين الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار»[٤]. وهذا إنذار

---

(١) الصدوق / الأمالي: ٢٧٦.

(٢) سورة محمد / ٢٢ – ٢٣.

(٣) المتقي الهندي / كنز العمال: الحديث (٦٩٧٤).

(٤) الكليني / الكافي: ٢/٣٤٨.

لقاطعي الرحم من رحيل الأموال عنهم إلى أيدي شرارهم.

وقد أعتبر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قطيعة الرحم من الذنوب التي تعجل بالفناء والإبادة وهو متساوق مع ما تقدم بأن صلة الرحم تنسئ من الأجل فقد روي عنه أنه قال:

«الذنوب التي تعجل الفناء قطيعة الرحم»(١).

وأرقى أنواع الصلة أن تصل من قطعك من الأرحام وفي ذلك صد للهوى ومغالبة للنفس، وإرغام لوازع السوء، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«لا تقطع رحمك وإن قطعتك»(٢).

وقد وصف الإمام الحسين بن علي عليه السلام من وصل من قطعه من الأرحام بأنه أوصل الناس، فقال:

«إن أوصل الناس من وصل من قطعه»(٣).

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٤/٩٤.

(٢) الكليني / الكافي: ٢/٣٤٧.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٤/٤٠٠.

«من مساوئ الصفات: الغيبة والحسد والعجب»

هناك الأخلاق الكريمة،والسجايا النبيلة، ومسالك الوعي الرفيع، وهنالك ما يقابل هذا في الصفات الذميمة والعادات الوضيعة، مما نعده تخلفا عن الركب الحضاري الذي اضطلع به القران العظيم، ودعت إليه السنة الشريفة،وسوء التربية هو الذي يقود إلى تلك الصفات اللا إنسانية والمزايا اللا أخلاقية.

ومحاسن الأخلاق كثيرة تقود البحث عنها، ومساوئ الأخلاق كثيرة أيضاً اقتصرنا منها على آفة العصر لدى ناقصي العقول وفاقدي الأصالة، والسائرين على خطى الجهلة والمغرورين الذين بدلوا وغيروا، فلا وازع من ضمير، ولا مانع من عقل، ولا رادع من تفكير سليم، اقتصرنا الحديث عن الغيبة والحسد والعجب،لان هذه النزغات مما ينخر في جسم الأمة عبثا وصلفا وطغيانا، وكانت أحاديث أهل البيت عليهم السلام منصبّة على مكافحة هذه

الآفات الثلاث، بغية توجيه الأمة توجيها تربويا يتماشى مع تعليمات الإسلام، ويحقق للمجتمع المسلم أنشودته في الوحدة والانسجام وتهذيب السلوك.

إن أعرق الأمم تحضراَ، واسبقها إلى الثقافة النفسية، تنكر أشد الإنكار تلك السقطات اللا مسؤولة في التربية المضادة للنهج القويم والفكر الصاعد، فكيف برسالة السماء التي اضطلع بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام وهم ينأون بالإنسان المسلم عن التهافت في مزالق عقيمة لا قدم لها ولا قدم في الحياة الحرة الكريمة، وهم يريدون إنقاذ الأجيال وصيانتها من الانخراط في متاهات لا أول لها ولا آخر، وهم يدأبون على تلاقح النفس بومضات الأخلاق الإنسانية للارتفاع بمستواها وشموخها عن الحضيض الأوهد إلى الشموخ والارتقاء حيث العزة والكرامة والنظام التربوي الأمثل.

في هذا الضوء سيلخص البحث ظواهر الانحطاط الثلاث ومكافحتها بإيجاز:

١ - الغيبة

والغيبة سلاح من لاسلاح في إصلاح المجتمع وإنقاذ الأمة، ففاقد الشيء لا يعطيه، والناظر في شؤون الآخرين لا يرأف بنفسه الأمارة بالسوء عن الانشغال بعيوبها دون عيوب الآخرين.

والغيبة أن تذكر أخاك بما يكره في ظهر الغيب، وتظهر العيوب فيه، إذ

ربما يتوب عنها، ويقلع منها، فليست أوقات المرء سواء في الفعل ورد الفعل، وقد يجوز اغتياب الفاسق بما يجاهر به من المعاصي لإضاءة الطريق بين يدي المجتمع في ذلك، ولا تجوز غيبته بأكثر مما عمل وفعل.

أما الافتراء على الآخرين، والكذب عليهم، وتعمد الزور وقوله في حقهم، فهو من البهتان العظيم، وهو إحدى الكبائر.

وقد نهى عن الغيبة القران العظيم بأمر صارم جازم،أعقبه بتشبيه تمثيلي مبتكر من الوجهتين النفسية والبلاغية.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (١٢) ﴾[١].

وقد جمعت هذه الآية التوجيهات الكبرى من اجل حياة أفضل ونظام أكمل، فحرمت السخرية على الرجال والنساء،فربما كانوا خيراً منهم ومنهن، وحرمت اللمز والتنابز بالألقاب واعتبرت كل أولئك مما يطلق عليه اسم الفسوق وهو بئس الاسم بعد الإيمان.

وجاءت الآية إلى الغيبة ونهت عنها مشدداً، وجعلت ذلك بمثابة أن

---

(١) سورة الحجرات/ ١١ - ١٢.

يأكل المرء لحم أخيه ميتاً!! وهي كراهة ما بعدها كراهة. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد سئل عن كفارة الاغتياب، فقال: «تستغفر لمن اغتبته كلما ذكرته»[١].

وقال: «إذا اغتاب أحدكم أخاه فليستغفر الله، فأنها كفارة له»[٢].

وتقاطرت أحاديث أهل البيت عليهم السلام في ذم الغيبة والنهي عنها، وكونها ماحقةً للأعمال،ومغيرةّ لأحوال الطاعات، في الانتقال من صاحبها إلى المغتاب في الميزان، وحكم سماع الغيبة، وثواب ردّ الغيبة، ومن يجوز اغتيابه إلى آخر هذه المفردات!!

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«مررت ليلة اسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم، فقلت: يا جبرائيل، من هؤلاء؟، فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم»[٣].

وقد قارن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين الغيبة والزنا، واعتبر الغيبة اشد من الزنا، والزنا أهون من الغيبة، وقد علل ذلك، فقال: الغيبة أشد من الزنا. قيل: وكيف؟، قال: الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه، وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه[٤]!!.

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/٣٥٧.

(٢) المتقي الهندي / كنز العمال: الحديث (٨٠٢٧).

(٣) تنبيه الخواطر: ١/١١٥.

(٤) الترغيب والترهيب: ٣/٥١١.

وقد اعتبر أمير المؤمنين عليه السلام «الغيبة سلاح العاجز»[١].

وهو أوجز تعبير لأبشع الأعمال، فهي سلاح من لا سلاح له.

وقال سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام لرجل اغتاب عنده رجلاً!! (يا هذا، كف عن الغيبة، فأنها أدام كلاب النار)[٢].

وقد عُد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام إن من يستغيب أحداً سيستغيبه آخر، ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيه، وكما تدين تدان!!، فقال عليه السلام: «لا تغتب فتغتب، ولا تحفر لأخيك حفرة فتقع فيها، فأنك كما تدين تدان»[٣].

ومن نبل الإمام زين العابدين عليه السلام، وفضائل أخلاقه العليا: أن قال له رجل: إن فلانا ينسبك إلى أنك ضال مبتدع!، فقال عليه السلام: ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حيث أبلغتني عن أخي ما لست أعلمه!! إياك والغيبة فأنها أدام كلاب النار.. واعلم أن من أكثر من ذكر عيوب الناس شهد عليه الإكثار أنه إنما يطلبها بقدر ما فيه»[٤].

وتحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إسراع الغيبة في دين المسلم،وما تفعل فيه، وعن عدم تقبل عمل المستغيب من صلاة وصيام مدة

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة رقم: ٥٦١.

(٢) تحف العقول / ٢٤٥.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٥/ ٢٤٩.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار: ٢٤٦/٧٥.

زمنية حددها، إلا أن يغفر له صاحبه، وعن إعطائه كتابه ولا حسنات فيه لأنها ذهبت باغتياب الناس وذلك في ثلاثة أحاديث: الأول: «الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه»[١].

الثاني: «من اغتاب مسلما أو مسلمة لم يتقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة، إلا أن يغفر له صاحبه»[٢].

والثالث: «يؤتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدي الله ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته، فيقول: الهي ليس هذا كتابي!! فاني لا أرى فها طاعتي؟ فيقال له إن ربك لا يغفل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس، ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه فيرى فيه طاعات كثيرة!! فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإني ما عملت هذه الطاعات، فيقال له: لأن فلاناً اغتابك فدفعت حسناته إليك)[٣].

وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معنى الغيبة وفرق بينها وبين البهتان، فقد روي انه قال لأبي ذر رضي الله عنه «يا أبا ذر، إياك والغيبة فان الغيبة أشدّ من الزنا... قلت: يا رسول الله وما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره قلت: يا رسول الله فان كان فيه ذاك الذي يذكر به؟، قال: إعلم إنك إن ذكرته بما هو فيه فقد اغتبته، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهته»[٤].

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/ ٣٥٧.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٥/ ٢٥٨.

(٣) جامع الأخبار: ٤١٢.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٧/ ٨٩.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.. أنهم ذكروا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً فقالوا: لا يأكل حتى يطعم، ولا يرحل حتى يُرحل له، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم اغتبتموه، فقالوا: يا رسول الله، إنما حدثنا بما فيه!، قال: حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه»(١).

وعن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام انه قال:

«من ذكر رجلاً من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس لم يغتبه، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه ولم يعرفه الناس اغتابه»(٢).

نعم تجوز الغيبة للفاسق المتجاهر في فسقه، ولمن ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «أربعة ليست غيبتهم غيبة: الفاسق المعلن بفسقه، والإمام الكذّاب، إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر، والمتفكهون بالأمهات، والخارج عن الجماعة الطاعن على أمتي الشاهر عليها بسيفه»(٣).

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهتك الفاجر حتى يحذره الناس، فقال: «حتى متى ترعوون عن ذكر الفاجر؟؟ أهتكوه حتى يحذره الناس»(٤).

وقد نهى أمير المؤمنين عليه السلام عن سماع الغيبة، وتنزيه السمع عنها،

---

(١) غرر الحكم / ١٠١٧.

(٢) غرر الحكم / ٥٢٤٢.

(٣) بحار الأنوار: ٦٤/٢٦١.

(٤) كنز العمال: ٨٠٧٤.

وتبعهُ حفيدةُ زين العابدين عليه السلام على ذلك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام وقد نظر إلى رجل يغتاب رجلاً عند ابنه الإمام الحسن عليه السلام «يا بني نزه سمعك عن مثل هذا؛ فأنه نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك»[١].

وعن زين العابدين الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: حق السمع تنزهه عن سماع الغيبة، وسماع ما لا يحل سماعه»[٢].

وينبغي لسامع الغيبة أن يردها عن المغتاب، وفي ذلك الثواب الجزيل من الله تعالى، فأن خذله الله في الدنيا والآخرة وذلك ما تضمنه حديثان شريفان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عنه:

«من تطول على أخيه في غيبة سمعها فيه في مجلس فردها عنه، ردّ الله عنه ألف باب من السوء في الدنيا والآخرة»[٣].

وعنه صلوات الله عليه انه قال: من اغتيب عنده أخوه المسلم فاستطاع نصره فلم ينصره،خذله الله في الدنيا والآخرة»[٤].

ونختم هذا المبحث بقول أمير البلغاء وسيد الوصيين الإمام علي عليه

---

(١) الاختصاص: ٢٢٥.

(٢) كنز الفوائد: ١/١٣٦.

(٣) غرر الحكم / ١٥٥٠.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٣/٢٥٦.

السلام فيما يروي عنه «السامع للغيبة كالمغتاب»[١].

٢ - الحسد

في سالف أقوال الحكماء «قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله». وهذا أمر واقع، فالحسود ضيق العطن، مضطرب النفس، معذب الضمير، وهذا القول أخذ عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام الذي عالج ظاهرة الحسد، وأفاض القول فيها في مؤثراتها النفسية، ومؤشراتها القاتلة، فقال:

«لله در الحسد ما أعدله، بدا بصاحبه فقتله»[٢].

والحاسد والعياذ بالله غاضب على من لا ذنب له، وحاقد على من لا أمر بيديه، يتمنى زوال نعمة أخيه، ويسخط على أفضال الله عليه، فهو عاتب على القدر، وواجد على القضاء، والأمور بيد الله، وفرق بين الحسد والغبطة، الحسد عقدة مستعصية لا تنحلّ عند صاحبها إلا بزوال نعمة الآخرين، والغبطة أن يتمنى المرء ما لأخيه دون حسد له، وان يعطى ما أعطي من النعم أو الجاه أو المقتنيات أو المنزلة، لهذا ورد «إن المؤمن يغبط ولا يحسد».

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الله – عز وجل – لموسى بن عمران: إن الحاسد ساخط لنعمي، صادٌّ لقسمي الذي قسمت بين عبادي»[٣].

---

(١) الصدوق / الخصال / ١٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/٣١٦.

(٣) الكليني / الكافي: ٢/٣٠٧.

وقد وقف أمير المؤمنين الأمام علي - عليه السلام - عند ظاهرة الحسد، وعند الحاسدين موقفاً دقيقاً متأنياً في عدّة أحاديث مؤثّرة، تكشف عن واقع زيف الحاسد، ونتائج الحسد المريرة، وإفرازات هذه الظاهر على الروح والجسد والسلوك، وقد أعطى لذلك خلاصة تجاربه الأخلاقية، وثمرة جهوده في إصلاح الأمة.

فقال عليه السلام «الحسود لا يسود»[١].

إذ الحسد آفة مانعة من السيادة، فالسيّد ينظر إلى الناسٍ نظرة متساوية الأبعاد، فإذا جنح وظلم وحسد نفيت عنه السيادة كاملة، وعاد من الظلمة القاسطين.

وقال عليه السلام «رأس الرذائل الحسد»[٢].

وهذا أمر طبيعي، لأنه مضادُ للطبيعة الإنسانية، فالله هو الواهب وهو المعطي، ومن جحد ذلك حظي من الرذائل برأسها، ومن الأمراض بشرها، فعنه - عليه السلام - «الحسد شر الأمراض»[٣].

والروح ينبغي أن تتعايش في أفاق فسيحة هادئة مطمئنة، أما إذا واكبها الحسد، فهي في سجن، فعنه عليه السلام » الحسد حبس الروح»[٤].

---

(١) غرر الحكم / ١٠١٧.

(٢) المصدر نفسه / ٥٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه / ٣٣٢.

(٤) المصدر نفسه / ٣٧٢.

وما يجنيه الحاسد أن يخسر الدنيا والآخرة، وان تكون ثمره حسده شقاء الدنيا والأخرى، فعنه عليه السلام: «ثمرة الحاسد شقاء الدنيا والأخر»[١].

وهنالك مفارقة عجيبة أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام أن يرى الحاسد زوال نعمة أخيه نعمةً عليه، فقال صلوات الله عليه: «الحاسد يرى أن زوال النعمة عمن يحسده نعمة عليه»[٢].

وحسب الحاسد ما يلقى من تأنيب الضمير، أن كان له ضمير يعقل فيه، وحسبه أن يكون كثير الحسرات، مضاعف السيئات، وحسبه قلبه الهائم، وحزنه اللازم، ونفسه الدائم فعنه عليه السلام «حسبُ الحاسد ما يلقى»[٣].

وقال عليه السلام: «الحسود كثير الحسرات، مضاعف السيئات»[٤].

وقال عليه السلام» ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: نفسٌ دائم، وقلب هائم، وحزن لازم»[٥].

ومن علامات الحاسد ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «قال لقمان لابنه: للحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، ويتملق إذا شهد، ويشمت بالمصيبة»[٦].

---

(١) غرر الحكم / ٤٦٣٢.

(٢) غرر الحكم / ١٨٣٢.

(٣) كنز الفوائد: ١/١٣٦.

(٤) غرر الحكم / ١٥٢٠.

(٥) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٣/٢٥٦.

(٦) الصدوق / الخصال: ١٢١.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتكتم في قضاء الحوائج حذر الحسد على النعمة، فيروي أنه قال صلوات الله عليه واله: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فان كل ذي نعمة محسود»[١].

وتحدثت الآثار عن أئمة أهل البيت عن علاقة الحسد بالتأثير على الإيمان من جهة، وعلاقة الحسد بالكفر، وكون الكفر أصله الحسد «إن الحسد ليأكل الأيمان كما تأكل النار الحطب»[٢].

وقال الأمام جعفر الصادق عليه السلام فيما يروي عنه: «إياكم أن يحسد لبعضكم بعضاً، فان الكفر أصله الحسد»[٣].

وهذا غيض من فيض مما ورد في الحسد من آثار، حسبنا في ذلك كله قوله تعالى أمراً بالاستعاذة [وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ][٤].

٣ - العُجب

وإعجاب المرء بنفسه أو بعمله أو بأدائه الواجبات والفرائض دليل الجهل المركب، ومعيار الحمق المستحكم، فما للإنسان وللعجب، وما له والاغترار بما قدم، وما له والتيه على الآخرين، ومن ظن أن الله لم يخلق مثله ذاتاً وعلماً وكياناً فقد أخطأ في التقدير، وضل عن صواب الطريق، فلله في خلقه

(١) شرح نهج البلاغة: ١/٣١٦.

(٢) الكليني / الكافي: ٢/٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه: ٨/٨.

(٤) سورة الفلق / ٥.

شؤون، وللمرء في ذلك عظةٌ واعتبار، فعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «من أعتبر أبصر، ون أبصرفهم، ومن فهم علم»[١].

والمرء بشخصه خبير، وهو على نفسه بصير، يعرف أولاعه ودواعيه والعجب يعني الشموخ والتعالي والانتفاخ ويقابله الاعتبار الذي يودي إلى الاستبصار، فقد روي عن الأمام علي عليه السلام قوله: «دوام الاعتبار يؤدي إلى الاستبصار، ويثمر الازدجار»[٢].

أمّا السادر في غيّه، والسائر على غير هدى، فيظل في أرجوحة من التفكير الواهن، والزهو المصطنع، غير عارف بحقيقة ما كان وما سيكون عليه، وما هو عليه في الحال، ولقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما لابن أدم والعُجب، وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة»[٣].

وقد أستقطب أمير المؤمنين عليه السلام في حكمه وأثاره وما روي عنه، ظواهر هذا الاستفزاز العجيب في العجب، وله في ذلك أحاديث قلّ أن يعيها هؤلاء الغارقون في بحر من الأوهام الكاذبة. قال الإمام علي عليه السلام في عدة حكم تجرى مجرى الأمثال، بل هي أمثال سائرة مدى الحياة، منها:

١ - «الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب»[٤].

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة، رقم ٢٠٨.

(٢) غرر الحكم / ٥١٥٠.

(٣) غرر الحكم / ٩٦٦٦.

(٤) تحف العقول / ٧٤.

٢ - «لا وحدة أوحش من العجب»[١].

٣ - «العجب يفسد العقل»[٢].

٤ - «العجب حمقٌ»[٣].

٥ - «الإعجاب يمنع الازدياد»[٤].

٦ - «الإعجاب يظهر النقيصة»[٥].

٧ - «ثمرة العُجْب البغضاء»[٦].

٨ - «سيئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك»[٧].

٩ - «إياك أن ترضى عن نفسك فيكثر الساخط عليك»[٨].

وهذا غيض من فيض مما وقفنا عليه في ذم العجب، مما أفاض به أمير المؤمنين الأمام علي عليه السلام، وقد سار على هداه أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا الاتجاه. فعن الإمام الباقر عليه السلام أو الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى يقول: إن من عبادي من يسألني الشيء من

(١) نهج البلاغة / الحكمة، رقم ١١٣.

(٢) غرر الحكم / ٧٢٦.

(٣) نهج البلاغة / الحكمة / ٦٢.

(٤) المصدر نفسه / ١٦٧.

(٥) غرر الحكم / ٩٥٤.

(٦) غرر الحكم / ٦٤٠٦.

(٧) نهج البلاغة / الحكمة، رقم ٤٦.

(٨) غرر الحكم / ٢٤٦٢.

طاعته لأحبه، فأصرف لك عنه لكي لا يعجبه عملهُ»[١].

ويحذر الأمام الصادق عليه السلام من الهلاك لمن تداخله العجب فروي عنه أنه قال: «من دخله العجب هلك»[٢].

وينبغي للمرء أن يستقل الخير من نفسه، ويستكثر قليل الخير من غيره، فلا يساوره العجب في نفسه، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ـ في صفة العاقل ـ: «يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلُّ كثير الخير من نفسه»[٣].

وعن الأمام الباقر عليه السلام أنه قال: «استقلل من نفسك كثير الطاعة لله، إزراءً على النفس، وتعرضاً للعفو»[٤].

وعنه ـ عليه السلام ـ أيضاً «سدّ سبيل العجب بمعرفة النفس»[٥].

عن الإمام الصادق عليه السلام «أن كان الممر على الصراط حقاً، فالعجب لماذا؟». «قال إبليس ـ لعنة الله عليه ـ لجنوده: إذا إستمكنت من ابن أدم في ثلاث لم أبال ما عمل، فأنه غير مقبول منه: إذا أستكثر عمله، ونسي ذنبه، ودخله العجب».

وبهذا الملخص الموجز ننهي الحديث عن العجب آفة النفوس والحمد الله تعالى أولاً وآخراً.

---

(١) حميد الحسيني / منتخب ميزان الحكمة / ٤٠٦، وانظر مصدره.

(٢) الكليني / الكافي: ٢/٣١٣.

(٣) الصدوق / الخصال / ٤٣٣.

(٤) تحف العقول / ٢٨٥.

(٥) الصدوق / الأمالي / ٥٦.



الفصل الثالث

المثلُ المتقابلة

١ - الرسالة.. واستعلاء الطواغيت.

٢ - ظواهر الابتلاء.. وعوائد العافية.

٣ - مكاره الدهر.. وانتظار الفرج.

٤ - ارتكاب الذنوب. والغفلة عن ذكر الله

«الرسالة واستعلاء الطواغيت»

في مسيرة أهل البيت الرسالية - ابتداءً من الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانتهاءً بصاحب الأمر عجل الله فرجه - وفي ظل قيادهم للأمة بحكمة وأناة ومعالجتهم الأوضاع بصبرٍ وترصد، كان الطواغيت في حضور لا إنساني مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام منذ أن صدع بالرسالة. وقام بدور البشير النذير، ومنذ أن نصب أهل بيته عليهم السلام علماً للأمة ومناراً للإسلام، وقادة للبشرية، فهاهي قريش تتبع الرسول الأعظم خطوة خطوة، وما جرى عليه من الأذى والاستفزاز والتشريد قد لا تستوعبه هذه السطور إلا على سبيل النموذج حتى قال صلوات الله عليه: «ما أوذي نبي مثلما أوذيت» أو كما أوذيت.

وحينما نجيل النظر فيما جرى على الأنبياء والمرسلين من ذي قبل على يد أممهم من القتل والتشريد والتسفيه والمقاطعة والمنابذة يمتلكك هول ما وقع على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المحن والإحن فمنذ أن جمع

عشيرته الأقربين فانذرهم وحذرهم وأمرهم بالتوحيد، صاح أبو لهب: ألهذا جمعتنا يا محمد؟ تباً لك ولما جمعتنا له، فتفرق الجمع ونزلت سورة المسد.

ونزل القرآن العظيم، فرمي بالجنون تارة والسحر تارة أخرى، وأدعي عليه أنه شاعر وقالوا عن القرآن انه أساطير الأولين، وقاطعوا النبي ونابذوه، وحصروه في شعب بني هاشم، وكتبوا الصحيفة السوداء في المقاطعة للنبي وبني هاشم، وفعلوا الأفاعيل بالمستضعفين من أوليائه وأتباعه، ووضعوا الفرث والسلا على ظهره، وهو في الصلاة.. فعن أبن مسعود، قال:

«بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفي محمد إذا سجد فأنبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به، فلما سجد صلوات الله عليه وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم، فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر، فقلت: لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والنبي ساجد يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة عليه السلام فجاءت وطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم.

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة رفع يديه فدعا عليهم، وقال: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات.. فلما سمع القوم صوته ودعائه ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته... وكان من دعائه أن قال: «اللهم عليك بأبي جهل وعتبة وشيبة وربيعة وأمية بن خلف». فقال علي

عليه السلام: «والذي بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر».

وهكذا كانت البداية حتى إذا نزلت سورة النجم، قيل إن عتبة بن أبي لهب قال للنبي: «كفرت برب النجم!!»، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أما تخاف أن يأكلك كلب من كلاب الله؟» ثم خرج بعد أيام للنجارة مع أبيه وجماعة من قريش، ثم نزلوا منزلاً فسمعوا صوت أسد مقبل عليهم ففزعوا، وكان أشدهم فزعاً عتبة، فإنه قال لهم: إني مأكول بدعاء محمد!! فاجتمعوا حوله وفرشوا له في مكان مرتفع وأحاطوا به وأبو لهب يقول يا معشر قريش أعينونا هذه الليلة، فإني أخاف على ابني من دعوة محمد. فلما جاء الأسد تشمم وجوههم إلى أن وصل إلى عتبة فأفترسه ما بينهم.

وما انتهت هذه الاستفزازات المضنية إلا بالهجرة بعد أن قررت قريش انتداب بطل من أبطال كل قبيلة عربية للهجوم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بياتاً، ففداه علي عليه السلام بنفسه وبات في فراشه وغادر النبي مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة.

وما عرض لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرض لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام فقد عزل عن قيادة الأمة وقامت مرجعية الصحابة حتى إذا ولي الأمر بعد فتنة عثمان ومقتله، وهو كاره، ثم انحرفت المسيرة في ظلال كثيفة، وطبيعية إرادته العودة بالإسلام إلى ينابيعه الأولى كان ذلك

عملية شاقة أنجبت له انتقاض طلحة والزبير بقيادة أم المؤمنين عائشة، كما انتجت له طمع معاوية بالخلافة، وهو ليس هناك حتى قال أمير المؤمنين فيما يروى عنه «أنزلني الدهر حتى قيل: عليٌّ ومعاوية».

وبعد حرب طاحنة سقطت فيها الرؤوس وندرت الأيدي وخلعت الأكتاف وطارت الأطراف قام الحكمان الضالان المضلان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري، فحكما بغير حكم الله، وقامت فتنة الخوارج على قدم وساق بشعار: «لا حكم إلا لله»، وكانت كما قال أمير المؤمنين: «كلمة حقّ يراد بها باطل» وكانت الحرب الضروس التي تهاوت في نفوس القوم.

وقد صور أمير المؤمنين عليه السلام ذلك فقال: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، وقسطت أخرى، ومرق آخرون.

وانتهى الأمر بأمير المؤمنين إلى المؤامرة الثلاثية بقيادة الخوارج ومعاوية والطابور الخامس المتربص بأمير المؤمنين عليه السلام، وذهب أمير المؤمنين شهيد عظمته وقتيل عدالته وخسرت الإنسانية برحيله قائداً عملاقاً، ومفكراً عالمياً، وعبقرياً رسالياً، وبطلاً مجرباً، وعادلاً حراً كريماً، وزاهداً ورعاً متمرساً.

حتى إذا نهض بالأمر الإمام الحسن عليه السلام حيكت حوله المؤامرات من كل حدب وصوب، وحشد معاوية عليه سيلاً من العيون والجواسيس يراقبون حركاته وسكناته، ويهيئون الطريق سالكة إلى المؤامرة الكبيرة بإقصاء هذا الإمام المفترض الطاعة عن قيادة الأمة والحكم، وتجرأ عليه أصحاب

المطامع والانتهازيون، فضرب على فخذه بالمغوّل، وسحبت سجادة صلاته من تحته، وكاد أن يقتله الخوارج وحملوا عليه بالقول: «أشركت كما أشرك أبوك من قبل يا حسن» فمنعه أصحابه وداوى جراحاته في المدائن، حتى انتهت حياته بالغصص بين معاوية وأعداء أهل البيت.

وكان الطواغيت من ملوك الأمويين وخلفاء الجور من العباسيين، ومن تبعهم من الظلمة والحكّام وطائفة كبرى من وعّاظ السلاطين، يتحينون الفرص بالأئمة الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأوجب مودهم بنص القرآن العظيم، وتتبعوا أولياءهم تحت كل حجر ومدر، وألحقوا بهم الشر المستطير، فحرموا الأرزاق، وقطعت الأعناق، وهدمت البيوت وصودرت الممتلكات، وحشدوا لذلك شتى الأساليب للغض من منزلتهم، والإهانة والاستخفاف بأشرافهم، حتى انتهى بهم المطاف إلى القتل والتعذيب والتشريد، وخنق الأصوات، وكم الأفواه.. والناس بين ناظر مستنكر في قلبه وعابر سبيل لا يهمه من الأمر شيء.. ومتحرق غضباً على ما يشاهد من استعلاء الباطل، وتواري مشاهد العدل والحق، وكانت مصارع أهل البيت في الطفوف، والكوفة، وفخ، والجوزجان، وباخمرى، والمدينة المنورة، شواهد على هذا الاستفزاز ومعالم في الطريق على ذاك العدوان المستديم.

وكان الصراع بين الهاشميين والأمويين يمثل نموذجاً صارخاً على تلك الأحابيل المتعددة في تشابك أسلاكها وترابط أدوارها، فوقف أبو سفيان في

وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوات قريش وحروبها وأحزابها وأحابيشها، وكان معاوية رأس الضلال في حرب أمير المؤمنين، والصاد عن سبيل الله في مجابهة أمير المؤمنين في قيادته للأمة، وفي انتزاع الأمر - بالكيد والغدر والرشوات - من الإمام الصابر المظلوم الحسن بن علي عليه السلام.

وكان يزيد بن معاوية قد سبق إلى أفظع جريمة في تاريخ الإسلام، وذلك بقتله للإمام الحسين بن أمير المؤمنين عليهما السلام، واستئصال أهل بيته وأصحابه في كربلاء، بما أوضحنا أبعاده كافة في كتابنا «الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري» ضمن موسوعة أهل البيت الحضارية.

والصراع بين أهل البيت وبني أمية صراع مبدأي، وقد أبان الإمام جعفر الصادق عليه السلام حقيقة جذوره المتأصلة، فقال: «نحن وآل أبي سفيان تعادينا في الله قلنا: صدق الله، وقالوا: كذب الله».

وكان الإمام الحسين عليه السلام في ثورته قد صوّر أبعاد هذا الصراع على حقيقته، وذلك عند وضع اللمحات المؤشرة لأراجيف الأمويين، وأبان صلابة المبدأ في مجابهتهم مما سجّله التأريخ السياسي والعقائدي بأحرف من نور، وذلك بجملة من التصريحات المهمة في الموضوع، وكان من أبرزها.

١ - «ألا وإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً».

٢ - «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد».

٣ - «ألا وإن الدعي أبن الدعي قد ركّز بين اثنتين بين السلة والذلة،

وهيهات منا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون».

واستطال مجد الإمام الحسين عليه السلام في ظل هذه الصلابة، وفي ضوء هذا الثبات المرّ، فهو أبي الضيم دون منازع.

قال أبن أبي الحديد: «وسيد الأباة جميعاً والذي علم الناس كيف يختارون الموت مع العز، وتحت ظلال السيوف على الحياة مع الذل، هو أبو عبد الله الحسين عليه السلام».

وفي هذا السياق يقول النابغة جبران خليل جبران:

«لم أجد كالحسين في سجل مجد البشرية بدمائه».

ونرى المهاتما غاندي محرر الهند متحدثاً عن النصر الذي أحرزه الإمام الحسين عليه السلام مستقبلياً بظلامته، فيقول: «تعلمت من الحسين أن أكون مظلوماً حتى أنتصر».

وقد نقّب الأستاذ عباس محمود العقاد عن جذور ذلك تاريخياً ونسبياً، فنفى عروبة الأمويين، فقال في أبي الشهداء:

«إن بني أمية ليسوا من قريش، ولا من العرب، وذلك لأن أمية لم يكن ابناً صلبياً لعبد شمس، بل كان غلاماً رومياً تبناه عبد شمس، - على سنة التبني في الجاهلية - فعرف به، وسمي أمية بن عبد شمس، ومنه تفرعت الشجرة الملعونة في القرآن».

وقد طوحت معركة ألطف في كربلاء بيزيد وآل يزيد، وقد تعصب له

قوم من المؤرخين فوقفوا إلى جنبه في قتلة الحسين، وقالوا: إن الحسين قتل بسيف جده، لأنه خرج على إمام زمانه يزيد، وقال غيرهم: إن بيعة يزيد بيعة شرعية!! فيا لله وللمسلمين، بينما وقف رعيل آخر في مجابهته وردّه وصدّه وضدّه، ومنهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. إذ قال:

«المنكرات التي أقترفها يزيد من الحسين، وحمله بنات رسول الله سبايا، وقرعة ثنايا الحسين بالعود، وإخافته أهل المدينة، وهدمه للكعبة المشرفة؛ تدل على القسوة والغلظة، والنصب، والحقد، والبغضاء، والنفاق، والخروج عن الإيمان، فالفاسق ملعون».

ومن ردّ على مناصري يزيد ومشايعيه؛ سعد الدين التفتازاني فقال: «إن رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره به، وأهانته أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما تواتر معناه، ونحن لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه؛ لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه».

ويكفينا في متابعة الأمر إلقاء الضوء على ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط».

وهذه الشهادة وحدها تطوّح صرح الظالمين من الكتّاب والمؤرخين والطواغيت الصغار الذين ما قدّروا الحسين حق قدره.

إلا أن الأوباش من بني العباس تتبعوا قبر الحسين بالحرث وإجراء الماء عليه حتى حار واستدار ولم يصل إلى القبر فسمي (الحائر الحسيني) بل حاولوا

نبش القبر الشريف فنكلّ الله بهم.

ذكر أبو الفداء: «أن لماء لما أجري على قبر الحسين عليه السلام ليمحى أثره، جاء إعرابي من بني أسد، فجعل يفتش عن القبر، ويأخذ قبضةً قبضةً من التراب ويشمّها، حتى وقع على قبر الحسين عليه السلام فبكى وقال: «بأبي أنت وأمي ما كان أطيبك وأطيب تربتك» ثم أنشأ يقول:

أرادوا ليخفوا قبره عن محبِّهِ　　　وطيب تراب القبر دلّ على القبرِ

وبقي قبر الحسين مناراً شاخصاً مدى السنين والأعصار، بعيد الأثر في القلوب، عريق الجذور في الخلود.

نشر الأديب المصري فاروق عبد القادر في مجلة (الطليعة) المصرية مقالاً بعنوان (أصوات وألوان) قال فيه:

«قبر الحسين محجة ومزار، وقبر معاوية في الصمت البارد، لا أحد يعرفه إلا إذا دلّ عليه، وتحت أقدام علي تستلقي ثروات العالم.. تاج الشاه المرصع بالدر والجوهر، وثروات الأغنياء وعلى من وقف عند منعطف الطريق أن يختار أين يكون».

وهذا حق فعشرات الملايين أمس واليوم تشكل رقماً قياسياً في زيارة الإمام الحسين في ذكرى الأربعين، والنصف من رجب، والنصف من شعبان، وليالي القدر، وليالي الجمع، وزيارة عرفة والعيدين والمناسبات الأخرى، بل لقد تطورت زيارته عليه السلام إلى زيارته سيراً على الأقدام طلباً للثواب، وقد بلغت لملايين من المشاة وتجاوزت حدّ التصور في الأعداد الهائلة لاسيما

في زيارة الأربعين المأثورة.

والحق أن ثورة الحسين عليه السلام في طف كربلاء قد نسفت الكيان الأموي نسفاً، وقضت على حكمهم قضاء مبرماً، وألحقوا بمزبلة التاريخ قذفاً ورمياً.

قال الدكتور كامل مصطفى الشيبي في كتابه (الصلة بين التصوّف والتشيّع) وهو يتحدث عن مجزرة كربلاء:

«وقد أثر قتل الحسين في النفوس تأثيراً، لكنه محاط بهالة من الأحاديث النبوية، التي ذكر منها أحمد أمين في ضحى الإسلام:

١ - ما رواه عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الحسن والحسين ريحانتاي».

٢ - ما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

٣ - ما رواه الترمذي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الحسين مني وأنا منه، أحب الله من أحب حسيناً».

وكان أولياء أهل البيت قد بذلوا الغالي والنفيس من أجل الحسين، وقاموا بزيارته زرافاتٍ ووحداناً في عصور الطواغيت حتى فرضت عليهم الضرائب المالية الضخمة، وقطعت الآلاف، وسملت العيون، عدا الحبس والتشريد والتغريب.

وفي هذا المجال يروى أنه في زمن غيبة صاحب الأمر - عجل الله فرجه - الصغرى صدرت التوقيع الرفيع من صاحب الأمر على يد أحد السفراء تتضمن النهي عن زيارة الحائر الحسيني ومقابر قريش في الكاظمية، فأمتنع الناس من زيارة الإمام الحسين عليه السلام وزيارة الكاظمين موسى والجواد عليهما السلام دون أن يعرفوا السبب في هذا النهي، وبعد شهر علموا أن الخليفة العباسي قد أمر بإلقاء القبض على كل رجل يأتي لزيارة هذين المشهدين الشريفين.

وكانت ثورة الطف قد جددت معالم الإسلام، وقد أوشك على الإندراس، كما إنها قضت على آل أبي سفيان عاجلاً، وأنتقل الحكم إلى بني مروان، ولقد وقف الحسين يوم عاشوراء ليعلن: «رضا الله ورضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، فيوفينا أجور الصابرين».

وصوّر حقيقية المجتمع ألّلا مسئول في التكالب على الدنيا، وعدم الاعتداد بدين الله فقال:

«الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديانون».

وما يروى لدى بعض المؤرخين الرسميين أن الحسين عليه السلام قد استجاب بالرضوخ للأمر الواقع بوضع يده بيد يزيد، فموضوع لا أصل له وقد أحرج سبط أبن الجوزي حينما كان يعظ على المنبر في جامع دمشق، فطلب منه بعض الحاضر من أن يذكر سيئاً من مصرع الحسين عليه السلام فقال:

ويــل لمــن شــفعاؤه خــصماؤه	والـصور في نـشر الخلائـق يـنفخ
لا بــدَّ أن تــرد القيامــة فــاطمٌ	وقميـصها بـدم الحـسين ملطـخ

ثم صار يبكي، ويجهش بالبكاء حتى نزل من المنبر.

وواجه الإحراج أن الشام أموية في عصره، وهي صاحبة القرار في قتل الحسين عليه السلام.

ولقد وصف الإمام الباقر عليه السلام ما أصاب أولياء أهل البيت من المظالم والفجائع والفظائع من قبل أيام معاوية وولاته، فقال:

«وقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكل من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد».

ولكن أولياء أهل البيت ظلوا على ولائهم صامدين، يجاهون الطغاة، ويصبرون على البلاء، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:

(إن لنا أولياء لو قطعناهم بسيوفنا إرباً إرباً لم يزدادوا لنا إلا حباً!! وإن لنا أعداء لو أطعمناهم العسل المصفى لما زادوا إلا بغضاً).

ولعل من أطرف ما يروى أنه كان لسليمان الأعمش جارٌ يرى في زيارة الحسين أنها بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فرآه يزور الحسين عليه السلام فسأله عن ذلك!! فقال ملخصاً أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وخديجة أم المؤمنين رضي الله عنه وفاطمة

بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الرؤيا، ، قلت: فأين يريدون؟ قالوا: يمضون بأجمعهم إلى زيارة المقتول ظلماً بكربلاء الشهيد بن الشهيد الحسين بن علي عليهما السلام، ثم رأيت رقاعاً تتساقط من السماء وإذا فيها أمان من الله تعالى يتساقط على زوار الحسين ليلة الجمعة.

ثم سمعت هاتفاً يقول، إنهم وشيعتهم في الدرجة العليا من الجنة، والله يا سليمان لا أفارق هذا المكان حتى تفارق روحي جسدي.

وعوداً على بدء فقد ذكر الطبرسي وابن الأثير وسواهما عن عقبة بن سمعان أنه قال:

«صحبت الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل، وسمعت جميع مخاطباته الناس إلى يوم مقتله، فو الله ما أعطاهم ما يتذاكر به الناس من انه يضع يده بيد يزيد!! ولا أن يسيروه بثغر من ثغور المسلمين».

وكيف يصح هذا الزعم المتهافت والحسين هو القائل:

«ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيئات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام».

وهكذا نجد أن هذا الإنسان الطاغي هو نفسه ذلك الضعيف الذليل الواهن، ولكنه قد يتعالى؛ فيعتقد جازما بما حوله من السلطة أو الحكم أو القوة أو الأتباع بأنه قادر قدير، وهو عاجز حتى عن إدارة نفسه، متناسياً أن

الحول والطول بيد الله تعالى، فلا حول إلا بالله ولا قوة إلا بالله فهذا الطاغوت عبد الملك بن مروان يقول: «لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه».

وقد استمرت هذه الجرأة على الله تعالى من معاوية فيما عرف عنه من القول لآثار النبي والنبوة بما يرويه عنه المغيرة بن شعبة: «هذا ابن أبي كبشة ينادي باسمه خمس مرات في اليوم. ألا طمساً طمساً، يريد بذلك محمد صلى الله عليه وآله».

وليس ذلك بغريب على معاوية الذي أبتدع في الإسلام ما لم يعرف من ذي قبل في قطع الأعناق، ومنع الأرزاق، وسمل العيون وسجن النساء، فكان مما قلّد به أربابه الطواغيت حينما هرب من جوره وظلمه عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب أمير المؤمنين عليه السلام من الكوفة إلى الموصل، فكتب معاوية إلى زياد بن أبيه أن يقبض على زوجته الصالحة (آمنة بنت رشيد) ويبعث بها إلى الشام، فدخلت الشام، وأمر بها معاوية إلى السجن، وبقيت فيه حتى قبضوا على زوجها بالموصل وطعنوه تسع طعنات، ثم قطعوا رأسه وحملوه إلى معاوية فأمر الحرسي أن يذهب به إلى زوجته في السجن ويحفظ ما تقول، فوضع الحرسي رأسه في حجرها فضمته إلى صدرها، وقالت:

«غيبتموه عني طويلاً وأهديتموه إليَّ قتيلاً، فأهلاً وسهلاً به من هدية غير قالية ولا مقلية».

وقالت للحرسي أبلغ معاوية عني ما أقول:

«أيتم الله ولدك وأوحش منك اهلك، ولا غفر لك ذنبك، وعجّل لك الويل من نقمة، وطلب منك بدمه، فلقد جئت شيئاً فرياً، وقتلت براً تقياً».

فأبلغ الحرسي كلامها لمعاوية فأحضرها وشتمها وأقذع بسبابها كأنه لم يسمع قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته».

وهذه الحكمة التي لا يعيها الظالمون والمتحكمون، تلقي بعبء المسؤولية بين طرفين هما الراعي والرعية، وكل بحسبه، فكل الناس راعٍ، بل كل المسلمين راعٍ بقدر ما يحسن ويستطيع، وهو نفسه مسئول عن شؤون هذه الرعية.

وهذا الأمر نسبي بين الناس، بل هو - صلوات الله عليه - أول من أشار إلى النسبية في الحقوق والواجبات والالتزامات.

وبذلك يتم الحفاظ على التوازن الاجتماعي والتطور الحضاري بحيث يقف كل عند حدوده، ويؤدي كل واجبه المفروض عليه، وإذا استقامت هذا الموازين بلغ المجتمع الإنساني ذروته في التحضر والتطور، وبذلك تتكافئ الفرص، ويكون الرجل المناسب في الموقع المناسب، والوصول بالأمة والحياة العامة إلى ذروة الرقي المنشود.

ولكن حكام السوء لا يفقهون ذلك، وإذا فقهوا فهم لا يعبئون به لأنهم حكام لا يقيمون للعدل وزنا، ولا لكرامة الناس اعتباراً، فحب التسلط والمال والجاه هدف مركزي، وسبيل الانفتاح والفطرية بدل الانفتاح

والتواضع هو السائد حتى اليوم في الوطن العربي والعالم الإسلامي فأين هم من تعليمات الرسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقليل أولئك الرجال المتيقظون بعد الغفلة، ممن نظروا بعقلهم إلى مجريات الأحداث فقارعوا الباطل ومالوا إلى الحق، فقد حدث التأريخ أن أبا الحتوف بن الحارث الأنصاري وأخاه سعداً، وهما من الخوارج، خرجا مع ابن سعد لقتال الحسين عليه السلام فلما كان العاشر من المحرم، وقتل أصحاب الحسين وأهل بيته، وسمعا نداء الحسين عليه السلام بطلب النصرة، قالا: إنا نقول: (لا حكم إلا لله، ولا طاعة لمن عصاه، وهذا الحسين ابن بنت نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن نرجو شفاعته يوم القيامة، فكيف نقاتله؟، وهو بهذا الحال لا ناصر له ولا معين) فمالا بسيفهما مع الحسين عليه السلام على أعدائه، وجعلا يقاتلان قريباً منه حتى قتلا جمعاً وجرحا آخرين، ثم ختم لهما بالسعادة الأبدية، فقتلا مع الحسين في مكان واحد.

وأصحاب الحسين عليه السلام هم النموذج الأرقى في مقارعة الطغيان، وحرمات الدين، فهذا أبو ثمامة الصائدي، وهو من فرسان العرب ووجوه أولياء أهل البيت عليهم السلام حينما كثر قتل أنصار الحسين عليه السلام قال للإمام: يا أبا عبد الله نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء القوم قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله، وأحب أنّ ألقى الله وقد صليت هذا الصلاة التي قد دنا وقتها خلفك، قال فرفع الحسين عليه السلام رأسه وقال: ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين نعم هذا أول وقتها.

وقد قاتل أبو ثمامة بين يدي الحسين برجولة وبسالة حتى مضى شهيداً.

أما طغاة الحكام فلا يرون ذلك إلا خروجاً عن المألوف وشذوذاً عن القاعدة، فلا يبالون بهذه القيم، ولا يعترفون بهذه المثل، وحسبك ما صنع المتوكل بقبر الحسين عليه السلام سنة ٢٣٦ هـ قال الشاعر البسامي، وهو محمد بن بسام البغدادي:

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوماً

فلقد أتاه بنو أبيه بمثلها ... هذا لعمرك قبره مهدوماً

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله.. فتتبعوه رميماً

وهكذا أقدم العباسيون على ما لم يجرأ عليه احد من سمّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام وسجن الأمام موسى بن جعفر عليه السلام وقتل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وسمّ ولده الإمام محمد الجواد والاستهانة بالإمام علي الهادي عليه السلام والتعجيل بقتل الإمام الحسن العسكري والهجوم على دار الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف وسجن نسائه إلى آخر ما عملوا.

وكان من أهم ما اقترفوه هو مجزرة (فخ) وقائدها الحسين بن علي بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين عليه السلام حتى قال الإمام محمد الجواد عليه السلام: «لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ».

وقال الإمام موسى بن جعفر عن صاحب فخ - رضوان الله عليه -: «مضى والله مسلماً صالحاً صواماً قواماً آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، ما

كان في أهل بيته مثله».

وحينما قتل شهيد فخ هو وأهل بيته وأصحابه توعد الخليفة العباسي موسى بن المهدي الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام وقال: إنه صاحب الوصية في أهل هذا البيت، فدافع أبو يوسف القاضي عن الإمام بالأيمان المغلظة حتى سكن غضب موسى الهادي وكتب علي بن يقطين بالخبر إلى الإمام الكاظم عليه السلام فجمع الإمام أهل بيته وبعض شيعته فأطلعهم على الخبر وقال: «ما تشيرون بهذا؟ فقالوا: نشير عليك أن تباعد شخصك عن هذا الجبار فإنه لا يؤمن شره وعاديته وغشمه».

فتبسم الإمام عليه السلام وتمثل:

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها   فلَيُغْلَبَنّ مغالب الغلاّب

ثم قال: أنه لا يرد أول كتاب من العراق إلا بموت موسى بن المهدي وهلاكه، ثم قال: وحرمة هذا القبر؛ مات في يومه هذا، وإنه لحق مثلما أنتم تنطقون».

ويكاد يقوم الإجماع بين المؤرخين أن المتوكل العباسي كان أشد الناس على الأئمة الطاهرين فيما صنع بالإمام علي الهادي عليه السلام بعدما صنعه بحرم سيد الشهداء.

فقد قال زرارة حاجب المتوكل:

«أراد المتوكل أن يهين علي بن محمد الهادي عليه السلام فأمر أن يمشي على قدميه في موكب حاشد بالقواد والوزراء ورجال الدولة وهم راكبون،

فقلت له: لا تفعل، فإن في هذا شناعة عليك وسوء قاله، قال: لا بد أن افعل؛ قلت: فإن كان ولا بد فأمر ان يمشي القواد والإشراف حتى لا يظن الناس أنك قصدته بهذا دون غيرك!! فأخذ بنصيحتي». فلما مشى الإمام عليه السلام وكان الوقت قائضاً شديد الحرارة، عرق عرقاً شديداً، فلقيته وأجلسته، ومسحت وجهه بمنديل، وقلت له: إن أبن عمك - ويقصد المتوكل - لم يردك بهذا دون غيرك، فلا تجد عليه في قلبك، فقال إيهاً عنك ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1]. فلما سمعت منه هذه المقالة وانصرفت منه إلى منزلي؛ حدثت بها رجلاً يعمل في بيتي وكان يتشيّع. فقال لي: أقول لك: فاسمع نصيحتي، قلت: هاتها؛ قال هيئ جميع أمورك وأخزن جميع ما تمتلك، فإن المتوكل سيموت أو يقتل بعد ثلاثة أيام، فغضبت عليه وطردته من بيتي. ثم قلت:

ما ضرني لو أخذت بالحزم، فجمعت كل أموالي وأودعتها عند من أثق بهم ففعلت ذلك، ولم أترك في بيتي شيئا يعتدّ به.

وما مضت ثلاثة أيام حتى قتل المتوكل، وسلمت أنا ومالي، فتشيعت ولزمت خدمة سيدي ومولاي علي بن محمد الهادي صلوات الله عليه.

هذه الكرامة في أيعاد الطغاة كانت نتيجة الاستخفاف بالإمام وكان المتوكل قد أستدعى الإمام علي الهادي وولده الإمام الحسن العسكري، ووضعهما في الإقامة الجبرية، وأنزلهما (خان الصعاليك) استهانة بهما، فقد

---

(١) سورة هود / ٦٥.

روي المفيد في الإرشاد عن صالح بن سعيد، قال: «دخلت على أبي الحسن الهادي يوم وروده إلى (سر من رأى) فقلت له جعلت فداك؛ في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع «خان الصعاليك» فقال الإمام:

«هاهنا أنت يا ابن سعيد؟» ثم أومأ بيده، فإذا بروضات أنيقات، وأنهار جاريات وجنات فيها خيرات عطرات، وولدان كأنهم اللؤلؤ المكنون فحار بصري وكثر تعجبي، فقال لي: «حيث كنا فهذا لنا يا ابن سعيد، لسنا في خان الصعاليك».

ولا عجب في هذا فإن الله تعالى إذا أراد كبت الطواغيت أجرى على يدي أوليائه كرامته الإلهية وليس هذا بأعجب مما جرى لـ (يوسف النقاش) وهو رجل من أهل الصنائع، وكان مجاوراً لبيت الإمام علي الهادي عليه السلام في سامراء ويحضر مجلسه؛ فجاءه يوماً يرتعد من الخوف، وقال: يا سيدي، أوصيك بأهلي خيراً، فقال له الإمام: ما الخبر؟ قال: بعث إليّ موسى بن بغا - أحد رجال المتوكل - بفصّ لأنقشه، فأنكسر بيدي نصفين، وموعده غداً، فإذا جاء وعلم ذلك فسوف يقتلني أو يضربني ألف سوط، فقال الإمام: «أمضِ إلى منزلك إلى غد فما يكون إلا خيراً».

وفي الغد جاء رسول موسى يلتمس الفصَّ فأقبل على الإمام خائفاً وقال: قد جاءني رسوله فماذا أقول له؟ قال: امضِ إليه فما ترى إلا خيراً، فمضى يونس ثم عاد ضاحكاً وهو يقول: يا سيدي قال لي: إن جاريتين لي

اختصمتا على هذا الفصّ، فهل تقدر على أن تجعله نصفين متساويتين، وأنا أكافئك مكافأة تغنيك؟. فسر الإمام عليه السلام وحمد الله على ذلك، وقال له: «وأي شيءٍ قلت له؟» قال: قلت له أمهلني حتى أتأمل أمره وأنظر كيف أصنع في ذلك!!.

وكان من طغيان المتوكل ما جرى لأبن السكيت يعقوب بن إسحاق على يديه، وكان ابن السكيت مؤدباً لأبني المتوكل، فقال له المتوكل: أيهما أحب إلّيك أبناي هذان - يعني المعتز والمؤيد - أم الحسن والحسين؟ فاستشاط أبن السكيت غضباً، وقال له: والله إن قنبراً خادم علي بن أبي طالب عليه السلام خير منك ومن أبنيك؟ فقال المتوكل للأتراك سلوا لسانه من قفاه!! ففعلوا ذلك، فمات في الخامس من رجب عام ٢٤٤هـ.

وكان الرشيد من الطواغيت الكبار، وقد سجن الإمام موسى بن جعفر سنين متطاولة، فكتب إليه الإمام من السجن: «إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء، إلا أنقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نفضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء».

وفي تحذير الطغاة وإنذار الظلمة، آثار من المأثور، وسيل من الروايات، فيها التشديد الصارم، وبها الكناية التي هي أبلغ من التصريح.

وهناك حدثان فعليان من آلاف الأحداث أوردهما:

الأول: عن الإمام الصادق عليه السلام وقد أراد به إكبات المنصور، وإذلال تعاليه، والغض من شأنه وجبروته، فقد روي أن الإمام دخل عليه،

والمنصور يذب الذباب عن وجهه مرة بعد أخرى فقال للإمام: يا أبا عبد الله لأي شيء خلق الله الذباب؟ فقال عليه السلام: «ليذل به الجبارين» فأفحم المنصور.

الثاني: يتظاهر الطغاة بين حين آخر بالتماس العظة والبحث عن الخلاص، وليسوا من هذا في شيء ولكنه الرياء الظاهر والنفاق المغلّف، وليس هذا مما يخدع الناس عنهم أو يقربهم منهم، فتلك محاولات يائسة مفضوحة لا تخفى إلا على الأغرار والاغمار، وهذا النوع من التوجه من مراءاة الناس من الاجتراء المكشوف على سنن الدنيا والدين ونماذجه كثيرة تكاد لا تحصى، ومن أبرزها استدعاء هرون الرشيد لسفيان الثوري عدة مرات لموعظته وليس الأمر كذلك ولكنه هدف مزدوج في آن واحد، ويتمثل هذا الهدف بطلب الموعظة ونشدان الاعتبار من وجه كاذب، وخلق قيادات رسمية تقف ضدّ تيار أهل البيت في استقطاب الأمة. ومن قبله كان هشام بن عبد الملك يتظاهر بذلك، فقد أرسل على طاووس اليماني، وقال له: عظني، فقال طاووس: «سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول:

«إن في جهنم حيات كالتلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته»».

فهل نفع هذا النذير؟.

ومن الطواغيت الصغار عمر بن الفرج الرخجي والي العباسيين على المدينة أيام المعتصم وقد ضيق على بني هاشم وعلى الفواطم، فنكّل بكل من

يبرّ بهم، أو يساعد عائلهم أو يعطف على فقيرهم حتى تحاشى الناس أهل البيت جراء ذلك وقد أرضى بعمله هذا العباسيين فآثروه على غيره وقدّموه على من سواه وأستدعي في بغداد وعاد في منصب الوزراء من الكتّاب، أو الكتّاب من الوزراء، والصحيح انه كان مدير البلاط العباسي، وقد أراد هذا الطاغية الصغير إن يحرج الإمام الجواد عليه السلام فقال له: إن شيعتك تزعم أنك تعلم مثاقيل وزن ماء دجلة - وكان على شاطئ دجلة - فقال الإمام الجواد عليه السلام: يقدر الله تعالى أن يفوض علم ذلك إلى بعوضة من خلقه أم لا؟ فقال عمر بن الفرج: نعم يقدر. فقال الإمام الجواد عليه السلام: «أنا أكرم على الله من بعوضة ومن أكثر خلقه».

وحديث الطغاة لا يكاد ينتهي مع هؤلاء الحاكمين باسم الإسلام وهم لا يعرفون من الإسلام إلا أسمه بل ويكيدون له، لأنه يحد من غلوائهم، ويحجم من صلاحياتهم، لقد وقفوا في وجه الرسالة المحمدية، وانتجعوا في الحياة الرافهة باسم الإسلام، وانتقموا من صاحب الرسالة بالانقضاض على أهله وذويه، وملاحقة أتباعهم تحت كل حجر ومدر، وهكذا شآن الطواغيت.

قال ابن خلكان: قال الشيخ نصر الله بن مجلي، وكان من ثقات أهل السنة: رأيت في المنام علي بن أبي طالب عليه السلام فقلت له: يا أمير المؤمنين تفتحون مكة وتقولون من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثم يتم على ولدك الحسين عليه السلام يوم الطف ما تمّ؟ فقال: أما سمعت أبيات ابن الصيفي (حيص بيص) في هذا؟ فقلت: لا، فقال: أسمعها منه ثم استيقظت!!

فبادرت إلى دار حيص بيص فخرج إليّ، فذكرت الرؤيا فشهق وأجهش بالبكاء، وحلف بالله إن كانت خرجت من فمي أو خطي إلى أحد، وإن كنت نظمتها في ليلتي هذه وأنشدني:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... ولما ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحللتم قتل الأسارى.. وطالما ... غدونا عن الأسرى نكف ونصفحُ
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضحُ

وهكذا كان فأهل البيت يصفحون والطغاة يتجبرون.

والرؤيا هذه تتعلق بمصرع سيد الشهداء، وما فعلوه من الآثام في سفك دمه، وانتهاك حرمته، وكان سليمان بن قتّه قد مرّ بمصارع شهداء كربلاء فكان أول من رثى الإمام الحسين بقوله:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلّت
وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاباً من قريش فذلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم بزعمي تخلت

ولكن الحسين عليه السلام قد زلزل كيان الطغاة وهدّ عروشهم، وهو الباقي مخلداً مدى الأجيال وهم القابعون وراء الظلمات:

يبقى الحسين مناراً يستضاء به ... وإن تجبر فرعونٌ وهامانُ

روى ابن قولويه في كامل الزيارات عن محمد بن مسلم قال:

قال الإمام الباقر عليه السلام: «مروا شيعتنا بزيارة قبر الحسين عليه السلام فإن إتيانه يزيد في الرزق ويمدّ في العمر، ويدفع مدافع السوء، وإتيانه مفترض على كل مؤمن يقرّ للحسين بالإمامة من الله.

«ظواهر الابتلاء وعوائد العافية»

ظواهر الابتلاء في الحياة الدنيا متعددة الجوانب، وكثيرة الأسباب، وقد جعل الله تعالى في قبال البلاء والابتلاء النعم والعافية، وقد أوضح القرآن العظيم حياة الابتلاء بقوله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾[1].

وذلك للاختبار والامتحان ومعرفة المجاهد الصابر من الجازع لا الشاكر، وذلك لكشف ما عليه الإنسان من حسن العمل وجميل الصبر، حتى عدّ تعالى خلق الموت والحياة نوعاً من الابتلاء العظيم في إستيحاء العمل الصالح، قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[2].

في الآية إيحاء صريح بعد الاختبار أن الله عزّ وغفر لمن كان أهلاً للعفو والمغفرة. فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

---

(١) سورة محمد /٣١.

(٢) سورة الملك / ٢.

«كلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل، ألا ترون أن الله سبحانه أختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، لا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً...

ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد،و يتعبهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، أخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكانا للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، أسباباً ذللاً لعفوه»(١). قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(٢).

وأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام هو السباق إلى فلسفة القرآن، وبيان ما فيه من الإفاضات العظمى في الموازنة بين البلاء والمعافاة، والعناء والرخاء، للامتحان في سلامة الأداء من أحسن الأعمال، مرتباً على ذلك الثواب لمن يختار الامتحان والعقاب جزاء لمن أخفق فيه والعياذ بالله.

قال عليه السلام: «ألا إن الله تعالى قد كشف الخلق كشفة لا أنه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً فيكون الثواب جزاءاً والعقاب بواءً»(٣).

ولذا فقد صرّح أمير المؤمنين أن على المؤمن أن يثبت لما قدّرة الله تعالى،

---

(١) نهج البلاغة، للإمام علي عليه السلام / الخطبة / ١٩٢.

(٢) سورة الأنبياء / ١١١.

(٣) نهج البلاغة، للإمام علي عليه السلام / الخطبة رقم ١٤٤.

فلا يفرح بالغناء مثلاً، ولا يغتم بالفقر كذلك بل يكل الأمور إلى الله تعالى، فإنما هو الذهب الذي يجرب بالنار.

قال عليه السلام: «لا تفرح بالغناء والرخاء ولا تغتم بالفقر والبلاء فإن الذهب يجرب بالنار، والمؤمن يجرب بالبلاء»[١].

وقد خص المؤمن بالبلاء لتمحيص ذنوبه حتى يغدو على ربه سبحانه وتعالى مطهراً من الذنوب كيوم ولدته أمه. ولقد خصه أمير المؤمنين بالقول: «إن البلاء أسرع إلى المؤمن النقي من المطر إلى قرار الأرض»[٢].

و لقد سار الأئمة من أهل البيت في ضوء هداه،و أفرغوا عن حكمه ومواعظه نفسها،فالأمام الباقر عليه السلام يقول:

«إن المؤمن يبتلى بكل بليه، ويموت بكل موته، إلا أنه لا يقتل نفسه»[٣].

و تبعه الإمام جعفر الصادق عليه السلام فيروى أنه قال: «إن أشد الناس ابتلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل»[٤].

وقد أبان الإمام زين العابدين عليه السلام أنه يكره معافاة الرجل في الدنيا دون المصائب تحل فيها، فيروى أنه قال:

---

(١) غرر الحكم / الحديث رقم ١٠٣٩٤.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٦٧/٢٢٢.

(٣) الكليني / الكافي: ٢/ ٢٥٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢/٢٥٢.

«إني لأكره أن يعافى الرجل في الدنيا ولا يصيبه شيء من المصائب»[١].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إن الله عز وجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة، ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض»[٢].

وقد أفاد سيدنا ومولانا الإمام الكاظم عليه السلام بالقول:

«لن تكونوا مؤمنين حتى تعدوا البلاء نعمة، والرخاء مصيبة، وذلك أن الصبر عند البلاء أعظم من الغفلة عند الرخاء»[٣].

وقد قارن أمير المؤمنين عليه السلام بين ما يناله المرء من النعمة، وما يفارقه من نقمة أخرى، وكذلك الحال في أجله، فقال: «لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله».

لك الله يا أمير المؤمنين؛ ما أروع هذه الحكمة، وما أصدق معطياتها، وما ابعد أثرها، فبها عبرة لكل معتبر، وجذوة لكل مقتبس، وهي تتحدث عن جانبين:

الأول: يعنى بتجدد النعم وزوال أخرى، إذ لا تتم الدنيا على الإطلاق فما أن يستقبل العبد نعمة، ونعم الله كثيرة ومتواترة حتى يفارق نعمة أخرى، وفي ذلك دلالة أخرى أن الحياة الدنيا لا تبقى على حال فالبقاء على الحال من

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار: ٨١/١٧٦.

(٢) الكليني / الكافي: ٢/ ٢٥٥.

(٣) جامع الأخبار: ٣١٣.

المحال، وذلك أمر مطّرد في حياتنا العامة وحياتنا الخاصة.

الجانب الثاني: يرتفع في نظري القاصر إلى مستوى عميق الأثر، فعمر الإنسان أيام معدودة، فما أن يستقبل يوماً من حياته إلا بفراق يوماً من أجله، والإنسان بعادته مجبول أن ينتظر الأيام القادمة، ويتطلع إلى الحياة المستقبلية، ولا يأتي عليه يوم إلا فكر في يوم آخر ذي منفعة أو عدة أو مصلحة، وبهذا تتجلى الكارثة لأننا في مثل هذا المناخ إنما ننتظر آجالنا، ونستعجل انقضاء أعمارنا، ونستدعي تصدّر أيامنا.. وهكذا الدهر يبلى الجديد ويقرب البعيد، حتى نطل على ذلك اليوم الذي لا انقضاء له.

وورد عن الإمام الحسن العسكري أنه قال:

«ما من بلية إلا ولله فيها نعمة تحيط بها»[1].

وهذا الحديث من غرر الكلام إذ جعل الله عز وجل ضمن كل بلية ظاهره نعمة باطنة تحيط بتلك البلية تحننا ورحمة من الله، ولقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة... إلا حطّ الله بها من خطاياه»[2].

وهنالك من الوعد الحسن على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار: ٨/ ٣٧٤.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٢٩.

«إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر، أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة».

وقد ترجم الإمام جعفر الصادق عليه السلام هذا الوجه من الابتلاء وأثره عندما يذنب العبد ويرتكب المعاصي وذلك انه يتبع النعمة نقمة إذا أراد به الخير، فإذا أذنب تبعه بنقمة وإذا أراد به الشر تبعه بنعمة استدراجاً، يروي أنه عليه السلام قال:

«إذا أراد الله بعبد خيراً فأذنب ذنباً تبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد الله عز وجل بعبد شراً فأذنب ذنباً تبعه بنعمة ينسيه الاستغفار ويتمادى به وهو قول الله عز وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]، بالنعم عند المعاصي»[2].

وعن الإمام محمد الباقر انه قال: «أن الله تبارك وتعالى إذا كان أمره أن يكرم عبداً وله عنده ذنب أبتلاه بالسقم فإن لم يفعل فبالحاجة، فإن لم يفعل شدد عليه عند الموت، وإذا كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة أصحّ بدنه، فإن لم يفعل وسع عليه في معيشته، فإن لم يفعل هوّن عليه الموت»[3].

وقد صرّح الإمام جعفر الصادق عليه السلام بهذه الحقيقة، وإن البلاء موكلُ بالمؤمن، وأن المؤمن مبتلى وأنه يغتّ بالبلاء غتّاً.. فيروى أنه قال

(١) سورة الأعراف / ١٨٢.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٢٩

(٣) أعلام الدين / ٤٣٣.

وعنده غدير الصيرفي: «إن الله إذا أحب عبداً غته بالبلاء غتاً، وإنّا وإيّاكم يا سدير لنصبح به ونمسي»[١].

وكرر الإمام الصادق عليه السلام بما يروى أنه قال:

«إذا أحب الله قوماً، أو أحب عبداً صبَّ عليه البلاء صبّاً، فلا يخرج من غم إلا وقع في غم»[٢].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد عدّ المحنة والابتلاء تمحيصاً لذنوب أوليائه في الدنيا، لتسلم الطاعات، ويستحقوا الثواب، فيروى انه قال: «الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمحنتهم لتسلم بها طاعتهم، ويستحقوا عليها ثوابها»[٣].

وقد بشر أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب الابتلاء والعقوبة في الدنيا بنجاتهم من العقاب يوم القيامة فيروى أنه قال:

«ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلا كان الله أعلم وأمجد وأجود وأكرم من أن يعود في عقابه يوم القيامة»[٤].

وللإمام محمد الباقر عليه السلام في مقام ابتلاء المؤمن عدة أحاديث تمثل درجة عالية في إضافة الإيمان للإيمان وزيادة ذلك بحسب إيمان المرء فروي

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/ ٢٥٣.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٨٢/ ١٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ٦٧/ ٢٣٢.

(٤) المصدر نفسه: ٨١/ ١٧٩.

أنه قال: «كلما أزداد العبد إيماناً أزداد ضيقاً في معيشته»[١].

وقوله ـ عليه السلام ـ: «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب علي عليه السلام (إنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صح دينه وحسن عمله أشتدّ بلاؤه، وذلك إن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن، ولا عقوبة لكافر، ومن سخُف دينه، وضعف عمله قلّ بلاؤه)[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في بيان منزلة العبد المبتلى عند الله تعالى في حديثين من أقواله:

١ ـ «أنه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلا بإحدى خصلتين: أما بذهاب ماله أو ببلية في جسده»[٤].

٢ ـ «إن في الجنة منزلة لا يبلغها عبدٌ إلا بالابتلاء في جسده»[٥].

وفي رواية للإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «فيما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام، ما خلقت خلقاً أحب إليّ من عبدي المؤمن، فإني إنما تبليته لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي، وليرض

---

(١) جامع الأخبار: ٣١٤.

(٢) الكليني / الكافي: ٢/٢٥٣.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٦٧/٢٢٢.

(٤) الكليني / الكافي: ٢/٢٥٧.

(٥) المجلسي / بحار الأنوار: ٦٧/٢١٢.

بقضائي، أكتبه في الصديقين عندي»[1].

ومن أطرف ما روي عن الإمام الصادق - عليه السلام - أنه قال، وفي قوله فصل المقال: «إذا أضيف البلاء من البلاء كان من البلاء عافية»[2].

❊ ❊ ❊

وفي قبال الابتلاء والبلاء.. العافية من البلاء والشكر على العافية، والعافية في الدين والدنيا، ومن فتح الله عليه باب العافية فقد أغناه، وللإمام علي عليه السلام عدة حكم قصار في هذا السياق، منها «لا لباس أجمل من العافية»[3].

وقوله عليه السلام: «بالعافية توجد لذة الحياة»[4].

وقوله عليه السلام: «العافية أهنئ النعم»[5].

ومن بليغ الأقوال وجميل الحكم، وعظيم العبر، وما روي عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «العافية نعمة خفية، إذا وجدت نسيت، وإذا فقدت ذكرت»[6].

ومن بركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة عليه أن يقول

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار: ٢٣١/٧٢.

(٢) تحف العقول / ٣٥٧.

(٣) الصدوق / التوحيد: ٧٤.

(٤) غرر الحكم، رقم الحديث ٤٢٠٧.

(٥) المصدر نفسه، رقم الحديث ٩٧٣.

(٦) الصدوق / من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٤٠٦.

رسول الله: «من صلّى عليّ مرة فتح الله عليه باباً من العافية»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام في تقسيم العافية ما يسير مثله من الركبان، فقد روي أنه قال: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت إلا بذكر الله، وواحد في ترك مجالسة السفهاء»[٢].

وقد قرن الإمام الصادق عليه السلام بين طول العافية والتقوى فقال: «من سرّه طول العافية فليلتق الله»[٣].

وينبغي للإنسان أن يطلب من الله العافية، كما يطلب منه العفو، والإلحاح في الطلب مذموم إلا من الله عز وجل، وإذا كان الإنسان في شدة من البلاء فليصبر وليسأل الله المعافاة من ذلك.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد سمع رجل يسأل الله الصبر!! فقال: «سألت الله البلاء، فأساله المعافاة»[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «سلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحداً بعد اليقين خيراً من المعافاة»[٥].

وهذه خاصية بالمعافاة لا يدانيها أمر إذ جاءت بعد اليقين، واليقين هو الفضل الأكبر من الله، والنعمة التي تطل بصاحبها على ما وعده الله من

---

(١) جامع الأخبار: ١٥٣.

(٢) تحف العقول: ٨٩.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٢/ ٢٣٢.

(٤) ابن ماجة / السنن: ٢/ ١٢٦٥.

(٥) الدعوات: ١١٤/ ٢٦٢.

الرضوان، والفوز بالجنة والنعيم الأبدي.

وقد يوقع الجهل بالسنن في متاهات يحسبها الإنسان مرضيّة عند الله، ولا يقيسها بنظائر رضا الله فيما يطلب منه بالدعاء فقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل على مريض قال: ما شأنك؟ قال: صليت بنا صلاة المغرب فقرأت القارعة!! فقلت: اللهم إن كان لي عندك ذنب تريد أن تعذبني به في الآخرة فعجّل ذلك في الدنيا، فصرت كما ترى!!.

فقال صلوات الله عليه: «بئسما قلت، ألا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟ فدعا له حتى أفاق»[1].

وعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«ما سئل الله شيئاً أحبّ إليه من أن يسأل العافية»[2].

وقد ذكر أن الإمام زين العابدين عليه السلام ضرب على كتف رجل يطوف بالكعبة ويقول: اللهم إني أسألك الصبر!!.

قال الإمام عليه السلام: سألت البلاء، قلْ.

«اللهم إني أسألك العافية، والشكر على العافية»[3].

وهناك حديث عجيب الدلالة، أنيق العبارة، جليل العائدية، يتمناه كل عبد، فقد روي أن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «إن لله عز وجل

---

(١) المتقي الهندي / كنز العمال: ٣١٣٠.

(٢) الدعوات: ١١٤ / ٢٦١.

(٣) الكليني / الكافي: ٢/٤٦٢.

ضنائن يضن بهم عن البلاء فيحيهم في عافية ويرزقهم في عافية ويميتهم في عافية ويبعثهم في عافية، ويسكنهم الجنة في عافية»[١].

ونختم هذا الباب بالدعاء العظيم الذي يروى أن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام قد فاه به:

«اللهم إني أسألك العافية وأسألك جميل العافية، وأسألك شكر العافية، وأسألك شكر شكر العافية»[٢].

❊ ❊ ❊

وإنما يستجار من البلاء، وسؤال العافية لدفع غائلة الهموم والغموم من جهة، وللشفاء من الأمراض والأعراض من جهة أخرى، فمن الآفات التي تمر على الإنسان تلك الهموم التي تنتابه والغموم التي تؤرق جفنه، وتكدر حياته، فتجعل نهاره ليلاً، وليله آلاماً، لهذا ورد في الدعاء: «واجعلني من طوارق الهموم والغموم في حصنك».

والدافع لتلك الهموم والغموم الإكثار من قول: ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٣] وذلك استناداً لما اقتصه الله سبحانه من نبأ يونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ

(١) الكليني / الكافي: ٢/ ٤٦٢.

(٢) الدعوات ٢٦١.

(٣) سورة الأنبياء / ٨٧.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

وهذا الغم ومثله الهم مما يؤثر على الصحة العامة بدنياً ونفسياً وهما من مشكلات العصر القائمة وإفرازاته المضنية لما تحمل حياتنا من المآسي والكوارث والابتلاءات فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من كثر همه سقم بدنه» وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الهم نصف الهرم» وهذا القول على جانبٍ أصيل من الأهمية، فذو الهموم قد يطوي صفحة الشباب إلى الكهولة، وصفحة الكهولة إلى الشيخوخة، وصفحة الشيخوخة إلى الهرم، وكون الهمّ نصف الهرم تعبير عن انقضاضه علة نضارة الإنسان وشبابه.

وقد ورد عن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال:

«كثرة الهم تورث الهرم».

وهذه الإفاضة منه سلام الله عليه تحرير لقول جدّه أمير المؤمنين السابق، أعاذ الله المؤمنين من كثرة الهموم.

وأما الأمراض فهي من البلاء الذي يخفّف به الخطايا وتتلاشى به الذنوب بفضل الله تعالى، فقد ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (المريض تُحات خطاياه كما يتحات ورق الشجر)[2].

---

(١) سورة الأنبياء / ٨٧ – ٨٨.

(٢) الترغيب والترهيب: ٤/ ٢٩٢.

وعنه - صلى الله عليه وآله -: «لا يمرض مؤمن ولا مؤمنة، ولا مسلم ولا مسلمة، إلا حطّ الله به خطيئته»(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام أو ولده الإمام الصادق عليه السلام: «سهر ليلة من مرض أو وجع أفضل وأعظم أجراً من عبادة سنة»(٢).

وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «إذا مرض المؤمن أوحى الله عز وجل إلى صاحب الشمال لا تكتب».

وري عن رسول الله أنه قال:

«قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبادي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم أستقبل ذلك (بـ) جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً».

وذلك لأن الله تعالى رءوف بالعباد وهو أشفق على المرء من الوالد على ولده، فإذا ما أبتلى عبداً من عباده بمصيبة ما، ومصائب الدنيا كثيرة: في البدن وفي المال وفي الولد وفي الجاه وفي المنزلة وسوى ذلك فالله تعالى بلطفه العميم يعوضه تعويضاً عظيماً فلا ينصب له ميزاناً، ولا ينشر له ديواناً للمسائلة.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عاد سلمان الفارسي في مرض فقال له:

«إن في مرضك هذا ثلاث خصال: الأولى ذكر الله إياك، والثانية يكفر

---

(١) المصدر نفسه: ٤/ ٢٩٢.

(٢) الكليني / الكافي: ٣/ ١١٤.

الله عنك خطاياك، والثالثة تستجاب دعوتك، فأدع الله تشفَ وتعاف».

وذلك إن المرض من منغصات العيش، ومكاره الدهر، وهو ظل كثيف الكرب على النفس، وثقيل الوطأة على القلب، يمتلك الضجر فيه الإنسان، وتنتابه الآلام، فيجزع من لأواء هذا الداء بما أفاضه على سلمان، وهو غير خاص به، بل هو لجميع المسلمين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد روي أن الإمام جعفر الصادق قد قال:

«العافية نعمة خفيه، إذا وجدت نسيت، وإذا فقدت ذكرت»

وقد وردت الوصايا بكتمان المرض وعدم الشكوى فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«قال الله عز وجل من مرض ثلاثاً فلم يشك إلى أحد من عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، فإن عافيته عافيته ولا ذنب له، وإن قبضته قبضته إلى رحمتي»[1].

وعدم الشكوى من المرض رياضة نفسية، إذ جبل الإنسان على بث ما يجد، وكشف ما يشعر به ويحس، أما إذا كتم ذلك، فقد بلغ مرتبة البر والإنابة، وقد عبّر عن ذلك رسول الله بما يروى أنه قال: «من كنوز البر: كتمان المصائب، والمرض، والصدقة»[2].

وناحية أخرى نبه عليها أمير المؤمنين عليه السلام: إن كتمان الوجع

---

(١) الترغيب والترهيب: ٤/٢٩٢.

(٢) الكليني / الكافي: ٣/١١٤.

وعدم الشكاية منه إلا لله تعالى توجب من الله شفاءه، فقد روي عنه أنه قال: «من كتم وجعه ثلاثة أيام من الناس وشكا إلى الله؛ كان حقاً على الله أن يعافيه منه»[١].

والكتمان محمود ومندوب إليه إلاّ عن الأطباء، فهم أولى الناس بعرفان الداء لوصف الدواء، وتشخيص العلة، وليس ذلك من قبيل الشكوى، وإنما هو من قبيل العرض الضروري لأهل التخصص بغية الشفاء، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«من كتم الأطباء مرضه خان بدنه»[٢].

والتعبير عن كتمان الأطباء المرض بأنه خيانة للبدن من أرقى من التعبيرات الموحية بصنف جديد من أصناف الخيانة.

وعنه علية السلام أنة قال: (من كتم مكنون دائه عجز طبيبه عن شفائه)[٣].

وقد يعبر عن السلامة من الإمراض بالداء، وذلك إن من طبيعة الجسم الإنساني أن يمرض، وإن من آلاء الله الخفية على المرء إن يمرض لما أعد له من منزلة خاصة بأهل الزمنى والأمراض. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كفى بالسلامة داءً»[٤].

---

(١) الكليني / الكافي: ٣/١١٥.

(٢) الصدوق / الخصال: ١٦٧.

(٣) المصدر نفسه / ٦٣٠.

(٤) غرر الحكم / ٨٥٤٥.

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«الجسد إذا لم يمرض أشر ولا خير في جسد يأشر»[١].

وتستحب عيادة المريض، ففيها العظة والاعتبار من وجه والأجر الزلفى من وجه آخر، والنظر في المصير سواهما، وقد ورد عن رسول الله عدة أحاديث توحي باستحباب عيادة المريض، وإن تركها يدعو إلى التأنيب، أو الشعور بالتقصير عن أمر مستحسن، فعن رسول الله أنه قال:

«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة، يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب؛ كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده»[٢].

وتلك مأثرة ما بعدها مأثرة أن يكون ربّ العزة في عيادة عبده المؤمن في صورة نجهلها ولا ندرك كنهها.

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«عائد المريض يخوض في الرحمة»[٣].

وعنه أيضا: «عودوا المريض، وأتبعوا الجنازة، يذكركم الآخرة»[٤].

وفي سياق الأجر الكريم الذي يحصل عليه عائد المريض وأعداد الملائكة

---

(١) غرر الحكم / ٨٦١٢.

(٢) الترغيب والترهيب: ٤/ ٣١٧.

(٣) المتقي الهندي / كنز العمال: ٢٥١٤١.

(٤) المتقي الهندي / كنز العمال: ٢٥١٤٣.

المستغفرين له، ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (من عاد مريضاً شيعه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يرجع إلى منزله)[١].

ولعيادة المريض آدابها وسننها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«خير العيادة أخفها»[٢].

وعن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أنه قال: «إن من أعظم العواد أجراً عند الله عز وجل لمن إذا عاد أخاه خفف الجلوس إلا أن يكون المريض يحبّ ذلك ويريده ويسأله ذلك»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في آداب العيادة أنه قال: «من تمام العيادة للمريض أن تضع يدك على ذراعه، وتعجل القيام من عنده، فإن عيادة النوكى[٤]، أشد على المريض من وجعه»[٥].

وروي عن مولىً للإمام جعفر محمد الصادق عليه السلام قال:

«مرض بعض مواليه فخرجنا إليه نعوده، ونحن عدة موالي جعفر!! فاستقبلنا جعفر عليه السلام في بعض الطريق، فقال لنا: أين تريدون؟ فقلنا نريد فلاناً نعوده، فقال لنا قفوا، فوقفنا، فقال:

---

(١) الكليني / الكافي: ٣/١٢٠.

(٢) المتقي الهندي / كنز العمال: ٢٥١٣٩.

(٣) الكليني / الكافي: ٣/١١٨.

(٤) النوكى هم الحمقى.

(٥) الكليني / الكافي: ٣/١١٨.

مع أحدكم تفاحة أو سفرجلة، أو أترجّه، أو لعقة من طيب، أو قطعة من عود بخور؟» فقلنا ما معنا شيء من هذا!!.فقال: «أما تعلمون أن المريض يستريح إلى كل ما أدخل عليه»[١].

وما قرّره الإمام الصادق عليه السلام، استراح له أغلب الناس، وجرت العادة به في عيادة المريض من حمل الفاكهة وسواها إلى المريض.

ولعل من المفيد حقاً أن نختتم هذا الباب ببليغ من القول روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قاله: «عجيب لمن ابتلي بخمس كيف يغفل عن خمس:

عجيب لمن أبتلي بالضر! كيف يذهب عنه أن يقول ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. والله يقول ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾[٢].

وعجيب لمن أبتلي بالغم كيف يذهب عنه أن يقول:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]، والله تعالى يقول:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

وعجبت لمن خاف شيئاً؛ كيف يذهب عنه أن يقول:

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[٥]، والله تعالى يقول:

---

(١) الكليني / الكافي: ٣/١١٨.

(٢) سورة الأنبياء / ٨٤.

(٣) سورة الأنبياء / ٨٧.

(٤) سورة الأنبياء / ٨٨.

(٥) سورة آل عمران / ١٧٣.

﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ ﴾[(١)].

وعجبت لمن مكر به كيف يذهب عنه أن يقول:

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾[(٢)]. والله تعالى يقول:

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾[(٣)].

وعجبت لمن أنعم الله عليه بنعمة خاف زوالها كيف يذهب.

عنه أنه يقول: ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾[(٤)].

والله تعالى يقول: ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴾[(٥)].

والحق أن هذا الباب في اتساع وسيرورة، حاولت أن أقتطف من ثماره ما قدمناه، وإن أختار من أحاديثه ما قد أوردناه، وفيه الغنية بتمامها لمن أراد الإفادة، أما من أراد الاستزادة فعليه بكتب الحديث الشريف، ومرويات أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) سورة آل عمران / ١٧٤.

(٢) سورة غافر / ٤٤.

(٣) سورة غافر / ٤٥.

(٤) سورة الكهف / ٣٩.

(٥) سورة الكهف / ٣٩.

مكاره الدهر وانتظار الفرج

في الحياة شدائد ومكاره، وفي المسيرة الإنسانية ابتلاءات ومصائب، ولا يكافح ذلك ويخفف من غلوانه إلا انتظار الفرج من الله تعالى، والاتكال عليه في الشدة والرخاء، والتسليم للأمر الواقع، والصبر على ذلك.

وانتظار الفرج على نحويين:

الأول: انتظار الفرج في الخلاص من الرزايا والمحن والخطوب، وعوادي الزمن، ومشكلات الحياة.

الثاني: انتظار فرج آل محمد صلوات الله عليه، وهو يعني انتظار ظهور الحجة المهدي عجل الله فرجه.

وفي هذا المنظور سيتحدث البحث عن القسمين في الموضوع على سبيل الإشارة الموحية والنموذج الهادف تذكيراً للمؤمن، وتطميناً للنفوس من الجزع واجترار الغصص، وذلك في ضوء التوجه عند أهل البيت عليهم السلام في

الخلاص وضمان الاستقرار النسبي في الحياة عسى أن يجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد الشدة فرجاً، ويفرغ علينا صبراً انه نعم المولى ونعم النصير.

أولاً: وليس الصبر على الشدائد بألا مر الهين ولا بالشيء المتوافر عند كثير من الناس لأنه صعب مستصعب، وقد يكون الإنسان شاكراً ذاكراً على كل حال، ولكنه لا يكون صابراً إلا لماماً، لهذا يأتي توجيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين أطروحة لمعالجة هذا الفرز من حياة الإنسان. وقد أشارت الروايات لهذه المهمة حيث بدأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقول المأثور أفضل عبادة أمتي انتظارها فرج الله تعالى».

فجعل هذا الانتظار من أفضل فصائل العبادة المتعددة الأطراف، وقد أردف ذلك بما روي عنه أنه قال:

«عند تناهي الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء» وهي حكمة سائرة نشاهدها عياناً ونلمسها تطبيقاً عملياً.

وفي ظلال هذا الفهم النيّر نجده صلوات الله عليه مبشراً، ومتفائلاً ومعلماً بقوله:

«لو كان العسر في حجر، لدخل عليه اليسر حتى يخرجه». ولولا هذا الأمل المشرق لكانت الحياة جحيماً لا يطاق. وقد أفاد الشاعر من هذا الملحظ فقال:

إذا ابتليت فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأسن.. فإن الصانع هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... فما ترى حيلة فيما قضى الله

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«ثلاث من رزقهن فقد رزق خيري الدنيا والآخرة: الرضاء بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء». ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلم الإنسانية جمعاء، وقد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وأراد لأمته إن تكون المثل الأعلى لمكارم العادات، والقدوة المثلى في إلزام النفس بمعاني الأمور وأثباجها، فقال» بالصبر يتوقع الفرج».

وهذه هي سنة الكون، وطبيعة الحياة: شدة ورخاء، وعافية وبلاء، وشفاء وسعادة، ونعيم وجحيم، والى جانب ذلك الرجاء وتوقع دفع البلاء، وبلطف من الله تعالى الرءوف الرحيم، وهو بعباده خبير بصير، فعند تناهي حلقات الشدائد في كظتها وغصتها، تتدخل رحمة الواسعة، وتنفصم تلك الحلقات، فتكشف الكروب، وتتلاشى المصائب.

وهناك ملحظ جدير بالأهمية، إن يجعل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مقياس المؤمن الفذّ، والعبد الصالح عدّة البلاء نعمة، والرخاء محنة، ويعلل ذلك تعليل الحكماء فيقول صلوات الله عليه «لا يكون العبد مؤمنا حتى يعد البلاء نعمه، والرخاء محنة، لان بلاء الدنيا نعمة في الآخرة، ورخاء الدنيا محنه في الآخرة».

وهذا نوع من التوجيه الروحي ففي تطهير النفوس،والارتفاع بها إلى مستوى القديسين.

وقد روى الإمام الصادق عليه السلام: عن إبائه عن أمير المؤمنين عليه

السلام إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام:

«واعلم إن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وان مع العسر يسراً».

وقد عدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الاستغفار في المقام الأول والرفيع الذي يجعل الله به الفرج من كل هم، والمخرج من كل ضيق، والرزق الوفير من حيث لا يحتسب الإنسان، فروي أنه قال:

«من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وينسب للإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال:

وإذا ابتليت بعسرة فأصبر لها ... صبر الكريم... فإن ذلك أحزم

لا تشكون إلى الخلائق إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وقد ضرب المثل بالصحابي الجليل بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه في صبره على أذى قريش، وكان مملوكاً عند أمية بن خلف أحد كبار طواغيت قريش، وكان يعذبه عذاباً شديداً لدى إعلانه الإسلام، وهو صابر على عظائم الخطوب، وكلما ألحّوا عليه أن يقول كلمة الكفر وعبارة الشرك يأبى، ويقول: «أحدٌ.. أحد» فلما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.. إلى المدينة المنورة، كان بلال أحد المهاجرين.

وفي معركة بدر الكبرى خرج أمية مع المشركين وعليه قريش، وخرج بلال مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين فلما رأى بلال أمية صرّخ قائلاً: «هذا رأس الكفر فلا نجوت إن نجا» ثم حمل على أمية وأراده قتيلاً،

وحمل رأسه على سيفه، وهذا من عجيب المفارقات نتيجة الصبر.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طرق متعددة أنه قال:

«بينما ثلاثة من بني إسرائيل يسيرون إذ أخذهم المطر، فأووا إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة، فسدّت الغار، فقالوا فليسال الله تعالى كل رجل منا بأفضل عمله، فقال أحدهم: اللهم إن كانت لي ابنة عم جميلة، وكنت أهواها، فدفعت إليها مئة دينار، فلما جلست منها مجلس الرجل من المرأة قالت: أتق الله يا ابن العم، ولا تفضّ الخاتم، إلا بحقه، فقمت عنها، وتركت المائة دينار!! اللهم إن كنت تعلم إني فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عندك فأفرج عنّا، فانفرج عنهم ثلث الصخرة.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت أغدو عليهما بصبوحهما، وأروح عليهما بغبوقهما، فغدوت عليهما يوماً، فوجدهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أنصرف عنهما، فيفقدا غدائهما، فوقفت حتى استيقظا فدفعت إليهما غدائهما، اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك ابتغاء ما عندك، وخشية منك؛ فأفرج عنا، فانفرج الثلث الثاني.

وقال الثالث: اللهم إن كنت تعلم، أنّي استأجرت أجيراً، فلما دفعت إليه أجره قال عملي بأكثر من هذا، فترك علي أجره، وقال: بيني وبينك يوم يؤخذ فيه للمظلوم على الظالم، ومضى، فابتعت له بأجره غنماً، ولم أزل أنميها وأرعاها، وهي تزيد وتكثر، فلما كان بعد مرة، أتاني فقال: يا هذا إن

لي عندك أجراً، عملت كذا وكذا، فقلت: خذ هذه الغنم فهي لك، فأخذها ودعا لي.

اللهم إن كنت تعلم أني فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عندك فأفرج عنّا،فانفرج عنهم باقي الصخرة وخرجوا.

هكذا روى التنوخي في الفرج بعد الشدة، القصة / ٥٢٧، والاعتبار في هذه القصة الفريدة وأحداثها المتغايرة أن الصبر على المعصية، والصبر على الطاعة والأمانة المطلقة، فيما بين المرء وربه، كل أولئك يورثان الفرج عند الشدة.

وعن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أنه قال:

علمني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل بي كرب أو شدة أن أقول: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، عزّ الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين».

وعادة ما يعبر عن هذا الدعاء بدعاء الفرج، وله صيغة أخرى رويت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«كلمات الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات السبع ورب الأرضيين السبع، ورب العرش العظيم».

وهناك دعاء بالغ الأهمية، مشرق العبارة، فصيح الأداء، بليغ في المعنى والمبنى، مروي عن أمير علي عليه السلام يسمى بدعاء (الفرج) أيضاً، وأهله

يتوارثونه عنه، وهو: «يا من تحل به عقد المكاره، ويفلّ حد الشدائد، ويا من يلتمس به المخرج، ويطلب منه روح الفرج، أنت المدعو في المهمات والمنزع بالملمات، لا يندفع منها إلا ما دفعت، ولا ينكشف منها إلا ما كشفت، قد نزل بي ما قد علمت، وقد كادني في ثقله، وألم بي ما بهضني حمله، وبقدرتك أوردته عليّ وبسلطانك وجهت إليّ ولا مصدر لما أوردت، ولا كاشف لما وجهته، ولا فاتح لما أغلقت، ولا ميسّر لما عسرت، ولا معسّر لما يسرت.

فصل على محمد وعلى آل محمد، وأفتح لي باب الفرج بطولك، وأحبس عني سلطان الهم بحولك، وأنلني حسن المنظر فيما شكوت، وأذقني حلاوة الصفح فيما سألت، وهب لي من لدنك فرجاً هنيئاً عاجلاً، وصلاحاً في جميع أمري سنياً شاملاً، وأجعل لي من عندك فرجاً قريباً ومخرجاً رحباً، ولا تشغلني بالاهتمام عن تعاهد فروضك، واستعمال سنتك، فقد ضقت ذرعاً بما عراني، وتحيرت فيما نزل بي ودهاني، وضعفت عن حمل ما أثقلني هماً، وتبدلت فيما أنا فيه قلقاً وغماً، وأنت القادر على كشف ما وقعت فيه، ودفع ما منيت به، فأفعل بي ذلك يا سيدي ومولاي، وإن لم أستحقه، وأجبني إليه، وإن لم أستوجبه، يا ذا العرش العظيم، يا ذا العرش العظيم، يا ذا العرش العظيم.

أرأيت كيف أفرغت البلاغة ألفاظها، وكيف أنجبت الإنابة رجالها، وكيف أقامت العقيدة أركانها، ولك أن تتأمل فيما نزل بأمير المؤمنين من المصائب العظيمة، وما أكتنفه من الدواهي الجليلة، وما أحاط به من الهموم

والغموم، فأنفجر بهذا الدعاء العظيم».

وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علّم علياً دعاءً يدعو به في كل هم، وكان عليٌ يعلمه الناس، وهو:

«يا كائناً قبل كل شي، ويا مكوّن كل شيء، ويا كائناً بعد كل شيء، افعل بي كذا وكذا».

وهذا الدعاء في طلب الفرج أشتمل على مادة الكون والتكوين في ثلاثة مواضع، وكلها منسوبة إلى الله تعالى، لإغاثة السامع وتنبيهه على تفهم معنى الوحدانية المطلقة.

ومن حكم أمير المؤمنين السائرة وعباراته المعبّرة قوله:

«أطردوا واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين»، فللّه درّك يا أمير المؤمنين حينما شخصت الداء ووصفت الدواء.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«من أصابه هم، أو غم، أو سقم، أو شدة أو ذل، أو لأواء، فقال: (الله ربي لا شريك له) كشف الله ذلك عنه»، عبارة موجزة فيها الكثير وعليها المعوّل في الأمر الخطير فيما عدده رسول الله من أنواع البلاء، فبالله تعالى يدفع كل مكروه.

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله، قال:

«كنت معتقلاً بالكوفة، فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال، وقد زاد همي، وكادت نفسي أن تزهق، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد رأى ما أنا فيه من الكآبة فقال: الصبر.. الصبر.. فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«الصبر ستر الكروب وعون على الخطوب».

فروي أنه فرّج الله عنه وخرج من السجن.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إذا عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدوان أن تجاهدوه، فلا تعجزوا عن الكلمات الأربعة: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإنهنّ الباقيات الصالحات».

وبهذا ننهي الحديث عن القسم الأول في انتظار الفرج عند الشدائد وننتقل إلى القسم الثاني في انتظار فرج آل محمد.

ثانيا: فرج آل محمد:

لم يكن الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف فرضية فلسفية يشرق ويغرب بها فلاسفة الظواهر أو يتداولها المتكلمون بفارق القول وجدليات النزاع والتخاصم، ولكنه حقيقة تاريخية تشهد بها وقائع العيان وصدق المشاهدة، وجمهور المسلمين على هذا، والأمامية كذلك، والفرق بينهما أن بعض الجمهور، وهم يقولون به أنه سيولد عليه السلام، والإمامية قالوا بولادته في حياة أبيه الإمام الحسن العسكري في الخامس عشر من شعبان عام ٢٥٥هـ.

وكانت ملاحقة العباسيين للإمام وكبس داره، واعتقال نسائه من أدلة وجوده الشريف حياً يرزق، وينتظر الأمر من الله عز وجل للقيام بملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، فهذا وذاك من الثوابت التي لا تتحول، ومن العقائد التي لا تتزلزل، فقد خلفه أبوه إماماً بالنص، وثبتت إمامته لدى أوليائه بالشواهد والاعتبار ودلائل البرهان سواء بالإفتاء أو الكرامة أو الأنباء بعوالم الغيب المجهول ويتحقق بالفعل.

وكان للإمام وكلاء وسفراء بينه وبين شيعته عندما ثبتت إمامته دون شك بالصلاة على أبيه، فقد روي أن الإمام الحسن العسكري عليه السلام لما توفي، ووضع نعشه للصلاة عليه، تقدم أخوه جعفر بن الإمام الهادي للصلاة، فلما همّ بالتكبير خرج صبي بوجهه سمرة، وبشعره قطط، وبأسنانه تفليخ، فجذب رداء جعفر، وقال: تأخر يا عم، فانا أحق بالصلاة على أبي، فتأخر وقد إربد وجهه، فتقدم الصبي - وهو الحجة المنتظر - فصلى على أبيه، ودفن إلى جنب قبر أبيه الهادي عليه السلام في دارهم بسامراء.

ولاحقته أجهزة الأمن المدربة لدى البلاط العباسي فما ظفروا به، وعثروا على آثاره ودلائله، وما استطاعوا القبض عليه، وهنا قامت السفارة بين الإمام وشيعته على يد الوكلاء وهم:

١ - عثمان بن سعيد العمري.

٢ - محمد بن عثمان بن سعيد العمري.

٣ - الحسن بن روح النوبختي.

٤ ـ علي بن محمد السمري

واستمرت هذه السفارة أربعة وسبعين عاماً حتى سنة ٣٢٩هـ وهي سنة وفاة السفير الرابع الذي خرج التوقيع الرفيع على يديه بان لا يوصي إلى أحد، فقد بدأت الغيبة الكبرى حتى يأذن الله له بالظهور، أما وجه الانتفاع بغيبته، فقد أشار إليه وصرح به صاحب الأمر بالقول:

«وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي، فكالانتفاع بالشمس إذا غيبها عن الأبصار السحاب، وإني لأمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء».

وعلة الغيبة عدم التكامل الأسباب للظهور الشريف من جهة، والحذر من الطواغيت بالأقدام على قتله لو أمكنهم ذلك، ولعلل مجهولة تتجلى عند الظهور، وقد أشبعنا هذا الموضوع وسواه، وفيما يتعلق بالمهدي المنتظر عجل الله فرجه في كتابنا (الإمام المهدي المنتظر نصب عينيك وكأنك تراه» ووجوده الشريف مرتبط بحفظ وجود أوليائه، فهو وريث حجج الله على عبادة كما روى ذلك مئات المؤلفين من الجمهور الإمامية، وقد ذكر الخوارزمي في مقتله بسنده عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال:

دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحسين على فخذه، وهو يقبل عينيه ويلثم فاه، ويقول: إنك إمام وابن إمام أبو أئمة، إنك حجة ابن حجج تسعة من صلبك، تاسعهم قائمهم»

وروي الحمويني والصدوق والطبرسي والقندوزي وسواهم عن سليمان

بن مهران الأعمش عن جعفر الصادق عليه السلام عن أبيه محمد الباقر عليه السلام عن أبيه علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال:

«نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغر المحجلين، وموالي المؤمنين.

ونحن أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث وينشر الرحمة ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منا لساخت الأرض بأهلها.. ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها، ظاهر مشهور، أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة فيها، ولولا ذلك لم يعبد الله»

قال سليمان: فقلت: كيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟

قال: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها حجاب».

والشيء الذي نريد قوله: أن الإمام المهدي غائب عن الأنظار، ومنتظر من قبل الأولياء، وانتظار فرجه من أفضل الأعمال.

وروي عن عبد السلام بن صالح الهروي أنه قال: سمعت دعبل بن علي الخزاعي يقول: أنشدت مولاي الرضا قصيدتي وأولها:

مـدارس آيـات خلـت مـن تـلاوة ... ومنـــزل وحـــي مقفـــر العرصـــات

فلما انتهيت إلى قولي:

ولـولا لـذي ارجـوه في اليـوم أوغـد — لقطّعـت نفـسي إثـرهم حـسراتي

خـــروج إمـــام لا محالـــة خـــارج — يقـــوم علـــى أســـم الله والبركـــات

يميّـــز فينـــا كـــل حـــق وبـاطـــل — ويجـزي علـى النعمـاء والنقمـات

بكى الإمام الرضا: علي بن موسى بكاء شديداً ثم رفع رأسه إليّ وقال:

«يا خزاعي نطق الروح الأمين على لسانك في هذين البيتين!! فهل تدري من هو هذا الإمام؟ ومتى يقوم!!؟.

فقلت يا مولاي: لا، إلا أني سمعت بخروج إمام منكم يطهّر الأرض من الفساد ويملؤها عدلاً وقسطاً.

فقال عليه السلام: «يا دعبل بعدي محمد، وبعد محمد أبنه علي، وبعد علي أبنه الحسن، وبعد الحسن ابنه الحجة القائم، المنتظر في غيبته، المطاع في ظهوره، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً!! أما متى؟ فقد حدثني أبي عن أبيه عن آبائه؛ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قيل له: يا رسول الله متى يخرج القائم من ذريتك؟ فقال صلى الله عليه وآله: مثله مثل الساعة التي لا يجليها لوقتها إلا هو عز وجل، لا يأتيكم إلا بغتةً».

ولذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«أفضل أعمال أمتي انتظار فرج الله تعالى»، ولا مانع أن يكون انتظار

الفرج تطبيقاً عملياً في الإعداد لخروجه - عليه السلام - بتهيأة المناخ المناسب، وخلق الجيل الصاعد تدريباً وتربية على مبادئ الدين الإسلامي، وتعليمات أهل البيت، وإشاعة مفاهيم فلسفة الغيبة وفلسفة الظهور، ويكون هذا الانتظار نوعاً من العبادة المتقبلة عند الله تعالى، وثبات على موالاة الأئمة الطاهرين زمن الغيبة، فقد روى الصدوق في «كمال الدين» بسنده عن عمرو بن ثابت عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال:

«من ثبت على موالاتنا في غيبة قائمنا، أعطاه الله عز وجل، أجر ألف شهيد من شهداء بدر وأحد». وذلك أنه لا يخرج إلا بعد اشتداد والأمر، وتظاهر الأمة على الفتنة، وكثرة الفتن وانتشارها في الأفاق كقطع الليل المظلم، وتكفير الناس بعضهم لبعض، والقتل على الظنة والتهمة، واستشراء البغي والفساد، وانتشار الخمور والفجور، واهتزاز أمر العرب والمسلمين في كل صقع وربع من ديار الإسلام، فقد روى الشيخ الطوسي في «الغيبة» عن الإمام الحسن عليه السلام، أنه قال:

«لا يكون هذا الأمر الذي تنتظرون حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويتفل بعضكم في وجه بعض، وحتى يشهد بعضكم بالكفر على بعض».

وهذا أمر مشين لا يقرّهُ الإسلام؟ فكيف بالقتال الدائر اليوم بين التكفيريين والمسلمين، وأين حرمة الدماء التي شدد عليها الإسلام، وكيف بالمتفجرات والمفخخات، ومن أين مواردها، وكيف تتوافر مصادرها؟ أنفط العرب يقتل العرب؟ وبثروة الإسلام يباد المسلمون، وأموال الأمة تنسف

وتقصف بيوت الأمة؟، أنه ما نشاهده اليوم من هذه الأعمال التي تضج فيها أهل السماوات وأهل الأرض لمذكور في روايات أهل البيت حذو القذة بالقذة فقد روي ألمجلسي في «بحار الأنوار» عن رسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«منا مهدي هذه الأمة، إذا صارت الدنيا هرجاً ومرجاً، وتظاهر الفتن، وتقطعت السبل، وأغار بعضهم على بعض، فلا كبير يرحم صغيراً، ولا صغير يوقر كبيراً، فيبعث الله عند ذلك مهدينا، التاسع من صلب الحسين عليه السلام يفتح حصون الضلالة وقلوباً غلفاً. يقوم في أخر الزمان كما قمت به في أول الزمان، فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً».

وفي زمن الغيبة يختبر الناس، ويمحص الله القلوب، ويغربل الخلق، لتكن الحجة البالغة لله على الناس، فقد ورد عن الأمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لابد للناس من أن يمحصوا ويميزوا ويغربلوا..وسيخرج من الغربال خلق كثير» وهذا حق لا يدانيه ريب، إذ لابد من التجربة والاختبار قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ ﴾[1].

وقد روى النعماني في «الغيبة» عن أمير المؤمنين أنه قال:

«إن بين يدي القائم سنين خداعة، يكذب فيها الصادق، والصدق الكاذب. ويقرب فيها المحال - أي الماكر - وينطق فيها الرويبضة» أي التافه.

وهذا ما شاهدناه في عصرنا هذا، فقد نطق تافه السياسيين، وكذّب أهل

---

(١) سورة العنكبوت / ٢.

الدين الراسخ، وصدقّ أهل الكذب الصريح.

فعن أبن أبي يعفور، قال: سمعت أبا عبد الله - يعني الأمام الصادق - يقول:

«ويل لطغاة العرب من شر قد أقترب»!! فقلت:

جعلت فداك: كم مع القائم من العرب؟ قال عليه السلام «شئ يسيرٌ» فقلت: ولله أن من يصف هذا الأمر منهم لكثير» فقال عليه السلام:

«لابد الناس أن يمحصوا ويميزوا.. الخ وروى الحديث المتقدم ذكره.

والإحداث التي تسبق الظهور ثقيلة الظل بعيدة الأثر، وأشدها الحروب الطاحنة بين العرب، وهو ما نشاهده هذه اليوم في الربيع العربي الذي أنقلب خريفاً فأنا الله وإنا إليه راجعون، وما يجري في مصر وسوريا وتونس والعراق ما هو إلا إرهاصات تنبئ عن أمر خطير في الفرقة وتمزيق الصف وتشتت الهدف، ففي كل صقع ناعق، وفي كل أفق صائح، وعاد القتل على الهوية، والسؤال عن العقيدة، والدماء تسيل كل مسيل،والحرمات تنتهك أيما انتهاك، وفتنة الشام قائمة على قدم وساق، وقد ورد في أخبار أهل البيت أنها تقوم فتنة في الشام يطلبون المخرج منها فلا يجدونه، ويكفيك ما تشاهد من الحال، مما يغني عن المقال، والتوسع في الوصف.

روي المجلسي في «بحار الأنوار» عن الأمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«لا يقوم القائم إلا على خوف شديد وفتنة وبلاء يصيب الناس،

وطاعون قبل ذلك، وثم سيف قاطع بين العرب، واختلاف بين الناس، وتشتت في دينهم، وتغيّر حالهم، حتى يتمنى المتمني الموت صباحاً ومساءً من عظيم ما يرى من كَلَب الناس، وأكل بعضهم بعضاً».

ولا يكون ظهوره المبارك حتى يشكك في ذلك الناس، ويكفرون به ويجعلونه للشيطان عليهم سبيلاً، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

والذي بعثني بالحق بشيراً، ليغيبنّ القائم من ولدي بعهد معهود إليه مني، حتى يقول الناس: ما لله في آل محمد حاجة، ويشك آخرون في ولادته، فمن أدرك زمانه فليتمسك بدينه، ولا يجعل للشيطان إليه سبيلاً بشكه فيزيله عن ملتي، ويخرجه من ديني، كما أخرج أبوكم من الجنة من قبل. وإن الله عز وجل جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون».

بينما يكون أولياؤه المنتجبون في منتهى الثبات والصلابة،وعند حسن الظن بهم، يتمتعون بالأحلام الرصينة، ويفكرون بعقول سليمة، وهم كمن شاهد الأمر،فقد روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام وهو يتحدث عن أهل زمان غيبة القائم المنتظر، بأنه قال:

«إن أهل زمان غيبته، القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره، أفضل من أهل كل زمان؛ لأن الله أعطاهم من العقول والإفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسيف».

وقد أثنى الإمام الصادق عليه السلام على الثابتين المتمسكين بأمرهم عند غيب قائمهم، فروي عنه انه قال:

«يأتي على الناس زمان يغيب عنهم إمامهم، فيا طوبى للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان، إن أدنى ما يكون لهم من الثواب أن يناديهم الباري عز وجل: عبادي آمنتم بسرّي، وصدقتم بغيبتي، فابشروا بحسن الثواب منّي، فأنتم عبادي وإمائي حقاً، منكم أتقبل، وعنكم أعفو، ولكم اغفر، وبكم أسقي عبادي الغيث، وادفع عنهم البلاء، ولولاكم لأنزلت عليهم عذابي..»

فقيل: يا ابن رسول الله، فما أفضل ما يستعمله المؤمن في ذلك الزمان؟ قال: «حفظ اللسان، ولزوم البيت».

وورد الثناء في زمن الغيبة على العلماء العاملين الذين يرشدون إلى النهج القويم، وينقذون البلاد والعباد من الزلل والضلال، ويتحابون مع المستضعفين في الأرض فيمسكون بأيديهم تخليصاً لهم من الوقوع في المزالق، والتردي في الشبهات، فقد روي أن الإمام محمد الجواد عليه السلام قال: «لولا من يبقى بعد غيبة قائمنا من العلماء والداعين إليه، والدالين عليه، والذابين عن دينه بحجج الله، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شبابك إبليس ومردته، ومن فخاخ النواصب لما بقي أحد إلاّ ارتد عن دين الله، ولكنهم الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سكانها، أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل».

ومع هذا كله فان الناس تطلب السبيل إلى الفرج فلا تصل إليه، ومنهم

من يبقى صامدا صلب القلب على طول المدة.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال:

«للقائم منا غيبة أمدها طويل،كأني بالشيعة يجولون جولان النعم في غيبته.يطلبون المرعى فلا يجدونه، إلا فمن ثبت منهم على دينه، ولم يقسُ قلبه لطول أمر غيبة أمامه: فهو معي في درجتي يوم القيامة»

على إن لطواغيت الحكام أساليبهم الملتوية في اجترار الإجرام وسوء معاملة المسلمين، والاعتداء على الحرمات، واستخلاص وعاظ السلاطين وعلماء السوء وعملاء الاستعمار العالمي، حتى يضج المؤمن فيمر على قبر أخيه فيتمنى أن يكون فيه، وحتى يتمنى الموت صباحا ومساء مما يشاهده من الحيف والضيم ولقد أورد القندوزي في «ينابيع المودة» عن حذيفة بن اليمان انه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«ويح هذه الأمة من ملوك جبابرة،كيف يقتلون ويطردون المسلمين إلا من اظهر طاعتهم، فالمؤمن التقي يصانعهم بلسانه، ويفرَ منهم بقلبه، فإذا أراد الله تبارك وتعالى إن يعيد الإسلام عزيزاً، قصم كل جبار عنيد، وهو القادر على ما يشاء وأصلح الأمة بعد فسادها.

يا حذيفة: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوَل الله ذلك اليوم حتى يملك رجل من أهل بيتي يظهر الإسلام، لا يخلف وعده وهو على وعده قدير».

وينبغي هنا أن نشير إلى بعض إفاضات صاحب الأمر عجل الله فرجه،

وهو يطمئن أولياءه في ثلاثة أقوال ساترة:

١ - واني أمان لأهل الأرض،كما أن النجوم أمان لأهل السماء.

٢ - إنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم،ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء، واصطلمكم الأعداء.

٣ - وإما وجه الانتفاع بي في غيبتي، فكالانتفاع بالشمس إذا غيبها السحاب.

ارتكاب الذنوب.. والغفلة عن ذكر الله

من منّا لم يقترف ذنباً، ومن منا من لم يرتكب خطيئة، هذا هو شأن الناس في كل زمان ومكان، إلا من عصم الله سبحانه وتعالى.

والذنوب على نوعين: كبائر وصغائر، فالكبائر ما أوعد عليها الله بالعقاب والنار، إلا مع التوبة والاستغفار، والصغائر أمرها إلى الله تعالى إن شاء عاقب وإن شاء عفا، والإصرار على الصغيرة كبيرة، وتجاوز كل ذلك بالإنابة إلى الله عز وجل، والإخبات إليه، والعزم على عدم العودة إلى الذنوب، فان عاد واستغفر، والله رءوف بالعباد ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾[1].

والروايات عن أهل البيت عليهم السلام كثيرة ومتواترة وعديدة، فهم يعالجون ظاهرة الذنب بالتي هي أحسن، وهم يدعون إلى التعجيل بالتوبة لئلا يقع الإنسان والعياذ بالله في المهالك.

---

(١) سورة غافر / ٣.

وجاءت المرويات في هذا الصدد محذّرة، ومنذرة، فمن الذنوب ما يغفر، ومن الذنوب مالا يغفر، ومن الذنوب ما تعجل عقوبتها، ومنها ما يكفر به عن الذنوب، ومنها ما يخفف عنها، والذنوب آثار وضعية، ولها دواؤها، ولها عقوبتها في الدنيا وسوى ذلك. قال تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3].

وأنت ترى هذه الآيات محذرة ومنذرة ومتوعدة ومبشرة، كلٌّ أولئك من اجل المبادرة إلى التوبة، وعدم الاستخفاف بالذنوب، عصمنا الله فيما بقي من العمر عن الذنوب التي لا تغفر.

وإذا ابتلى الإنسان بالمعصية فلا يجاهر بها، وعليه أن يتكتم في ذلك، فالمجاهرة بالذنوب قد تعجل النقمة، وإذاعة السيئة خذلان ما بعده خذلان، وقد يغفر للمتستر بها.

---

(١) سورة النساء / ٣١.

(٢) سورة آل عمران / ١٣٥.

(٣) سورة البقرة / ٨١.

قال الإمام علي عليه السلام: «مجاهرة الله سبحانه بالمعاصي تعجّل النقم..»[١].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «المذيع بالسيئة مخذول، والمتستر بها مغفور له»[٢].

ويقابل هذا التحذير من المعاصي في الخلوات، لأن الشاهد هو الله تعالى وهو الحاكم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد لا يعبأ الله به، فعن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام انه قال: «اتقوا معاصي الله في الخلوات، فان الشاهد هو الحاكم»[٣]. وهذا من أبلغ الكلام وأصح الاستدلال.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «من ارتكب الذنب في الخلاء لم يعبأ الله به»[٤].

والاستخفاف في الذنب - كما هي عادة المذنبين - من أعظم الذنوب وأشدها عند الله تعالى، والاستمرار عليها حتى ينبت اللحم والدم، والإصرار عليها. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أشدُّ الذنوب ما استخفَّ به صاحبه»[٥].

وعنه عليه السلام: «أعظم الذنوب عند الله ذنب أصر عليه عامله»[٦].

---

(١) غرر الحكم / ١٨٩٠.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٣/٣٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ٧٨/٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ٤٦/٢٤٧.

(٥) المصدر نفسه: ٧٣/٣٦٣.

(٦) غرر الحكم / ١/٩٨.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «الذنوب كلها شديدة، وأشدها ما نبت عليه اللحم والدم»[(١)].

وهنالك من الذنوب مالا يغفر - نستجير بالله منها - والله يغفر ما دونها لمن يشاء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[(٢)].

وقد أفاض الإمام علي عليه السلام في هذا الملحظ، وعدد ذنوبا كبيرة تعتبر من عزائم الله تعالى في القران العظيم، فقد روي انه قال: «إن من عزائم الله في الذكر الحكيم.. أنه لا ينفع عبداً.. وإن أجهد نفسه واخلص فعله إن يخرج من الدنيا لاقياً ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب فيها: أن يشرك بالله فيما افترض من عبادته، أو يشفى غليله بهلاك نفس، أو يُعرِّ بأمر فعله غيره، أو يستنجح حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه، أو يلقي الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين»[(٣)].

واستصغار الذنب، والتمني أن لا يؤاخذ الله تعالى إلاّ به، من الذنوب التي لا تغفر فيما قرره الإمام الباقر عليه السلام انه قال: «من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل يا ليتني لا أؤاخذ إلا بهذا»[(٤)].

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/٢٧٠.

(٢) سورة النساء / ٤٨.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١٥٣.

(٤) الصدوق / الخصال: ٢٤/٨٣.

والاستخفاف بالذنب، وصغر الذنب بعين فاعله، والمحقرات من الذنوب واستقلالها، والصغائر الموصلة إلى الكبائر، كل أولئك من الذنوب الكبرى. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن المؤمن ليرى ذنبه كأنه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، والكافر يرى ذنبه كأنه ذباب مر على أنفه»(١).

وعنه صلى الله عليه واله وسلم «إن إبليس رضي منكم بالمحقرات»(٢).

وعن الإمام علي عليه السلام انه قال: «أعظم الذنوب عند الله سبحانه ذنب صغر عند صاحبه»(٣).

وعن الباقر عليه السلام «لا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»(٤).

وعن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال:

«لا تستقلوا قليل الذنوب، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً»(٥).

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «الصغائر من الذنوب طرق إلى الكبائر، ومن لم يخف الله في القليل لم يخفه في الكثير»(٦).

---

(١) الطوسي / الأمالي: ٥٢٧.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٤٦/ ٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه: ٧٨/ ٧٠.

(٤) غرر الحكم / ٣١٤١.

(٥) تحف العقول / ٢٨٦.

(٦) المجلسي / بحار الأنوار: ٧٣/ ٣٥٣.

وينبغي للإنسان أن لا يتهج بالذنوب، ولا يركن إليها، ولا يأنس، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«من تلذذ بمعاصي الله أورثه ذلاً»(١).

وأي ذل ذلك الذي يورثه الله عبده ـ نستعيذ بالله منه ـ فإن العار والشنار الذي لا يدفع ولا يرفع.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إياك والابتهاج بالذنب، فان الابتهاج به أعظم من ركوبه»(٢)؛ لأن الابتهاج بالذنب يدعو إلى مقاربته مرةً تلو مرة، والسرور به يعني الابتعاد عن السداد، وقد يكون إصراراً على الذنب، والإصرار عليه حذرت منه الآثار فنجد روي عن الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«لا كبير مع الاستغفار، ولا صغير مع الإصرار»(٣).

وفي ضوء قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾(٤).

في ضوء هذه الآية المباركة، يقول الأمام محمد الباقر عليه السلام:

---

(١) غرر الحكم / ٨٨٢٣.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار ٧٨ /١٥٩.

(٣) المصدر نفسه ٧٣ /٣٥٥.

(٤) سورة أل عمران / ١٣٥.

«الإصرار أن يذنب العبد ولا يستغفر، ولا يحدث نفسه بالتوبة فذلك الإصرار»[١].

أما كبائر الذنوب فقد حددها الحديث الشريف في بعض مصاديقها، فقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم:

«الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وقتل نفس، واليمين الغموس»[٢].

وحددها الأمام علي عليه السلام حينما سئل عن اكبر الكبائر، قال: «الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله»[٣].

وقد فصّل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بمصاديق جملة الكبائر، فقد روي عنه أنه قال:

«الكبائر سبع: قتل المؤمن متعمداً، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف والتعرّب بعد الهجرة، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا بعد البينة، وكل ما أوجب الله عليه النار»[٤].

وهناك من الذنوب ما تعجل عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها

---

(١) ألمجلسي / بحار الأنوار ٦٠/ ٣٢.

(٢) المتقي الهندي / كنز العمل / ٧٧٩٨.

(٣) المصدر نفسه / ٤٣٢٥.

(٤) الكليني / الكافي: ٢/ ٢٧٧.

ولا تؤخر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان»[١].

وقد ذكر أن الأمام محمد الباقر عليه السلام روى قائلاً:

«في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام: ثلاث خصال لا يموت صاحبهّن حتى يرى وبالهنّ: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة»[٢].

وللذنوب في مرويات أهل البيت عليه السلام آثار وضعية فيها من العظة والعبرة ما فيها، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الذنب شؤم على غير فاعله، إن عيّره أبتلى، وإن اغتابه أثم، وإن رضي به شاركه»[٣].

وعن أمير المؤمنين الأمام علي عليه السلام أنه قال: «ما جفّت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلب إلا لكثرة الذنوب»[٤].

وقد أشار الأمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام إلى تلك الذنوب التي تحبس عن الناس الغيث، فقال فيما روي عنه:

«الذنوب التي تحبس غيث السماء: جور الحكام في القضاء، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة»[٥].

---

(١) الشيخ المفيد / الأمالي: ٢٣٧.

(٢) المصدر نفسه /٩٨.

(٣) الفردوس: ٢/ ٢٤٩.

(٤) الصدوق / علل الشرائع: ٨١.

(٥) الصدوق / معاني الأخبار: ٢٧١

وعن الأمام الباقر عليه السلام: «إنه ما من سنة أقل مطراً من سنة، ولكن الله يضعه حيث يشاء، أن الله عز وجل إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدر لهم من المطر»[(١)].

وللإمام الصادق عليه السلام في فلسفة هذا الأمر عدة مرويات ذات مضامين دلالية في تعليل أثار الذنوب، فقد روي عنه أنه قال: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»[(٢)].

وعنه عليه السلام:

«ما أنعم الله على عبده نعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنباً يستحق بذلك السلب»[(٣)].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وان العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»[(٤)].

وعنه عليه السلام:

«من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال»[(٥)].

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٧٣ /٣٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ٧٣ /٣٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ٧٣ / ٣٢٩.

(٤) الكليني / الكافي: ٢ /٢٧٢.

(٥) الطوسي / الأمالي: ٧٠١.

وعن الإمام الرضا عليه السلام في تحذير الظلمة، ومنع الزكاة، يروي أنه قال:

«إذا كذب الولاة حبس المطر، وإذا جار السلطان هانت الدولة، وإذا حبست الزكاة ماتت المواشي»(١).

ومع هذا كله فان الله سبحانه وتعالى بعطفه ولطفه جعل الاستغفار والتوبة سبيلاً مهيعاً للمؤمنين، يسلكونه حتى لا يقنطوا من رحمة الله تعالى. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لكل داء دواء، ودواء الذنوب الاستغفار»(٢).

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «للمؤمن اثنان وسبعون مستتراً، فان تاب ردّه الله إليه وسبعةً معه»(٣).

وهناك طائفة كبيرة من مكفرات الذنوب التي يقترفها العبد عمداً، أو بجهالة، وتلك المكفرات باب متسع الموارد نشير في هذا البحث إلى أهمها في روايات أهل البيت عليهم السلام.

١- الهموم والأحزان

الهموم والأحزان من مشكلات الزمان قديمه وحديثه، ومن منغصات العيش الملّحة في شتى أنواع الآلام الفكرية والنفسية والعاطفية، وقد يصل

---

(١) المفيد / الأمالي: ٣١٠.

(٢) الجعفريات / ٢٢٨.

(٣) الراوندي / النوادر: ٩٧.

الإنسان إلى اليأس المرير، فتشل الحركة، وتقف به مسيرة الحياة على شاطئ من التفكير القاتل والعذاب الأليم، نسأل الله عز وجل أن يحصننا من طوارق الهموم والغموم في حصنه فأنه أرحم الرحمين.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «ما أصاب المؤمن من نصب ولا وصب ولا حزن حتى الهم يهمّه إلاّ كفّر الله به عنه سيئاته»[1].

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الهمّ ليذهب بذنوب المسلم»[2].

وعن الأمام الرضا عليه السلام أنه قال: «ما من أحد من شيعة علي أصبح صبيحةً أتى بسيئة أو أرتكب ذنباً إلاّ أمسى وقد ناله غمٌ حط عنه سيئته، فكيف يجري عليه القلم»[3].

وهذه الأحاديث الثلاثة مبشرات للمؤمن من أولياء أهل البيت عليهم السلام والمسلمين الصالحين بحط الذنوب والأوزار نتيجة ما يصيبهم من هم أو غم أو حزن مما يشكّل بمجموعة تكفير السيئات، والله عز وجل أعلم بما يصلح عباده.

---

(١) تحف العقول / ٣٨.

(٢) الدعوات / ١٢٠.

(٣) المجلسي/ بحار الأنوار: ٦٨/١٤٦.

٢ـ الأمراض

والداء الوبيل قليله وكثيره، حقيره وخطيره، عارضه ومزمنه مما يحيل الحياة ـ أحياناً ـ جحيماً لا يطاق، ويجعل الإنسان في دوامة من التفكير المعاكس لانتظار الفرج من الله تعالى، والمرض يتنقل مع الإنسان في مراحل حياته كافةً، الصبي، والشاب، والكهل، والشيخ، ومن يردّ إلى أرذل العمر. وقد ينتهي المرض بالإنسان إلى الموت، وبذلك يكون الموت كفارة لذنوب المؤمنين كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الموت كفارة لذنوب المؤمنين»(١)؛ وذلك لما يعانيه من سكرات الموت، ومشاهد العوالم الأخرى غير المرئية لنا، وبذلك تكون نهاية الحياة الأولى.

وعوداً على بدء فأن الأمراض مما تحط السيئات، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: حمى ليلةٍ كفارة سنة»(٢).

فيا لها من رحمة غامرة من الله تعالى أن تكون الحمى في ليلة عابرة سرعان ما تتصرم كفارة لذنوب سنة.

وعنه صلى الله عليه واله أنه قال «السقم يمحو الذنوب»(٣).

وعن الأمام علي عليه السلام أنه قال: «إذا أبتلى الله عبداً أسقط عنه من الذنوب بقدر علّته»(٤).

---

(١) المفيد / الأمالي: ٢٨٣

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٨١/ ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ٦٧ /٢٤٤.

(٤) دعائم الإسلام: ١/ ٢١٨.

وعنه عليه السلامفي المرض يصيب الصَّبي (كفّارة لوالديه)[١].

والحديث في هذا السياق ذو أبعاد كثيرة، اكتفينا بما ذكرنا عنه.

٣ـ الأعراض في الحياة الدنيا

وأعراض الحياة الدنيا متوالية على كل أحد، ولا يسلم منها أحد عادة، فالبلاء في البدن والمال والولد يمثل صورة من ذلك، وتعجيل العقوبة للمرء في الدنيا من الخير العميم له، ولكن لا صبر لنا على ذلك.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (لا يزال البلاء في المؤمن والمؤمنة في جسده وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة)[٢].

وعن أمير المؤمنين الأمام علي عليه السلام أنه قال: «ما من الشيعة عبد يقارف أمراً نهينا عنه فيموت حتى يبتلى ببلية تمحص بها ذنوبه، إما في ماله، وإمّا في ولده، وإمّا في نفسه، حتى يلقى الله عز وجل وما له من ذنب، وإنه ليبقى عليه الشيء من ذنوبه فيشدد به عليه عند موته»[٣].

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال:

«إذا أراد الله بعبد خيراً عجلّ عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد سوءاً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة»[٤].

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار: ١٨٦/٨١.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٢٣٦/٦٧.

(٣) الصدوق / الخصال / ٦٣٥.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار ٨١ / ١٧٧.

٤ـ الحسنات والأخلاق الكريمة

وإتيان الحسنات والإسراع في الخيرات، والاستباق إلى المبرّات، وحسن الخلق من مكفرات الذنوب قال تعالى:

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إذ عملت السيئة فأعمل حسنةً تمحوها»[2].

وعنه صلى الله عليه واله في محاسن الأخلاق أنه قال:

«أربع من كن فيه، وكان من قرنه إلى قدمه ذنوباً بدله الله حسنات: الصدق، والحياء، وحسن الخلق، والشكر»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل»[4].

ومن أعظم مكارم الأخلاق وأجلها عند الله تعالى إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب، وهما من كفارات الذنوب.

---

(١) سورة هود / ١١٤.

(٢) الطوسي / الأمالي / ١٨٦.

(٣) الكليني / الكافي ٢ / ١٠٧.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار ٧١ / ٣٩٥.

فعن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب»[١].

٥. السجود واستغفار الملائكة

ورد في الآثار أن كثرة السجود لله عز وجل تحط الذنوب لأنه أرقى درجات الإقرار بالعبودية لله تعالى، وإذا كان العبد متوجهاً إلى الله تعالى في هذه الكثرة الكاثرة من تعفير الجبين بالسجود، فأن الله هو الرحمن الرحيم.

وورد أيضاً أن الملائكة تستغفر للعاصين من المؤمنين وهناك حديثان عن الأمام الصادق عليه السلام في هذا الباب.

فعنه عليه السلام أنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله: كثرت ذنوبي وضعف عملي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أكثر السجود فانه يحطّ الذنوب كما تحط الريح ورق الشجر»[٢].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «إن لله عز ذكره ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا كما تسقط الريح الورق من الشجر في أوان سقوطه، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٤.

(٢) الصدوق / الأمالي / ٥٨٩.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[١] والله ما أراد بهذا غيركم»[٢].

٦ـ الحج والعمرة والصلاة على النبي وآله

ورد في المأثور الحديثي أن الحج والعمرة، والوقف بعرفات، والصلاة على محمد وال محمد، من مكفرات الذنوب، وأنها تهدم هدماً. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«العمرة إلى العمرة كفارة ما بينهما، والحجة المقبلة ثوابها الجنة، ومن الذنوب ذنوب لا تغفر إلا بعرفات»[٣].

وعن الأمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه، فليكثر من الصلاة على محمد واله فأنها تهدم الذنوب هدماً»[٤].

❋ ❋ ❋

والغفلة عن ذكر الله تعالى، تقود إلى الضلال والعياذ بالله، وقد تؤدي بالإنسان إلى الشقاء، وليعلم الغافل أنه غير مغفول عنه، ومن آثار الغفلة تعجيل الهلاك، وموت القلب، وعمى البصيرة، والآثار في ذلك كثيرة، وموقع البحث منها نماذج للتمثيل. فقد تحسر الأمام علي عليه السلام على كل ذي

---

(١) سورة غافر / ٧.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار٥٩ / ١٩٦.

(٣) المصدر نفسه: ٥٩/ ٥٠.

(٤) الصدوق / الأمالي: ١٣١.

غفلة، لان عمره الذي يعّمره سيكون عليه حجة يوم القيامة، وقد يؤدي إلى الشقوة. فيروى عنه أنه قال: «فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة، وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة»[١].

وإذا كان الأمر كذلك، فهو كما قال: «الغفلة ضلالة»[٢].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«فأفق أيها السامع من سكرتك، وأستيقظ من غفلتك، واختصر من عجلتك»[٣].

وتوجه الإمام علي عليه السلام إلى الناس الغافلين وغير مغفول عنهم، بما أفاضه من القول:

«أيها الناس غير المغفول عنهم، والتاركون المأخوذ منهم، مالي أراكم عن الله ذاهبين، وإلى غيره راغبين»[٤].

فيا لها من موعظة بالغة لو وجدت قلوباً واعية وأذاناً صاغية.

وعنه عليه السلام أنه قال: «كم من غافل ينسج ثوباً ليلبسه وإنما هو كفنه، ويبني بيتاً ليسكنه وإنما هو موضع قبره»[٥].

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة ٦٤.

(٢) غرر الحكم / ١٩٦.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة ١٧٥.

(٤) نهج البلاغة / الخطبة / ١٥٣.

(٥) المجلسي / بحار الأنوار ٧٧ /٤٠١.

وعن الأمام الصادق عليه السلام:

«إن كان الشيطان عدواً فالغفلة لماذا؟»[١].

وهنالك دوافع وأسباب وأولاع تمنع من الغفلة، ونوقظ في الإنسان حسن الوعي والخبرة، فتنجاب الغفلة وتتلاشى.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه:

«يا أبا ذر، هم بالحسنة إن لم تعملها، لكيلا تكتب من الغافلين»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «بدوام ذكر الله تنجاب الغفلة»[٣].

وعنه عليه السلام: «إن من عرف الأيام لم يغفل عن الاستعداد»[٤].

وعن الإمام الباقر عليه السلام وهو يحث على أداء الصلوات بأوقاتها، أنه قال: «أيما مؤمن حافظ على الصلوات المفروضة فصلاّها لوقتها، فليس هذا من الغافلين»[٥].

ويروى أن لقمان، قال لأبنه ـ وهو يعظه ـ

---

(١) المصدر نفسه ٧٨ / ١٩٠.

(٢) مكارم الأخلاق ٢ / ٢٧٨.

(٣) غرر الحكم /٤٢٦٩.

(٤) الصدوق / التوحيد /٧٤.

(٥) الكليني / الكافي: ٣ / ٧٢٠.

«يا بني لكل شيء علامة يعرف بها ويشهد عليها.. وللغافل ثلاث علامات: السهو، واللهو، والنسيان»[١].

وتحدث الأمام علي عليه السلام عن أثار الغفلة على الإنسان في أربعة أقوال، فيها جماع الحكمة، وإيقاظ البصيرة، وهو أمير البيان الذي فتق فنونه ببلاغته المعهودة:

١ - قال الإمام علي عليه السلام (من طالت غفلته تعجلت هلكته)[٢].

٢ - وقال عليه السلام «من غلبت عليه الغفلة مات قلبه»[٣].

٣ - وعنه عليه السلام: «دوام الغفلة يعمي البصيرة»[٤].

٤ - وعنه عليه السلام: «إياك والغفلة والاغترار بالمهلة، فأن الغفلة تفسد الأعمال»[٥].

أما الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، فقد حدّد بعض مصاديق الغفلة بالقول: «الغفلة تركك المسجد، وطاعتك المفسد»[٦].

وهنالك فرق بين الغفلة والتغافل، فالغفلة من مذمومة، والتغافل محمود، وعليه الأحاديث الآتية:

(١) الصدوق / الخصال/ ١٢١

(٢) غرر الحكم /٨٤٣٠.

(٣) غرر الحكم / ٨٣١٨.

(٤) غرر الحكم /٥١٤٦.

(٥) غرر الحكم / ٠٢٧١٧

(٦) غرر الحكم / ٠٢٧١٧

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن العاقل نصفه احتمال، ونصفه تغافل»[١].

وعنه عليه السلام «من أشرف أعمال (أحوال) الكريم غفلته عما يعلم[٢].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «صلاح حال التعايش والتعاشر مكيال: ثلثاه فطنة وثلثه تغافل»[٣].

---

(١) غرر الحكم / ٢٣٧٨.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة رقم: ٢٢٢.

(٣) تحف العقول / ٣٥٩.



الفصل الرابع

المثل الاجتماعية

١ - أفضل الأعمال في الموروث الإسلامي

٢ - فضائل العلم..ومنازل العلماء

٣ - قضاء الحوائج في الميزان

٤ - آداب الدعاء..وتهذيب النفس

أفضل الأعمال في الموروث الإسلامي

الأعمال المتميزة في تراث أهل البيت الحضاري متعددة الجوانب، وكثيرة المناحي، فكلما كان شأنه قرب العبد إلى الله في نية نقية خالصة كان في رحاب عمل متقبل عند الله عز وجل.

وقد تألقت في هذا المضمار ثلاثة أحاديث شريفة تعنى بالعمل المتجه إلى الله تعالى في سلامة من الرياء وبراءة من النفاق، وهذا العمل في هذه المعادلات المتفاضلة يرتبط بالنيات الحسنة الصالحة التي يتجلى فيها صدق القصد، وصفاء الضمير، وعزّة التوجه لله لا سواه.

وهذه الأحاديث تمثل ـ بحق ـ عزّة الالتقاء الروحي بين العبد وربه فلا مجال للرياء والمداجاة والاختلاط العملي في اتجاهين متضادين، وإنما الوجه هو الوجه الاعتدالي الموزون ليس غير والحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات» وهذا جوهر العمل، والفرز المتقابل بين العمل وبين النية، فالعمل أمر

ملموس ظاهر للعيان، والنية أمر محسوس في عالم الغيب، فالعمل في ضوء هذا الفهم مثال حيّ فعلي، والنية ضمير مختبئ عقلي، ولا يصح العمل إلا بالنية النقية الغراء.

يؤكد هذه الحقيقة الحديث الثاني: «لكل امريء ما نوى» وهو يربط بين المرء وبين استحقاقه للثواب والجزاء في ضوء النية وحدها في كل مجالات العمل.

ويطل الحديث الثالث ليفضل النية على ذات العمل، فحينما يطعم المرء الفقراء مثلاً أو ينعش المساكين، أو يساعد ذوي الفقر والعوز والفاقة، فكل ذلك من أجل العطف على الآخرين، وإشاعة بعض مفاهيم العدالة الاجتماعية، وإدخال السرور على جماعة من المسلمين قلّوا أو كثروا، وهكذا في لفتات إنسانية بارعة، فإن هذه النية خير من العمل نفسه، وهكذا ينطلق الحديث: «نية المرء خير من عمله».

ويطل الإمام محمد الباقر عليه السلام ليعلل ذلك عملياً، ويضعه في جانب الإمكان من وجه، وعدم الإمكان من وجه آخر فيقول: «نية المؤمن أفضل من عمله، وذلك لأنه ينوي من الخير ما يدركه» وهذه منزلة كبرى تحكي عن أعماق النفس الإنسانية في حب الخير، ولكن الإمكانات التي يمتلكها قد لا تساعده على إدراك على ما ينويه من فعل الخير وأفضل الأعمال.

أما الإمام جعفر الصادق عليه السلام فيتجه بالحديث الشريف إتجاهاً

يخامر ما تكنه الضمائر، وما تضطم عليه القلوب فيقول: «نية المرء خير من عمله، لأن العمل ربما يكون رياءً للمخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين، فيعطي عز وجل على النية ما لا يعطي على العمل».

وهذا المنظور للحديث الشريف في تعليله وتقييمه يحمل من الدقة والتعليل الأصيل ما يرتفع بمستوى عمل الإنسان إلى صفاء النية وخلوص العمل، وصدق الموقف.

والأعمال الصالحة لها مجالاتها المتعددة وفصائلها المتعددة التي تشمل كثيراً من المفردات والمصاديق المؤدية إلى الطرق السليمة أداءً وامتثالاً، وقد يتعذر حصرها وإحصاؤها.

وقد روي أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له:

«يا رسول الله علمني عملاً إذا أنا عملته دخلت الجنة».

فقال صلوات الله عليه: «لا تشرك بالله شيئاً وإن عذبت وحرقت، وأطع والديك وإن أخرجاك من مالك ومن كل شيء هولك، لا تترك الصلاة متعمداً، فإن من ترك الصلاة متعمداً، فقد برئت منه ذمة الله».

وهذا هو جنس العمل الذي حدده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكبريات القضايا التي تتفرع عليها جملة من الجزئيات، وكلها تفضي بالعبد إلى الجنة وتتلخص بوضوح وشفافية لا عنت فيها ولا عسر: إلى الاعتصام بالتوحيد والإخلاص لله تعالى وحده لا شريك له، ونبذ الأنداد

والأضداد والنظير والمثيل والشبيه حتى مع التعذيب والتحريق، والبر بالوالدين وإطاعتهما في تنفيذ أوامرهما حرفياً حتى وإن أخرجا ولدهما من ماله وعما يملك، وهو ما لا نشاهده في هذا العصر إلا لماماً.

وكذلك الحفاظ على الصلاة وعدم تركها أو الاستخفاف بها لأنها عمود الدين، وشعار الصالحين، والكتاب الموقوت والمفروض على الناس، والترك المتعمد لها مما تبرأ منه ذمة الله تعالى.

وقد ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«أحب الأعمال إلى الله عز وجل ما داوم عليه العبد وإن قلّ» وهذا يشير بل يصرح أن الاستمرارية في أداء الأعمال ضرورية، وهي أحب الأعمال إلى الله عز وجل، قلت أو كثرت، المهم في الأمر استدامة العمل وإن قلّ.

وقد جاء في الحديث الشريف: «أن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم ولكن ينظر في قلوبكم وأعمالكم».

وهذا النظر العرفاني لا يتمثل بالصور والأشكال، وإنما يتجاوز ذلك إلى القلوب والأعمال، القلوب في صفائها، والأعمال في نقائها، فطوبى لنفسٍ أدت إلى بارئها واجبها، ومحض الإخلاص في أفضل أعمالها.

وقد كان من خطاب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي سيد الأعمال ثلاث خصال: إنصافك الناس من نفسك، ومواساتك الأخ في الله عز وجل، وذكرك الله على كل حال».

وهذه الخصال الثلاث تستوعب كمال النفس الإنسانية، ولا يتوافر مثالها إلا في نفوس متعلقة بالله تعالى في الإنابة والاتكال ومتمسكة بحبل متين من الإيمان والتسليم المطلق، وليس بالأمر الهين الضغط على النفس الأمارة بالسوء أن تنصف الناس على حسابها، وأن تكون أمثولة للمؤاخاة والمواساة في جنب الله عز وجل، أما ذكر الله على كل حال فذلك من سمات الصديقين وسيماء الأبرار ودرجة المقربين.

وليس غريباً أن يقول أمير المؤمنين في هذا الميزان:

«أشد الأعمال ثلاثة: ذكر الله على كل حال، ومواساة الأخوان بالمال، وإنصاف الناس من نفسك».

فهذه ترجمة حرفية لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهما يصدران عن منبع واحد ويصبان في رافد واحد.

وبعد خلوص النية ونقاء الإرادة وصلابة التصميم، تأتي الأعمال التي تقرب المرء زلفى من الله عز وجل، وهذا باب متلئب متكاثف الظلال في تفرعاته الكثيرة التي تستقطب خير الدنيا والآخرة.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«من أعطي أربع خصال في الدنيا فقد أوتي خير الدنيا وخير الآخرة وفاز بحظه منها: ورع يعصمه من محارم الله، وحسن خلق يعيش به في الناس، وحلم يدفع به جهل الجاهل، وزوجة صالحة تعينه على أمر الدنيا والآخرة».

وتلكم الخصال لو تحققت عند المرء فهي من هبات الله الجزيلة التي

ينبغي أن تقابل بالحمد والشكر، لأنها من آلائه الغزيرة التي لا يوازيها شيء، ولا يضارعها إلا رضا الله تعالى عن الإنسان، وذلك أن الورع ملاك الطاعة القصوى، وهو الذي يحدد سلوك الكائن الحي في العلاقة بين شهوات النفس، وفي العصمة التي تمسك الإنسان بقوة وعرفان عن اجتناب المآثم وارتكاب المحارب، وبذلك يكون عمله مقبولاً، وسعيه مشكوراً، وأنى بذلك؟ وأما حسن الخلق فهو الوسيلة الفضلى للتعايش السلمي والتربوي بين الناس، فإذا أضيف إلى ذلك الحلم فقد أجتمع له الخير من جهاته كافة، فإذا دعم ذلك بالزوجة الصالحة التي تعينه على أمر الدنيا والآخرة، فهو في بحبوحة من النعيم بفضل من الله عز وجل.

وهناك من الأعمال ما يقيم أود الإنسان، ويحله في المرتبة العليا من الأداء الإلهي، فقد طلب أبو الجارود زياد بن المنذر من الإمام الباقر عليه السلام أمراً يدين به الله تعالى، فقال الإمام أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام: نعم يا أبا الجارود، شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا، وعداوة عدونا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا، والورع والاجتهاد».

أقول: ما نطق به الإمام محمد الباقر عليه السلام وما أفاضه على أبي الجارود يعدّ من جوامع الكلم، وجماع معالم الدين في الأصول والفروع، وذلك إن الإمام عليه السلام قد أجابه لطلبه لتعلم أمر يدين به الله عز وجل،

فبدأ الإمام بالركيزة الأولى وهي التوحيد، ثم النبوة، والإقرار بهما منهجاً واعتقاداً ثم استوعب في حديثه فروع الدين في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام.

ووقف الإمام عند الولاية الإلهية لأهل البيت عليهم السلام والبراءة من أعدائهم والتسليم بأمرهم والسير بركابهم، وانتظار فرج قائمهم عجل الله تعالى فرجه الشريف كما وصاه بالورع والاجتهاد، ويترشح منهما، ويتفرع عنهما العفة والسداد كما قال أمير المؤمنين عليه السلام حين ألقى بعض الضوء على سيرته المثلى في الزهد والتقوى فقال مخاطباً أولياءه: «ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد».

ومن أفضل الأعمال وأسماها درجة ومنزلة الالتزام بوصايا أمير المؤمنين لأصحابه فقد أوصى رجلاً بقوله: «خذ مني خمساً: لا يرجون أحدكم إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحي أن يتعلم ما لا يعلم، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، وأعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد».

وفي هذا زبدة ما يبذله من يوصي الناس بهذه المثل العليا، رجاء الله وحده وخوف الذنب، والحث على طلب العلم، وعدم الاستحياء من قولاً أعلم إذا لم يعلم، والصبر على مكاره الدهر، لأنه بمنزلة الرأس من الجسد، فيه الحياة وعليه المعوّل في الفكر والنظر والسمع والنطق وسوى ذلك.

ويجد أمير المؤمنين عليه السلام في نصائحه القيمة لأوليائه، ويكررها

على أتباعه، لتهذيب السلوك، وإقامة التوازن المراد بين الدنيا والآخرة، وذلك في شذرات ثمينة من توجيهاته التي لو التزم بها الناس، لكانت كلمة الله هي العليا في الأرض، وكلمة أعدائه هي السفلى، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام لنوف البكالي، وقد بايته ليلاً:

«يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا أرض الله بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والكتاب شعاراً، والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح بن مريم».

وهذه الوصايا هي الجذور المتأصلة للقديسين من الأولياء، ولا يقوى عليها كل أحد بيد أن لكل قوم قدوة، ولكل طائفة مقربين، وأولئك القدوة والمقربون هم الضوء الذي يهدي على آثاره السالكون.

أما الطبقة العامة من الناس فقد أوصاها الإمام بالتقوى وهو من أفضل الأعمال، وأنى به هذا اليوم، فقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «أتق الله بعض التقى وإن قلّ، وأجعل بينك وبينه ستراً وإن دقّ.

وهذا امتداد لما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عامة الناس في الحديث الشريف: «اجتهدوا في العمل، فإن قصّر بكم ضعف فكفّوا عن المعاصي».

وهذا من أبلغ القول وأشمله، إذ قد تصيب المرء فترة من الاجتهاد، وسنة عن الامتثال المتكافيء، وقصور أو تقصير في الأداء، فلا أقل من اجتناب المعاصي والكف عنها.

وهذا بالضبط مما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام موضحاً:

«إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فأقتصروا على الفرائض».

ومن أفضل الأعمال إسداء المعروف، ومكافئة من أسدى للآخرين معروفاً، وإذا لم يقدر على ذلك دعا لصاحب المعروف فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له».

وقد أكد رسول الله صلوات الله عليه عمل المعروف، والجد في تحقيقه وأضاف له صدقة السر، وصلة الرحم، بما لا يحتاج إلى شرح أو إيضاح، فهو أفصح من نطق بالضاد، قال صلى الله عليه وآله:

«صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر».

وأكد صلوات الله عليه على صلة الأرحام بما تيسر فقال:

«صلوا أرحامكم ولو بالسلام».

وقال الإمام أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام:

«صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسئ الأجل».

فيا لها من بشرى وموعظة لمن يصل رحمه، فيزكو عمله، وينمو ماله،

وتدفع البلوى عنه وتيسر الحساب [يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنون] وتؤخر في الأجل، فتطول الأعمار.

ولقد ورد في الحديث الشريف:

«لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدي به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه».

فمن أجل صلة الأرحام، وأداء الأمانة، والاستغناء عن الناس، نفي الخير عمن لا يحب المال، ففيه هذه الفضائل من الأعمال.

وبعد هذه الإشارات الروحية، والإفاضات في الأعمال التي تقرب زلفى من الله عز وجل تتوجه حضارية أهل البيت إلى التحدث عن طلب الرزق، وتهيئة المعاش، وشرف العمل اليدوي، والحث على ذلك ليصون المرء ماء وجهه، ويتجنب صدقات الآخرين، ويعيل أهله، وذلك في عدة أقوال، وتراث من الأفعال وتطبيق عملي لذلك.

فقد ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لئن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه».

لأن في العمل شرف أي شرف، وفي السؤال ذل أي ذل. وقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام بتطبيق هذا الأمر عملياً في عدة شواهد، لا يستطيع البحث إحصاءها، بل يورد منها ما هو على سبيل الأنموذج والمثال:

شكا رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفقر، فأعطاه درهمين، وقال له:

«أذهب فأشتري بأحدهما طعاماً، وبالآخر فأساً، وأحتطب وبعْ، فغاب الرجل خمسة عشر يوماً ثم أتى فقال: يا رسول الله بارك الله فيما أمرتني به، اكتسبت بعملي عشرة دراهم، فاشتريت لأهلي بخمسة دراهم، وبخمسة كسوة، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا خير لك من المسألة».

وقد أثار رسول الله مسألة الناس لواذا وإلحافاً، وكلاهما غير محمود، فالسؤال يعني الاستجداء، والاستجداء قد يعني الاستخذاء، وكلاهما مذمومان، وقد يتعاهد المرء المسألة حتى مع الاستغناء، فتكون له عادة، والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يريد من المسلم أن يكسب قوته بنفسه، ولا يسأل أحداً، فالسؤال ذلٌّ والمسلم ينبغي أن يكون عزيزاً، والكسب عمل، بل هو من أفضل الأعمال في النظرية والتطبيق، والله يحب من يتمتع بطيبات الدنيا بكسب يده، وجهد بدنه، وتصبب عرقه، ويبغض العاطل الفارغ من أعمال الدنيا والآخرة.

وقد كان أمير المؤمنين عاملاً بكد يمينه، جاعلاً كسبه المعاشي إلى جنب ورده العبادي، ولا تستغرب أن تجد أمير المؤمنين عليه السلام قد عمل فلاحاً طيلة ربع قرن من الزمان، وذلك حينما أقصي عن الولاية العامة، وقامت مرجعية الصحابة، وكان ينتضح على ناضح له خارج المدينة، وله مزرعتان هما: (أبو نيزر) و(البغيبغة) وقد أحيا أرضهما بجهده وكّده، والأرض لمن

أحياها في الشريعة الغراء، ولم يشغله هذا عن عبء الإمامة، فالإمام إمام مفترض الطاعة، نافذ القول حكم أو لم يحكم. ولقد اقتدى الأئمة الطاهرون عليه السلام بأمير المؤمنين عليه السلام فيما حدب عليه من العمل الكسبي والمهن الحرة.

قال محمد بن المنكدر: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة، فلقيت أبا جعفر محمد بن علي (يعني الإمام الباقر عليه السلام) وكان رجلاً بادناً، وهو متكئ على غلامين، فقلت في نفسي: سبحان الله شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا، أما لأعظه، فدنوت منه،فسلمت عليه فردّ عليّ بنهر، وهو يتصبب عرقاً، فقلت أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذا الحال في طلب الدنيا.. أرأيت لو جاءك أجلك وأنت على هذه الحال ما كنت تصنع؟ فقال: لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال، جاءني وانا في طاعة من طاعة الله، أكفّ نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف أن لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله، فقلت صدقت يرحمك الله، أردت أن أعظك فوعظتني.

وقال أبو عمرو الشيباني: أنه رأى الإمام جعفر الصادق عليه السلام وبيده مسحاة، وعليه أزار غليظ، وهو يعمر في حائط له، والعرق يتصبب على ظهره، قال: فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك!!، فقال إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة».

أرأيت هذا التوجه الإنساني وهذه النقلة الحضارية التي يضرب بها أئمة أهل البيت المثل الأعلى للعمل والكفاح في سبيل العيش والكسب المشروع، دراً للبطالة وإعزازاً للنفس في توطينها على القيام بمتطلبات العيال ومن هم في مؤونته.

ولا تعجب في هذا ومنه، وأنظر فيما كتبه ورّام في كتابه:

«أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يحتطب، ويستقي ويكنس، وكانت فاطمة الزهراء عليها السلام تطحن وتعجن وتخبز، ومع عمل أمير المؤمنين عليه السلام المضني، والسنين التي أمضاها في الحرث والغرس والسقي وإعمال الأرض فنجده لم يحتجن لنفسه شيئاً، فما عمره وأحياه، في الضيعتين «أبي نيزر» و«البغيبغة» جعلهما - فيما يروي - وقفاً على فقراء المدينة وأبن السبيل. ونص كتابه في ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما تصدق به علي أمير المؤمنين، تصدق بالضيعتين المعروفتين وبعين أبي نيزر والبغيبغة على فقراء أهل المدينة وأبن السبيل، ليقي الله بهما وجهه حر النار يوم القيامة، لا تباعا ولا توهبا حيث يرثهما الله وهو خير الوارثين، إلا أن يحتاج إليهما الحسن والحسين فهما طلق لهما، وليس لأحد غيرهما».

فلحق الإمام الحسين عليه السلام دين فبعث له معاوية بمائتي ألف دينار بعين أبي نيزر فأبى أن يبيع، وقال: «إنما تصدق بها أبي ليقي الله وجهه حر

النار، ولست بايعهما بشيء».

والعمل شرف وليس كل أبعاده طلباً للدنيا، ولا مانع أن يتملى من ذلك بالقدر الموزون رحمة بآله وعياله من بعده، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

وقد وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البكور في طلب الرزق والتماس الحوائج فقال: «باكروا في طلب الرزق والحوائج، فإن الغدو بركة ونجاح».

وكان مما ذكر في مسيرة الإمام الصادق عليه السلام أن أصحابه وتلامذته كان يزاولون الأعمال الحرة، ومهن مختلفة، وأشغالهم متواترة، ومنهم: بياع السابري، وبياع اللؤلؤ، وبياع الحنطة، والطحان، والبزاز، والقزاز، والزراد، وسواهم من أصحاب المهن، وهم جميعاً من العلماء وحملة الحديث، وأسرار هذا التوجه عرضنا له في كتابنا: (الإمام جعفر الصادق زعيم مدرسة أهل البيت).

وكان من هؤلاء عمران بن عبد الله بن سعد الأشعري، وكان قد صنع مضارب الإمام الصادق عليه السلام من الكرابيس وأهداها إليه وقال: إن الكرابيس من صنعتي وعملتها لك، فأنا أحب جعلت فداك أن تقبلها هدية، فقبض أبو عبد الله عليه السلام على يده ثم قال:

«أسأل الله أن يصلي على محمد وآل محمد وإن يظللك وعترتك يوم لا

ظل إلا ظله».

ومن أفضل الأعمال أداء الصلاة بشروطها وسننها وآدابها، والمبادرة إليها وعدم التسويف بأوقاتها، والتهيأة لها، والأعداد لمتطلباتها، فقد قالت عائشة أم المؤمنين:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه».

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«لا يزال الشيطان ذعراً من المؤمنين ما حافظوا على الصلوات الخمس...».

وعن الأمام الصادق عليه السلام: «صلوا من المساجد من بقاع مختلفة، فإن كل بقعة تشهد للمصلي عليها يوم القيامة».

ولا يكتفي في الصلاة المفروضة، بل هناك توجيه مؤكد بالندبة إلى صلاة الليل وحسبنا من ذلك قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم:

«عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء من الجسد».

ويأتي بعد هذا ذكر الله عز وجل على كل حال، فإن ذكره شفاء للأرواح والأبدان، وقد ورد في الأثر قول رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم: «ما من قوم أجتمعوا يذكرون الله عز وجل لا يريدون إلا وجهه، إلا ناداهم من السماء: قوموا مغفوراً لكم، فقد بدلت سيئاتكم حسنات».

ولمواصلة المسيرة في الحياة الدنيا فيما يسدد شأنها وشان الآخرة، لا بد من تنظيم ذلك وانتظامه بأمر الناس واستقرار حياتهم في ظل ذلك من خلال توافر بعض الظواهر الاجتماعية، متمثلة بأعيانها وأشخاصها لتسيير نظام الحياة بالتي هي أحسن، والعمل الجاد الدءوب على إيجاد الفرص لتحقيق ذلك بتمام الكمال، فإذا لم يتوافر ذلك، فالناس هم الهمج الرعاع.

هذا الملحظ الدقيق يوضحه الإمام الصادق عليه السلام بما روي انه قال:

«لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاثة يفزع إليهم في أمر دنياهم وآخرتهم، فإن عدموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة».

وقد حدب الإمام محمد الباقر عليه السلام على تحقيق التكامل الحضري للإنسان من خلال ثلاثة أمور تحقق ذلك، فروي عنه أنه قال:

«الكمال كل الكمال، التفقة في الدين، والصبر على النائبة، وتقدير المعيشة» وصدق عليه السلام في ذلك.

والكمال إنما يتحقق في ضوء الفقاهة وإتقانها، والوقوف عند أحكام الشريعة الغرّاء والتبصر بأوامر الله ونواهيه، وعزائمه ورخصه، وواجباته ومستحباته، ومباحاته ومكروهاته والعمل في ظل ذلك عسى أن يرتفع إلى

مستوى التفقة في الدين، وأما الصبر على النائبة فهو مظنّة رضا الله تعالى، وهو تحييد للمناخ النفسي من الجزع والفزع، وإذا لم يصبر الإنسان على النوائب فماذا يفعل؟ والروايات بالمئات تشير إلى مدى الثواب الجزيل والأجر لدى الصبر على ما يصاب به المرء في نفسه أو ماله أو ولده، نسأل الله العافية.

وثالثة الكمال الإنساني عند الإمام الباقر: «تقدير المعيشة» والتقدير وضع الشيء في موضعه المناسب، فلا يتعداه إلى ما سواه، ولا يقصر في غايته ومداه، فلا إفراط ولا تفريط، ولا شح ولا تبذير، وإنما هو الاقتصاد والاعتدال بين ذلك، وهذا ما تسالم عليه عقلاء الناس، وقد ورد في الأثر «ما عال من أقتصد» والتقدير نوع من الاقتصاد المتوازن.

ومن أفضل الأعمال ضبط النفس، ووقوفها عند الشبهات وتنزيهها عن الشهوات والابتعاد بها عن مظنة الانزلاق في متاهات لا أول لها ولا آخر، ذلك كله من أجل الحفاظ على الكرامة الإنسانية، وصيانة الذات من التدهور والانحلال، وخلق مجتمع أفضل، يسيطر على النفس ويجانب الهوى ويدرأ المعاصي، ويواكب شرف الذات الإنسانية المثلى، وفي هذا الضوء نضع أيدينا على ثلاثة أحاديث لأمير المؤمنين علي عليه السلام، يستدعي بعضها بعضاً ويأخذ أولها بوهج آخرها.

قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

١ - «من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته». لأن كرامة النفس وتكريمها يدعوان إلى تنزيهها عن الشهوات، وتدنيسها بالأوزار والأوضار،

والنأي بها عن مضان الإثارة.

٢ - وقال عليه السلام بصياغة بلاغية أخرى: «من كرمت عليه نفسه لم يهنها بالمعصية». وذلك أن الكرامة تأبى المعاصي، والمعاصي لا تبقي على كرامة، فهما على طرفي النقيض، ولا يجتمعان، فأما الكرامة وأما المعاصي.

٣ - وفي معان إضافية قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من شرفت نفسه نزهها عن ذلة المطالب». وذلك أن النفس الشريفة عزيزة، والعزة تأبى الدنايا من الأمور، والتوافة من المطالب، فذلك هو الإذلال للنفس ذات الشرف.

وقد جمع ملاك ذلك الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام بالقول: «من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا ».

فالدنيا إذا اصطدمت بعزة النفس، وإباء الروح، فهي أهون على ذي الكرامة من كل شيء حتى لا تعود شيئا ذا بال في حياته، ولقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ساعة ذل لا تفي بعز الدهر».

ومن أفضل الأعمال: الحفاظ على الوقت من الضياع واغتنام العمر فيما يحقق أداء الحقوق وكسب الحمد، ومتابعة الفرض، واقتباس العلم «فمن استوى يوماه فهو مغبون» وعن أمير المؤمنين: «من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداة، أو مجد بناه، أو حمد حصّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه».

وهذا منتهى الاحتياط في حفظ الأعمار من الإسراف فيما لا ينفع، أو تصريف الأيام بما لا عائدية فيه، أو تضييع الساعات بالهذر والهذيان، ولا بد

للإنسان من معاينة ذلك بعين الاعتبار والنظر الثاقب، فغياب أي يوم من حياة الإنسان ينبغي أن يكون في إمضاء حق يقضى وفرض يؤدى، ومجد يبنى، وحمد يحصل، وخير يؤسس، وعلم يقتبس، وإلاّ فالعمر هباء.

روي أنه دخل سفيان الثوري على الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فقال: علمني يا أبن رسول الله مما علمك الله، فقال:

«إذا تظاهرت الذنوب فعليك بالاستغفار، وإذا تظاهرت النعم فعليك بالشكر، وإذا تظاهرت الغموم فقل: «لا حول ولا قوة إلّا بالله» فخرج سفيان الثوري وهو يقول: ثلاث وأي ثلاث.

وهذا كله موصول بقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بما يروي أنه قال:

«من تظاهرت عليه النعم، فليقل: الحمد لله رب العالمين، ومن ألح عليه الفقر فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإنه كنز من كنوز الجنة، وفيه شفاء من اثنين وسبعين داء، أدناها: الهم»

وللحوقلة معانٍ عرفانية جليلة كشف عنها الإمام محمد الباقر عليه السلام فقد روى المجلسي في (بحار الأنوار) عن جابر الجعفي قال:

سألت أبا جعفر عليه السلام عن معنى «لا حول ولا قوة إلّا بالله» فقال:

«معناه لا حول لنا عن معصية الله إلّا بعون الله ولا قوة لنا على طاعة الله إلّا بتوفيق الله».

وهذا أحد المعاني المهمة، ولها مصاديق لا تحد بحدود معينة، وقد علمنا الله سبحانه وتعالى، وأرشدنا إلى قول (لا حول ولا قوة إلّا بالله) لأنه هو العلي العظيم القادر الذي بيده الحول والقوة مطلقاً.

وقد ورد في هذا الشأن: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«ليلة أسري (بي) مرّ بي إبراهيم عليه السلام فقال:

«مر أمتك أن يكثروا من غرس الجنة، فإن أرضها واسعة، وتربتها طيبة». فقلت له: ما غرس الجنة، فقال: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله».

وتترى الإرشادات القيمة من أهل البيت في الحث على فضائل الأعمال في شتى طيوفها، ففي ثواب الأعمال عن معاذ بن مسلم الهراء قال:

كنت عند الإمام أبي عبد الله (يعني الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فذكروا الوجع يعني المرض، فقال الإمام:

«داووا مرضاكم بالصدقة، وما على أحدكم أن يتصدق بقوت يومه، إن ملك الموت يرفع إليه الصك بقبض روح العبد، فيتصدق، فيقال له: ردّ عليك الصك».

وورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «من سألكم بالله فأعطوه، ومن استعاذ فأعيذوه، ومن أهدى غليكم كراعاً فاقبلوه».

وإجابة السائل من أفضل الأعمال، وإعاذة المستعيذ من المروءة، وقبول

الهدية من الكرامة، والله يريد تكريم الإنسان.

ومما هذب به الأئمة عليهم السلام أولياءهم وأتباعهم بل الإنسانية جمعاء إعطاء الصدقة، والتقرب إلى الله عز وجل بالإيثار، فورد عنهم:

«الصدقة تدفع البلاء وقد أبرم في السماء إبراماً ».

كما ورد في صدقة السر «أنها تطفئ غضب الرب» وهكذا قال المفضل بن قيس: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام الإمام الصادق فشكوت إليه بعض حالي وسألته الدعاء، فقال: يا جارية هات الكيس فجاءت بكيس، فقال: هذا فيه أربعمائة دينار فأستعن به، فقلت لا والله ما أردت ذلك، ولكن أردت الدعاء!! فقال عليه السلام: «لا ادع الدعاء، ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت عليه فتهون عليهم».

وختام الحادثة نصيحة ثمينة جداً، أن المرء ينبغي له أن لا يحدث الناس بكل ما هو عليه من الفاقة والاحتياج بل الأمراض والأعراض والابتلاء.

ومن طرائف هذا الباب أن سأل رجل الأمام الحسن بن علي عليهما السلام، فقال له الإمام: مرحباً بمن توسل إلينا بنا، ثم وصله وأكرمه.

وندب التراث الحضاري عند أهل البيت إلى عيادة المرضى، وزيارة الأخوان في الله، وإصلاح ذات البين، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «امش ميلاً وعد مريضاً ، وامش ميلين وزر أخاً في الله، وامش ثلاثة أميال وأصلح بين اثنين».

وزيارة قبور الأخوان والأحبة، تذكر باليوم الأخر، وقد تمنع ذي الرأي

الناهض عن الذنوب وتكفه عن المعاصي، مضافاً إلى الثواب العميم، وقد ورد عن الإمام الجواد عليه السلام أنه قال:

«من زار قبر أخيه ووضع يده على قبره، وقرأ إنّا أنزلناه في ليلة القدر سبع مرات، أمن من الفزع الأكبر».

ولا غرابة في هذا، وكرم الله تعالى لا تحده حدود فهو الكريم الوهاب، وهو الرزاق ذو القوة المتين، وهو المعطي والمتفضل، يجازي على كريم الأعمال، بما شاء له كرمه وجوده وكبرياؤه وعزته، فقد روي أن إعرابياً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يا رسول الله من يحاسب الخلائق يوم القيامة؟ فقال صلوات الله عليه: «الله عز وجل» قال الإعرابي: نجونا ورب الكعبة!!

فقال صلى الله عليه وآله: «وكيف ذاك يا إعرابي؟» قال: لأن الكريم إذا قدر عفا.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«وأيم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلّا بذنوب اقترفوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى، فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم، لرد عليهم كل شارد، وأصلح كل فا سد».

وهؤلاء قوم قصروا بأعمالهم فأمسك الله من نعمه عليهم، بذنوبهم وعيوبهم، فما شكروا ولا استغفروا، ولا فزعوا إلى الله بل ضلوا بطغيانهم وجبروتهم، فنزع الله نعمته منهم، وأحلهم دار البوار.

ومن أفضل الأعمال الوقوف عند الشبهات والاحتراز من الوقوع في المهالك، فقد حدث السكوني عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عن عليّ أمير المؤمنين أنه قال:

«الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وتركك حديثاً لم تروه خير من روايتك حديثاً لم تحصه، وإن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه».

والالتزام بهذا الأمر من الورع وهو من أفضل الأعمال، وفيه الأمر بترك ما خالف كتاب الله، والأخذ بما وافق كتاب الله.

وقد كرر الإمام الصادق عليه السلام فيما يروى هذه الوصية عن سفيان الثوري. ومن أرقى درجات الأعمال الفاضلة، أن يمكن الإنسان من قضاء مهام إخوانه، ويوظف عمله عند السلطان في إغاثة الملهوف، وإسعاف ذي الحاجة، فقد ورد بما معناه: أنَّ من فضل الله عليكم، حاجة الناس إليكم، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «منفعة الإخوان كفارة عمل السلطان».

وقال الصادق عليه السلام أيضاً: «إن لنا في أبواب الظلمة من نوّر الله به البرهان، ومكّن له في البلاد، فيدفع به عن أوليائه، ويصلح به أمور المسلمين».

فضائل العلم ومنازل العلماء

للعلم أهمية خاصة في تراث أهل البيت الحضاري فـ «العلماء ورثة الأنبياء» و«علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل» وحسب العلم والعلماء أن قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

وتتوالى الأحاديث الشريفة في إعلاء شان العلم وبيان منازل العلماء، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة».

---

(١) سورة الزمر / ٩.

(٢) سورة المجادلة / ١١.

وهذا التشبيه التمثيلي الذي اعتبر العلماء في هدايتهم للعقول،كالنجوم في هدايتها للسراة، فكما يضل السارون إذ انطمست النجوم، فكذلك يضل المتعلمون إذا فقد العلماء.

وقد لخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضيلة العلم في جمعها لخير الدنيا والآخرة، وتحقيقها لهدف الإنسان في سعيه، وحثه في ذلك على طلب العلم، فعنه (صلى الله عليه واله) أنه قال: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم».

وورد في الأثر ما معناه إذا خرج طالب العلم لطلب العلم ظللته الملائكة بأجنحتها حتى يرجع».

وتحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن منازل العلماء، وكونهم أمناء الرسل ما لم ينحازوا إلى سلطان أو ظالم أو جائر، ممن يجعلون الدين سبيلا إلى مداخل الدنيا، حينذاك، يخون أولئك الأمانة، ويخونون الرسل. فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان،فإذا خالطوه،وادخلوه الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم».

وعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لأصحابه.

«تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والحلم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء..».

والتواضع شيمة العلماء، والتجبر صفة الطواغيت، وقد أمر العلماء

بالتواضع والحلم إلى جنب المعرفة والعلم.

ومن تعليمات أمير المؤمنين عليه السلام في صقل روح من نصب نفسه لقيادة الأمة، وما له وما عليه في تعليم نفسه وتعليم غيره، فقد روي عنه سلام الله عليه أنه قال:

«من نصب نفسه للناس إماما، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه "والذي عليه طغاة الحاكمين فيما مضى واليوم أن تركوا العلم، وأهملوا تعليم أنفسهم، ودأبوا على أخذ الرشوات، واختلاس أموال الدولة، فجمعوا ما يخشاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هلاك الأمة في مثل ذلك، فقد روي عنه انه قال:

«هلاك أمتي في شيئين: ترك العلم، وجمع المال».

وقد قسم أمير المؤمنين (عليه السلام) الناس على ثلاثة أصناف، فقال: «الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع ينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كل ريح، لا يستضيئون بنور العلم، ولا يلجئون إلى ركن وثيق».

وقد شخص الإمام الصادق عليه السلام هذه الأصناف الثلاثة في ضوء الإعلان عن حقائق الأشياء، فقد روي انه قال «الناس عالم، ومتعلم، وغثاء، فنحن العلماء، وشيعتنا المتعلمون، وسائر الناس غثاء».

وعن أمير المؤمنين في بيان شرف العلم انه قال «كفى بالعلم شرفا أن يدعيه ما لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه

من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه».

وهذه حقيقة معاصرة شاهًا في ذلك شان العصور قديمها وحاضرها. ولقد روي عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في بيان فضل من علم على المتعلم، انه قال «من علم شخصا مسالة فقد ملك رقيته (رقبته) فقيل له: أيبيعه؟. فقال – صلوات الله عليه –: لا، ولكن يأمره وينهاه».

ويتفرع عن هذا ويترشح منه، ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: «من علمني حرفا ملكني عبداً».

ووظيفة أهل العلم تعليم الناس، والحرص على إفادهم علم محمد وال محمد، وإنقاذهم من الظلمات إلى النور فيما يستطيعونه. فعن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى اخذ على أهل العلم أن يعلموا».

وروي «ما اخذ الله على العلماء أن يعلموا حتى أخذ عليهم أن يعلموا».

ولقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام هم العلماء الحقيقيون الذين حدبوا على توجيه الناس وتعليمهم، وخلق جيل صاعد متقدم في علوم القران والحديث الشريف والفقه والأصول، ويكفيهم بهذا شرفا آلاف الطلاب والمتعلمين على أيديهم الطاهرة، فأصبحوا ببركتهم من القادة الهداة، والدعاة إلى الله عز وجل.

وقد أثنى الإمام الصادق عليه السلام على تلك الطبقات الفضلى من

حملة العلم والدين، فروي انه قال: «ما أحد أحيا ذكرنا، وأحاديث أبي إلاّ زرارة، وأبو بصير ليث المرادي، ومحمد بن مسلم، ويزيد بن معاوية العجلي. ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا. هؤلاء حفاظ الدين، وأمناء أبي على حلال الله وحرامه،وهم السابقون إلينا في الدنيا،والسابقون ألينا في الآخرة».

وقد ورد في المأثور: (مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء). وليس العلم في الطلب وحده،ولكنه في الطلب والإنابة والتوفيق وصدق النية، فقد ورد عن أهل البيت - عليهم السلام - القول: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

وروي عن الشافعي أنه قال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

وكان مما أوصى به الإمام الصادق عليه السلام عنوانا البصري «...اسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة، وإياك أن تعمل برأيك شيئا، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا، واهرب من الفتيا هروبك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً».

وقد قيل: ما من شيء أشدّ على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلّم بعلم، وان سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: «سكوته أشدّ من كلامه».

* * *

كان أمير المؤمنين - عليه السلام - قد أوصى كميل بن زياد النخعي بالقول: «يا كميل، هلك خزان الأموال،والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

ومن أمثاله السائدة بالمقارنة بين العلم والمال وسوى ذلك، اعتبر أمير المؤمنين «العلم يزكو على الإنفاق» كما أن المال قد ينفذ بالإنفاق.

وقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «كل وعاء يضيق بما وضع فيه إلا وعاء العلم فانه يتسع». وهذا ما نشاهده خبرة وعيانا.

وكان أمير المؤمنين نفسه موئل العلم، والملجأ في الفتيا، وعليه المعول في شدائد المسائل، ومعضلات المشاكل، وإحداث ذلك أكثر من أن تحصى، ونموذج من علمه اللدني بذكره، يؤكد ما لم نذكر، فقد روي أن عمر بن الخطاب جئ له بستة رجال شهدوا عليهم بالزنا، فلما تمت أربع شهادات أمر بان يجلد كل منهم مائة جلدة، وكان علي أمير المؤمنين حاضراً فقال: «ليس هذا حكمهم، فقام عمر من مكانه، وقال تقدم يا أبا الحسن فاحكم فيهم بحكم الله، فكان الحكم كالآتي: - ضرب الأول على عنقه بالسيف، وقدم الثاني فرجمه، وقدم الثالث فجلده مائة جلدة، وقدم الرابع، فجلده خمسين جلدة، وقدم الخامس فعزره، وقدم الخامس فأطلق سراحه.

ويبدو إن الإمام استجوبهم وعرف تفصيل أحوال كل منهم حينما زنى، فسأله القوم وعمر عن هذه الأحكام المتفاوتة في موضوع واحد، فقال الإمام، والعهدة على من روى ذلك.

أما الأول. فهو ذمي زنى بمسلمة، فخرج عن ذمته، ونقض ميثاقه فضل.

وأما الثاني فهو محصن، والمحصن اذا زنى فحده الرجم.

وأما الثالث فهو غير محصن، فحده أن يجلد مائة جلدة.

وأما الرابع فهو رق، والرق اذا زنى يجلد نصف الحد فجلدناه خمسين جلدة.

وأما الخامس: فانه وطأها شبهة، فحكمة التعزير.

وأما السادس: فهو مجنون مغلوب على عقله،سقط عنه التكليف، ولا يقام عليه الحد».

وكانت الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين،ملجأ نساء المسلمين في الإفادة منها، ومسائلها بالعلم وأحكام الشريعة، على قصر المدة وشدة الفتنة.

فقد روي أن امرأة حضرت عندها، وقالت لها: إن لي والدة ضعيفة، وقد لبس عليها في أمر صلاتها، وبعثتني أسالك، فقالت الزهراء - عليها السلام -: «سلي ما شئت" فسالت عن مسالة فأجابت عنها الزهراء، ثم ثنت وتلفت حتى سألت عن عشر مسائل والزهراء تجيبها، ثم قالت: لا أشف عليك يا ابنة رسول الله، فقالت عليها السلام: «هاتي وسلي عما بدا لك!! أرأيت من أكترى يوما ليصعد إلى سطح بحمل ثقيل، وكراه مائة ألف دينار، أيثقل عليه؟ قالت المرأة لا، فقالت الزهراء - عليها السلام -: «اكتريت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء مابين الثرى إلى العرش، فأحرى أن لا يثقل علي.

(فسلام الله على الزهراء يوم ولدت، ويوم ماتت، ويوم تبعث).

ومسيرة علمائنا الأعلام، وفقهائنا الأمناء، في استمرارية متصاعدة من عهد الأئمة إلى عصر الغيبة إلى عصرنا هذا، مستندين في ذلك إلى علم أهل البيت الذي لا ينضب، وهو عن رسول الله عن الله تعالى، فعن الإمام الباقر انه قال " لو كنا نغشي الناس برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكنا نغشيهم بآثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصول علم نتوارثها كابرا عن كابر، فكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم، وفضتهم».

وعن الإمام الحسين - عليه السلام - انه قال: «علم الناس، وتعلم علم غيرك، فتكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم، والسؤال نصف العلم».

وعن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «وجدت علم الناس كله في أربع:

الأول: أن تعرف ربك.

الثاني: أن تعرف ما صنع بك.

الثالث: أن تعرف ما أراد منك.

الرابع: أن تعرف ما يخرجك عن دينك.

وحديث الإمام الصادق عليه السلام لا ينظر فيه إلى موضوع العلم الذي يبحث فيه عن عوارضه الذاتية فحسب، وإنما يتعدى ذلك إلى العلم

بالفيض الإلهي، وما ينبغي أن يعرفه العبد في إصلاح دينه، وتثبيت يقينه.

فالأول أن يعرف الإنسان ربه بدقائق صنعه، وعجائب خلقه في الكون والأرض والسماوات والبشر والعوالم كلها المرئية والمصورة، فالله تعالى قد دل بذاته على ذاته،وتنزه عن مخلوقاته،فليس كمثله شيء، وغير خاضع للاين والزمان والمكان وحوادث الأقدار، فهو المؤين وهو المقدر.

فإذا عرفت ذلك نظرت في نفسك لتعرف ما صنع بك ربك من عظيم التركيب، وجميل الخلق، وتعدد الحواس، وسلامة الأطراف، ورهافة الجوارح، وجلال العقل، وجمال التصوير.. الخ. فإذا عرفت ذلك، وأقررت به، وشاهدته عن تبصر وتفكر وإمعان، فعليك أن تعرف ما أراد منك ربك، وما فرضه عليك، وما نهاك عنه، وما حببه إليك، وما حذرك منه، وما بشرك به.

وإذا تم لك هذا العرفان، فعليك أن تعرف ما يخرجك من دينك - والعياذ بالله - فلا تقر به، ولا تصل إليه، ولا تتعامل معه، فما يخرجك من دينك هو عدوك الأكبر الذي لا يرحم، أعاذنا الله تعالى من ذلك.

ومع هذا كله فآفة العلم شيئان:

الأول: فرار الناس من العلماء.

الثاني: انخراط بعض العلماء في زمرة وعاظ السلاطين.

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: «سيأتي زمان على أمتي يفرون من العلماء كما يفر الغنم من الذئب، فإذا كان كذلك ابتلاهم الله بثلاثة أشياء:

الأول: يرفع البركة من أموالهم.

الثاني: يسلط عليهم سلطاناً جائراً.

الثالث: يخرجون من الدنيا بلا إيمان».

والبلاء الثاني ما جاء في الحديث الشريف: «إذا رأيتم الأمراء على أبواب العلماء،فقولوا: نعم العلماء ونعم الأمراء، وإذا رأيتم العلماء على أبواب الأمراء، فقولوا بئس العلماء وبئس الأمراء».

وقد اقتبسه المرحوم الشيخ محمد علي الأعسم فقال:

ملـك يعاتـب عالمـاً في تركـه ... لزيـارةٍ.. فأجابـه العرفـاءُ

نخشى فعـال النـاس حيـن يرونـه ... بـئس الملـوك وبئـست العلمـاءُ

* * *

وأما الأحاديث الشريفة الواردة في فضل العلم وطلبه، وتسجيل العلماء وإعلاء شأنهم فهي بالمئات نختار منها ما بين أيدينا:

١ - عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ... به يطاع الرب ويعبد، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، العلم إمام العقل، والعقل تابعه، يُلهم به السعداء، ويحرمه الأشقياء»[١].

٢ - وعنه - صلى الله عليه وآله -: (أكثر الناس قيمة أكثرهم علما،

(١) الطوسي / الأمالي: ٤٨٨.

وأقل الناس قيمة أقلهم علماً)[١].

٣ – وعنه – صلى الله عليه وآله –: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل الجهاد وأهل العلم»[٢].

٤ – وعنه – صلوات الله عليه –: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء، ودماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»[٣].

٥ – وعنه – صلى الله عليه وآله –:

«إن فضل العالم على العابد،كفضل الشمس على الكواكب، وفضل العابد على غير العابد كفضل القمر على الكواكب»[٤].

٦ – وعن الإمام علي – عليه السلام –:

«إن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوت الأبدان من الضعف»[٥].

٧ – عن الإمام الصادق – عليه السلام –: «لو علم الناس في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج»[٦].

٨ – عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن العلماء ورثة الأنبياء»[٧].

---

(١) الصدوق / الأمالي: ٧٣.

(٢) المتقي الهندي / كنز العمال: الحديث رقم (١٠٦٤٧).

(٣) السيوطي / الدر المنثور: ٣/٤٢٣.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار: ٢/١٩.

(٥) الصدوق / الأمالي: ٧١٣.

(٦) عوالي اللآلي: ١/٢٨٥.

(٧) الكليني / الكافي: ١/٣٢.

٩ - عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

«طالب العلم طالب الرحمة، طالب العلم ركن الإسلام، ويعطى أجره مع النبيين»[١].

١٠ - عن الإمام الكاظم موسى بن جعفر - عليه السلام -:

«لا علم إلاّ من عالم رباني، ومعرفة العالم بالعقل»[٢].

١١ - عن الإمام زين العابدين - عليه السلام -:

«حق سائسك بالعلم: التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، وان لا ترفع عليه صوتك، وأن لا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدث في مجلسه أحداً، وأن تدفع عنه اذا ذكر عندك بسوء، وأن تستر عيوبه، وتظهر مناقبه، ولا تجالس له عدو، ولا تعادي له ولياً، فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله - جل اسمه - لا للناس»[٣].

١٢ - عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال:

«من استقبل العلماء فقد استقبلني، ومن زار العلماء فقد زارني، ومن جالس العلماء فقد جالسني، ومن جالسني، فكأنما جالس ربي»[٤].

---

(١) المتقي الهندي / كنز العمال، رقم الحديث (٢٨٧٢٩).

(٢) تحف العقول: ٣٨٨.

(٣) الصدوق / الخصال: ١/٥٦٧.

(٤) المتقي الهندي / كنز العمال، رقم الحديث (٢٨٨٨٣).

١٣ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«على العالم إذا علم أن لا يعنف، وإذا علم أن لا يأنف»[١].

١٤ ـ عن الإمام علي ـ عليه السلام ـ:

«إذا رأيت عالماً فكن له خادماً»[٢].

١٥ ـ عن الإمام علي ـ عليه السلام ـ:

«على المتعلم أن يدأب نفسه في طلب العلم، ولا يمل من تعلمه، ولا يستكثر ما علم»[٣].

١٦ ـ وعنه ـ عليه السلام ـ:

(من أكثر الفكر فيما تعلم أتقن عمله، وفهم ما لم يكن يفهم)[٤].

١٧ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«العلماء أمناء الله على خلقه»[٥].

١٨ ـ عن الإمام الصادق أنه قال:

«علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعوهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا، وعن أن يتسلط عليهم إبليس وشيعته»[٦].

---

(١) تنبيه الخواطر: ١/٨٥.

(٢) غرر الحكم / ٤٠٤٤.

(٣) المصدر نفسه / ٦١٩٧.

(٤) المصدر نفسه / ٨٩١٧.

(٥) المتقي الهندي / كنز العمال، رقم الحديث (٢٨٦٧٥).

(٦) الطبرسي / الاحتجاج: ١/١٣/ ٧.

١٩ – عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«قصم ظهري عالم متهتك، وجاهل متنسك، فالجاهل يغش الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه»[١].

٢٠ – وعنه سلام الله عليه: «أعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية، فان رواة العلم كثير، ورعاته قليل»[٢].

٢١ – عن الإمام الصادق (عليه السلام) انه قال:

«العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، ولا يزيده سرعةً السير من الطريق إلا بعداً»[٣].

٢٢ – عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«تناصحوا في العلم، فان خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله، وان الله سائلكم يوم القيامة»[٤].

٢٣ – عن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال:

«لا يستوي عند الله في العقوبة الذين يعلمون والذين لا يعلمون، نفعنا الله وإياكم بما علمنا، وجعله خالصاً، أنه سميع مجيب)[٥].

هذا وقد شددت الروايات على ذم علماء السوء ووعاظ السلاطين،

---

(١) منية المريد: ١٨١.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة رقم (٩٨).

(٣) الصدوق / الأمالي: ٧٠٥/٥٠٧.

(٤) الطوسي / الأمالي: ١٩٨/١٢٦.

(٥) المفيد / الإرشاد: ١ /٢٣٠.

وإتباع الجائرين من الحاكمين، ومن لم يعمل بعلمه، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "من أزداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في هذا المنحى:

«أشد الناس عذاباً عالم لا ينتفع من علمه بشيء»[٢].

وعنه - عليه السلام - أنه قال:

(ملعون ملعون عالم يؤم سلطاناً جائراً، معيناً له على جوره»[٣].

وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في ذم علماء السوء: «وهم أخر على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين بن علي وأصحابه، فإنهم يسلبونهم الأرواح والأموال، وهؤلاء علماء السوء.. يدخلون الشك والشبهة على ضعفاء شيعتنا فيضلونهم»[٤].

ونختم هذا المبحث بأنباء الإمام علي عليه السلام انحصار العلم بأهل البيت: «لو اقتبستم العلم من معدنه، وشربتم الماء بعذوبته، وادخرتم الخير من موضعه، وأخذتم الطريق من واضحه، وسلكتم من الحق نهجه، لنهجت بكم السبل، وبدت لكم الأعلام»[٥].

---

(١) تنبيه الخواطر: ٢/ ٢١.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٢/٢٧/ ٥٣.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٣٨١/٧٥.

(٤) الطبرسي / الاحتجاج / ٥١٢/٢.

(٥) الكليني / الكافي: ٣٢/٨.

قضاء الحوائج في الميزان

لقضاء حوائج البشر في الميزان الإنساني مساحة كبرى تتسع في الموروث الحضاري لأهل البيت بكثير من العناية والاعتبار،وتنشر في أحاديثهم انتشار ضوء الفجر في السماء،حتى يخيل لمن يقرؤها أنها - دون سواها - هي التي تقرب العبد إلى ربه، وتوفر ميزان أعماله بالصالحات وقد كان الحث على ذلك، والانتداب المتواتر له قولاً وعملاً، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال:

«من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها، جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق، مابين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض».

وهذا وحده داعية حافلة بالوعد الحق، وأداة ناطقة بانفصال المؤمن عن النار بخنادق هائلة من الابتعاد.

وعنه صلوات الله عليه انه قال:

«من كان في حاجة أخيه، كان الله تعالى في حاجته، ومن فرّج عن

مسلم كربة فرج الله عنه كربه من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

فأي فضيلة للمرء أفضل من أن يكون الله في قضاء حاجته أذا مشى في حاجة أخيه،وأي فرج أسمى من فرج الله اذا فرج عن أخيه كربة، فيفرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة..فإذا ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل: إذا أدخل على قلب أخيه المؤمن مسرة».

والأعظم من هذا أن المسلم أذا أجرى الله على يده فرجاً لمسلم كان كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: " من أجرى الله على يده فرجاً لمسلم فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة».

ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يحب لله فيها فقد عرضّها للدوام والبقاء، ومن لم يقم بما يحب لله فيها عرّض نعمه للزوال».

وهذا من أبلغ موارد الترغيب في قضاء حوائج الناس، ومن اشد موارد الترهيب في زوالها.

وهذه طريقة أمير المؤمنين عليه السلام في تنبيه أوليائه وحثهم على السعي في حوائج الآخرين، وهي كثيرة الورود في نصائحه وخطبه ورسائله، فقد ورد عنه أنه قال لكميل بن زياد النخعي رضي الله عنه:

«يا كميل مرّ أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فو الذي سمع الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نابته نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غرائب الإبل».

قال الشاعر:

إذا أذن اللهُ في حاجةٍ ... أتاكَ النجاحُ على رسلِهِ

فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل اللهَ من فضلهِ

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«ما أدخل رجل على مؤمن من سرور إلاّ خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله تعالى، ويوحدّ. فإذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور، فيقول: أما تعرفني؟ فيقول له من أنت؟ فيقول أنا السرور الذي أدخلتني عل فلان، فأنا اليوم أؤانس وحشتك، وألقنك حجتك، وأثبتك بالقول الثابت، واشهد مشاهدك يوم القيامة، وأشفع لك إلى ربك، وأريك منزلك في الجنة».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى، والناس في الحساب».

وهذه منزلة عظيمة مؤدّاها أن السّعي في حوائج الناس يحدث الله على منابر من نور، فلا يحاسب كما يحاسب الناس.

وهناك توجيه سديد، وحث عميق من رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم على السعي في حاجة المسلم قضيت أو لم تقضَ، يصاحب ذلك الغفران للذنوب، والبراءة من النار والنفاق.

فقد روي عنه - صلى الله عليه وآله - أنه قال: «من سعى لأخيه المسلم في حاجة، فقضيت له أو لم تقضَ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق».

وهناك بشارة عظمى من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمن يتصدى لقضاء حوائج الآخرين، لا تعادل بجزاء مهما ملا قدره وسما أثره، فيروى أنه قال: «من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفرّ عنه سبعين سيئة، فأن قضيت حاجته على يده خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فان مات خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب».

وقد أعطيت الشفاعة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي المقام المحمود الذي وعده الله به بما أورده المفسرون.

وقد روي عنه في ذلك أنه قال فيمن قضى لأخيه حاجة: «من قضى لأخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فان رجح وإلا شفعت له».

وكذلك الحال لمن أسدى خدمة للمسلمين كبرت أو صغرت فقد روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أيما مسلم خدم قوماً من المسلمين إلا أعطاه الله مثل عددهم خداماً في الجنة».

ومع هذا كله ينبغي للمؤمن أن يطلب الحاجة من أهلها، ومن المؤهلين

لها، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها».

وروي عن الإمام الحسن عليه السلام أنه كان جالساً فمرّ به سائل، فقال له الإمام: «ألا أدلك على شيء يحصل لك به الخير الكثير» قال: نعم يا ابن رسول الله، قال «إن الخليفة؟ توفيت له بنت فأذهب فعزّهِ بما أقول لك، قل له: «الحمد لله الذي سترها بجلوسك على قبرها، ولم يهتكها بجلوسها على قبرك».

فقالها الرجل، فذهب عن المعني بها الحزن، وأمر له بجائزة، وقال له: أهذا الكلام لك؟ قال: لا، ولكني تعلمته من الحسن بن علي عليه السلام قال: صدقت فانه معدن العلم والحكمة، ثم أمر له بجائزة أخرى لصدقه.

قال صفوان الجمّال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فدخل عليه رجل من أهل مكة يقال له «ميمون» فشكا إليه تعذر الكراء عليه!! فقال عليه السلام له: «قم فاعنْ أخاك» فقمتُ معه فيسّر الله كراه، فرجعت إلى مجلسي، فقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام «ما صنعت في حاجة أخيك، قلت: قضاها الله بأبي أنت وأمي، فقال عليه السلام: «أما إلي من طواف أسبوع في البيت» أي طواف سبعة أشواط حول الكعبة.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عنه:

«الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله».

ولقد كان أمير المؤمنين – عليه السلام – دقيقاً في استخلاص المعروف

إيثاراً وإنصافاً وإحساناً ومن أبرز آثاره في هذا المجال قوله: «ابذل لأخيك دمك ومالك، ولعدوك عدلك وإنصافك، وللعامة بشرك وإحسانك».

والحكمة الأولى في قوله عليه السلام تؤكد على التضحية في بذل الدم والمال للأخ المسلم، والثانية تعني الاستقامة في العدل والإنصاف، والثالثة تلخص التعايش مع جمهور الناس بالبشر والإحسان.

أداء حق المؤمن نوع من أنواع العبادة، بل هو من أفضلها عند الإمام الصادق عليه السلام فيما روي انه قال: «والله ما عبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن».

وللإمام الصادق عليه السلام إنذار لمن حبس ماله عن المؤمن وهو بحاجة إليه، فالمفروض أن يبرّه، والعرف الإسلامي أن يؤثره،وإلا فقد حرم من كرامة الله يوم القيامة فيما يطعم ويشرب.

فقد قال عليه السلام فيما روي عنه: «أيما مؤمن حبس مؤمناً عن ماله، وهو محتاج إليه لم يذق والله من طعام الجنة، ولا يشرب من الرحيق المختوم».

ويريد الإمام الصادق عليه السلام من المسلم أن يؤثر أخاه المسلم في شتى المجالات، وأن يواسيه في الضراء والسراء في المفردات التي ذكرها فيما يأتي، فقد روي أنه قال:

«المسلم أخ المسلم، وحق المسلم على أخيه أن لا يشبع ويجوع أخوه، ولا يروى ويعطش أخوه، ولا يكتسي ويعرى أخوه، فما أعظم حق المسلم على أخيه المسلم».

وفي هذا الصدد نجد الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام متفرغاً لنصح علي بن يقطين وزير الرشيد وهو من أولياء الإمام ومواليه، فقد حصر قضاء حاجة أوليائه وأتباعه ضماناً من القتل والسجن والفقر.

فروي أنه قال له: «أضمن لي واحدة أضمن لك ثلاث، أضمن لي إن لا تلقى أحداً من موالينا في دار الخلافة إلا قمت بقضاء حاجته، أضمن لك أن لا يصيبك حد السيف أبداً ولا يظلك سقف سجن أبدا، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً».

وعنه أن علياً بن يقطين كان عند حسن الظن، فما قصده أحد بحاجة إلاّ قضاها، وقد نفسّ عن المكروبين زمن الرشيد، وقام بما ينبغي لمثله أن يقوم به.

فقد روي أنه أستأذن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في ترك عمل السلطان فلم يأذن له، ويروى انه عليه السلام علل ذلك بالقول له: «لا تفعل فأن لنا بك أنساً، ولإخوانك بك عزاً، وعسى أن يجبر بك الله كسراً.

يا علي كفارة أعمالكم الإحسان إلى أخوانكم، أضمن لي واحدة أضمن لك ثلاث، أضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته، وأضمن لك أن لا يظلك سقف سجن أبدا، ولا ينالك حدّ سيف أبداً، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً.

يا علي: من سر مؤمناً فبالله بدأ، وبالنبي ثنى، وبنا ثلّث»

وبذل الجاه في قضاء حاجة المؤمن مما يحرم الله به وجه المرء من النار

والعكس بالعكس، وذلك في إضماحة من توجيه الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فيما يروى عنه أنه قال:

«ما من مؤمن بذل جاهه لأخيه المؤمن إلا حرم الله وجهه على النار، ولم يمسه قتر ولا ذلة في الدنيا والآخرة، وأصابت وجهه يوم القيامة لفحات النيران، معذباً كان أو مغفوراً له.»

ومن طرائف هذا الباب أن نعتبر قضاء حوائج الناس من المعروف الذي ندب إليه الإسلام، وقد روي عن الإمام الصادق أنه قال: «نظرت في المعروف فوجدته لا يقوم إلا بثلاث: تعجيله وستره وتصغيره»

ويبدو أن قضاء الحاجة بالقرض والاستدانة أفضل من الصدقة في كثير من الأحيان، فقد روى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«رأيت على باب الجنة مكتوباً القرض بثمانية عشر، والصدقة بعشر، قال، قلت: يا جبرئيل ما بال القرض أعظم أجراً من الصدقة؟ قال: لان صاحب القرض لا يأتيك إلا محتاجاً، وربما وقعت الصدقة على غير أهلها».

وهذا الباب تسع المعالم وعديد الظواهر، ومفرداته كثيرة جداً، ومن عائديته أن المتصدي لقضاء حوائج الناس يسرّ بعجله لأنه أدخل السرور على غيره، وأصبح قدوة للآخرين في الاستباق إلى الخيرات، والمسارعة إلى المبرّات.

وقد لا يكافئ عامل الخير في هذا المجال على عمله، فينبغي له أن يقنط ولا يصاب بخيبة الأمل، فهذه سنة الحياة في عدم الوفاء ونكران الجميل،

والناس أبناء الزمان في تقلباته وغدره ومكره، والمرء ينبغي أن يعمل لله عز وجل، وأن يصبر على ذلك، والصبر عليه من كرائم الأعمال.

ومن أنفس ما أطلعت عليه، تلك الرسالة التي كتبها الإمام الصادق عليه السلام لعبد الله النجاشي والي الأهواز، في تأكيده عليه السلام على إغاثة الملهوف، وقضاء حاجة المؤمن، وإكساء الفقراء، وإطعام الجياع، مما يعتبر من أنفس ذخائر الموروث الإنساني في الإيثار والتعاون، ويعد أرقى صحائف التوجيه البشري في الإحسان وإسداء المعروف في أجزائه ومصاديقه العديدة.

كتب الإمام الصادق عليه السلام قال: حدثني أبي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال:

«من أغاث لهفان من المؤمنين أغاثه الله يوم لا ظل إلا ظله، وآمنه يوم الفزع الأكبر، وآمنه من سوء التقلب، ومن قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله تعالى له حوائج كثيرة من أحدها الجنّة، ومن كسا أخاه المؤمن من عري كساه الله من سندس الجنة وإستبرقها وحريرها، ولم يزل يخوض في رضوان الله مادام على المكسوّ منها سلك، ومن أطعم أخاه من جوع أطعمه الله من طيبات الجنة، ومن سقاه من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن أخدم أخاه المؤمن أخدمه الله من الولدان المخلدين، وأسكنه مع أوليائه الطاهرين.

ومن حمل أخاه المؤمن...حمله على ناقة من نوق الجنة، وباهى به ملائكته المقربين يوم القيامة، ومن زوج أخاه المؤمن امرأة يأنس بها ويشد

عضده ويستريح إليها، زوجه الله من الحور العين، وآنسه بمن أحب من الصديقين ومن أهل بيت نبيه وإخوانه، وآنسهم به، ومن أعان أخاه المؤمن على سلطان جائر أعانه الله على إجازة الصراط عند زلة الأقدام ومن زار أخاه المؤمن إلى منزله، ولا لحاجة منه إليه، كتب من زوّار الله، وكان حقيقاً على الله أن يكرم زائره».

آدابُ الدعاء وتهذيبُ النفس

للدعاء آداب وشروط ندب إليها الموروث الإسلامي في تعليمات أهل البيت عليهم السلام، وليس في آدابه ولا شروطه ولا أوقاته عسر أو حرج، فالله سبحانه وتعالى يدعى على كل حال، وفي أي وقت دون قيد أو شرط، ولكن لآداب الدعاء مرجحات ينبغي الالتزام بها، ليكون الدعاء متقبلاً ومتساوقاً مع طبيعة الإنابة، والتوجه وخلوص النية.

فمن آدابه أن يكون الداعي على طهور وخشوع مخلصاً لا مرائياً، ومتوجهاً لا شارد الفكر وسوى ذلك ومظنة الدعاء في الأماكن المقدسة كالبيت الحرام والمسجد النبوي وعند ضريح النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي المسجد الأقصى وفي مسجد الكوفة وعند الضرائح الطاهرة لأئمة أهل البيت عليهم السلام والأولياء والصالحين، ومن شروطه أن تتجنب موانع الدعاء، كالظلم وأكل المال الحرام، وعقوق الوالدين والإصرار على الكبائر

بل والصغائر أيضا فإذا انتفى ذلك كله تحققت للدعاء شروطه الاعتيادية، أما أوقاته فهي كثيرة في الأيام والساعات والأشهر والمواسم، فالدعاء عند الفجر وبين الطلوعين وعند بزوغ الشمس وعند الزوال، وعند الغروب وعند صلاة العشاء، وفي السحر تلك أوقات يومية، وأبرزها الدعاء في ليالي الجمع، وآخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، وهناك أشهر للدعاء أبرزها الأشهر الحرام، رجب، شوال، ذي القعدة، ذي الحجة، رمضان الذي أنزل فيه القرآن وشهر شعبان المعظم، وآناء الليل وأطراف النهار، في الأيام والأسابيع ولكل يوم دعاؤه المخصوص به، كما إن لرمضان أدعيته الخاصة صباحاً ومساءً وعشاءً وسحراً والدعاء في الحج وعرفة، ولدى المشعر الحرام ومنى وعند الطواف، والدعاء عند الإمام الحسين في كل وقت لاسيما في ليالي الجمع وعرفة وأول رجب ونصفه والنصف من شعبان وفي كل الأوقات قائماً وقاعداً، خاشعاً خاضعاً ذليلاً متعبداً.

وآثار أهل البيت غنية بالدعاء في شتى الأغراض، ويكفي ما صرح به القرآن العظيم: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1].

وقوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾[2].

والدعاء مأثور عند أداء الواجبات والأعمال المفترضة كما دعا إبراهيم

---

(١) سورة البقرة / ١٨٦.

(٢) سورة الفرقان / ٧٧.

وإسماعيل لدى رفع القواعد من البيت الحرام.

وقد ورد عن رسول الله بما رواه الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله خير وقت دعوتم الله عز وجل فيه الأسحار، وتلا هذه الآية في قول يعقوب ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾[١].

وقال أخرهم إلى السحر[٢].

وعن رسول الله أنه قال: «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة».

ومن آداب الدعاء ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من كانت له حاجة إلى عز وجل فليبدأ بالصلاة على محمد وآله، ثم يسال حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد فإنّ الله – عز وجل – أكرم من أن يقبل الطرفين، ويدع الوسط، إذ كانت الصلاة على محمد وآل محمد لا تحجب عنه»[٣].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

«ثلاثة أوقات لا يحجب فيها الدعاء الله: في أثر المكتوبة، وعند نزول القطر، وظهور آية معجزة لله في أرضه»[٤].

والدعاء في حد ذاته مندوب إليه، فقد روى الطبرسي في «مكارم

---

(١) سورة يوسف / ٩٨.

(٢) الكليني / الكافي: ٢ /٤٧٧.

(٣) مكارم الأخلاق: ٢ /١٨.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار: ٨٥/ ٣٢١.

الأخلاق» عن رسول الله أنه قال يوماً لأصحابه:

«ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم ويدّو أرزاقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه:

«تدعون ربكم بالليل والنهار، فإن سلاح المؤمن الدعاء».

وروي عن رسول الله انه قال:

«لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا اليسر».

وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا أراد سفراً قال متضرعاً إلى الله تعالى:

«اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال، اللهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل ولا يجمعها غيرك لأن المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً».

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله يعلم حاجتك وما تريد، ولكنه يحب أن تبث إليه الحوائج».

وهذا الأمر مندوب إليه فيحسن الإلحاح في الدعاء فإن الإلحاح مظنة الإجابة فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (والله لا يلح عبد مؤمن على الله عز وجل في حاجة إلا قضاها له».

وأكد الإمام الصادق عليه السلام هذه الحقيقة بما روى عنه أنه قال:

«إن الله عز وجل كره إلحاح الناس بعضهم على بعض في المسالة، وأحب ذلك لنفسه، إن الله عز وجل يحب أن يسأل ويطلب ما عنده ».

وليس غريباً أن يدفع البلاء بالدعاء، فقد رفع بلاء أيوب بالدعاء، ولا عجب أن يداوى المرضى بالصدقة، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «داووا مرضاكم بالصدقة وادفعوا البلاء بالدعاء».

وهناك دواعٍ ومسببات لإجابة الدعاء تلخصها وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين فيروي أنه قال: «يا علي أربعة لا ترد لهم دعوة: إمام عادل ووالد لولده، والرجل يدعو لأخيه بظهر الغيب، والمظلوم يقول الله عز وجل: «وعزتي وجلالي لانتصرن لك ولو بعد حين».

وهذا الحصر بهؤلاء لا يقتصر عليه في استجابة الدعاء ولكنه ابرز المصاديق لمن لا تردّ دعوتهم، وهذا تعليم لنا أن ننظر ونعتبر ونتعظ، فالإمام العادل مستجاب الدعوة لما عمل به في ضوء الكتاب والسنة في المساواة بين الرعية، وإشاعة مبدأ العدل الاجتماعي.

والولد البار بوالده يستجاب بحقه الدعاء من أبيه لرضاه عنه، وأيما رجل دعا لأخيه المؤمن بظهر الغيب فهو مستجاب له، لأنه صادر عن نفس تحب الخير لها ولغيرها.

والمظلوم ينتصر له الله تعالى وإن طالت المدة، واشتدت المحنة فهو بعين الله تعالى، وقد التجأ إليه، والالتجاء لله عز وجل ركن وثيق، وحصن أمين فهو في رعاية جبار السماوات والأرض ولا بد لهذا الالتجاء أن يسفر عن

نصرة المظلوم.. قال الشاعر:

تنـــام عينـــك والمظلـــوم منتبـــهٌ   يـــدعو عليـــك..وعـــين الله لم تـــنم

ووصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم) بالدعاء باب متسع الجانب، وما زال يوصي أمته بذلك بشتى العبارات القيمة، فمن ذلك ما ورد عنه أنه قال:

١ - اللهمّ إني أعوذ بك من دنيا تمنع الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل».

وهذه من كلماته الجامعة، فقد أوتي صلوات الله عليه جوامع الكلم وفصل الخطاب، فهو يستعيذ بدعائه من الدنيا التي تمنع رحمة الآخرة وثوابها، ويستعيذ به من شر حياة تمنع خير الممات، ويستعيذ من أمل يمنع عمل الخير وخير العمل.

٢ - الدعاء مخ العبادة.

٣ - إن الدعاء سلاح المؤمن وعمود الدين، ونور السماوات والأرض.

٤ - ليس شيء أكرم على الله من الدعاء.

٥ - إن الله عز وجل كريم يستحي إذا بسط الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء.

٦ - إذا فتح الله على عبده الدعاء فليكثر فإن الله يستجيب له.

٧ - واستعاذ رسول الله من الكفر والفقر وعذاب القبر.

٨ - لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بذنب يصيبه.

٩ - وكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤه عقب كل صلاة: «اللهم إن مغفرتك أرجى من عملي، وإن رحمتك أوسع من ذنبي، اللهم إن لم أكن أهلاً إن أبلغ رحمتك، فرحمتك أهل أن تبلغني، لأنها وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين.»

١٠ - ويستحب للإنسان لرد الطيرة والتشاؤم أن يدعو بدعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وهذه الشذرات الثمينة من إثباج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء تدل ألفاظها على المعاني، وحكمها على المباني، وهي ليس بحاجة الى شرح وتعليل لأنها: سبوح لها منها عليها شواهد، وكل دعاء دعاه رسول الله صلوات الله عليه فهو مستجاب، ودلائل ذلك كثيرة ومن أروعها ما جرى لأئمة الكفر من قريش حينما أشتد أذاها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة حينما وضعوا الفرث والسلا على ظهره صلوات الله عليه وهو في الصلاة، فيروي أنه دعا عليهم مع انتهائه من الصلاة قائلاً:

«اللهم عليك بقريش - ثلاث مرات - فلما سمع القوم صوته ودعاؤه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته إذ قال:

«اللهم عليك بأبي جهل، وعتبة وشيبة، والوليد وأمية بن خلف» فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

(والذي بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر). وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل المسجد فرأى رجلاً من الأنصار أسمه «أبو أمامة» جالساً فيه فقال صلى الله عليه وآله وسلم له:

يا أبا أمامة مالي أراك جالساً في المسجد غير وقت الصلاة؟». قال: هموم لزمتني وديون ركبتني، يا رسول الله!!،

فقال صلوات الله عليه: «ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك، وقضى عنك دينك؟»، قال: بلى يا رسول الله!! فقال صلوات الله عليه: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت:

«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

قال: فعلت ذلك، فأذهب الله همي، وقضى ديني.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال:

«لا يرد دعاء أوله: بسم الله الرحمن الرحيم، وان أمتي يأتون يوم القيامة يقولون: بسم الله الرحمن الرحيم، فتثقل حسناهم في الميزان، فتقول الأمم: ما أثقل موازين امة محمد؟

فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

«ابتداء كلامهم ثلاثة من أسماء الله تعالى، لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت سيئات الخلق في كفة، لرجحت كفة الأسماء»

* * *

ومن أروع ما عبر به عن الدعاء، إن أمير المؤمنين – عليه السلام – سئل: كم بين السماء والأرض؟فقال (عليه السلام) "دعوة مستجابة".

فيا لها من حكمة فياضة الأداء، عجيبة الاستحضار.

قال الدكتور (الكسيس كارل) الحائز على جائزة نوبل في الطب: «إن التأثير الذي يتركه الدعاء لا يقل عن تأثير أمواج الراديو ولا أقول ذلك بصفتي مؤمناً بالله، بل بصفتي طبيباً عالجتُ الكثير من مرضاي بالدعاء، وبعد أن عجزت العقاقير الطبية عن معالجتهم».

وقد ورد بهذا الكثير من أصناف الدعاء،فروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله يعلم حاجتك وما تريد.. ولكن يحب أن تبث إليه الحوائج»

وسمع أمير المؤمنين (عليه السلام) رجلاً يقول: وهو متعلق بأستار الكعبة – يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك، وحلاوة مغفرتك.فقال الإمام (عليه السلام):

«والذي نفسي بيده، لو قلتها وعليك ملء السماوات والأرض من الذنوب لغفر لك».

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال:

«ادفعوا أفواج البلايا بالدعاء».

وكان من دعاء أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال:

«اللهم صن وجهي باليسار ولا تبدل جاهي بالإقتار، فاسترزق طعاماً رزقك من غيرك واستعطف شرار خلقك وابتلى بحمد من أعطاني وافتتن بذم من منعني وأنت من وراء ذلك ولي الإجابة والمنع».

وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد ذكر عنده عرفه والمشعر الحرام فيروى انه قال:

«ما وقف أحد بتلك الجبال إلا استجيب له فأما المؤمنون فيستجاب لهم في آخرتهم وأما الكفار فيستجاب لهم في دنياهم»

ومن غرر كلام أمير المؤمنين عليه السلام انه قال:

«ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة، ولا يفتح على عبد باب الدعاء ويغلق باب الإجابة، ولا يفتح على عبده باب التوبة ويغلق عنه باب القبول».

وعن أمير المؤمنين انه قال: «عجباً لمن يهلك والنجاة معه!! قيل له: ما هي؟ قال: الاستغفار».

والاستغفار طلب المغفرة من الله في الدعاء وسواه.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام انه إذا وقع في شيء يكرهه

قال:

«اللهم اجعل أدباً، ولا تجعله غضباً».

وعنه صلوات الله عليه للأمر المهم تقول ثلاث مرات:

«اللهم أنت لها ولكل عظيمة، ففرجها عني».

وروي عن الإمام أبي الحسن عليه السلام لمن أوجس في نفسه شيئاً «اعتصمت بك يا رب من شر ما أجد في نفسي، فاعصمني من ذلك».

وربما كان هذا لدفع الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنة والناس، والله العالم

قال طاووس اليماني: كنت في الحجر ليلة، إذ دخل الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، فقلت: رجل من أهل بيت النبوة، والله لأسمعن دعاءه، فسمعته يقول في أثناء دعائه:

«عبيدك بفنائك، وسائلك بفنائك، مسكينك بفنائك».

قال طاووس: فما دعوت بهذه إلا فرج الله عني.

هنالك أربع كلمات يفزع إليها في الشدائد، وربما نسبت الى الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)..والله العالم.

١ - قول «حسبنا الله ونعم الوكيل» لمن خاف.

٢ - لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» لمن اغتم.

٣ - «وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد» لمن مُكِر به.

٤ - و«ما شاء الله لا قوة إلا بالله » لمن أراد الدنيا بزينتها.

قال الشاعر متوجهاً الى الله سبحانه وتعالى:

يـــا مـــن تحـــل بـــذكرهِ عقـــد النوائـــب والـــشدائد

يـــا مـــن إليـــه المـــشتكى واليـــه أمـــر الخلـــق عائـــد

يـــا حـــي.. يـــا قيـــوم يـــا صـمـــد.. تـنـــزه عـــن مـــضادد

أنـــت الرقيـــب علـــى العبـــا د.. وأنـــت في الملكـــوت واحـــد

أنـــت المعـــز لـــمن أطـــا عـــك والـــمذل لكـــل جاحـــد

إنـــي دعوتـــك..والهمـــو م.. جيوشـــها نحـــوي تـطـــارد

فـــأخرج بحـــولك كـــربتي يـــا مـــن لـــه حـــسنُ العـوائـــد

❊ ❊ ❊

وفي موروث أهل البيت عليه السلام الروائي عدة أحاديث شريفة في فضل الدعاء وأدب الدعاء، والحث على الدعاء،وموانع استجابته واختار شذرات من تلك الجواهر اللآلي الغوالي:

١ - عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«أفضل العبادة الدعاء، فإذا أذن الله للعبد في الدعاء فتح له باب الرحمة، وانه لم يهلك مع الدعاء أحد»[1].

٢ - وعن الإمام الصادق عليه السلام (الدعاء أنفذ من السنان

---

(١) تنبيه الخواطر: ٢/ ٢٣٧.

الحديد)[1].

٣ - ومن وصية الإمام علي لولده الإمام الحسن عليه السلام أنّه قال:

«أعلم إن الذي بيده خزائن ملكوت الدنيا والآخرة قد أذن لدعائك وتكفل لإجابتك، وأمرك أن تسأله فيعطيك، وهو رحيم كريم لم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه.. ثم جعل في يدك مفاتيح خزائنه بما إذن فيه من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب خزائنه»[2].

٤ - عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال:

«عليك بالدعاء، فأن فيه شفاءً من كل داء»[3].

٥ - وعن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه قال:

«عليكم بسلاح الأنبياء!! فقيل: ما سلاح الأنبياء،قال: الدعاء»[4].

٦ - وعن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال:

«ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء، فما لمبتلى الذي استدر به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء»[5].

٧ - عن الإمام محمد الباقر - عليه السلام - أنّه قال: «ينبغي للمؤمن

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/ ٤٦٩.

(٢) المجلسي / البحار: ٧٧/ ٢٠٤.

(٣) مكارم الأخلاق: ٢/١٢.

(٤) الكليني: ٢/٤٦٨.

(٥) المجلسي / البحار: ٩٣/٣٠١.

أن يكون دعاؤه في الرخاء نحواً من دعائه في الشدة»[١].

٨ – وعن الإمام محمد الباقر – عليه السلام – أنه قال:

«لا تحقروا صغيراً من حوائجكم: فأن أحب المؤمنين إلى الله تعالى أسألهم»[٢].

٩ – وعن الإمام علي – عليه السلام – لما سئل عن قوله تعالى «ادعوني استجيب لكم»[٣] فما بالنا ندعو ولا نجاب؟ فقال – عليه السلام – : «لأن القلوب خانت بثماني خصال: أولها إنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه كما اوجب عليكم، فما أغنت عنكم معرفتكم شيئاً.. فأي دعاء يستجاب لكم مع هذا، وقد سددتم أبوابه وطرقه؟!»[٤].

١٠ – وعن الإمام الصادق – عليه السلام – في استجابة الدعاء وموانعه أنه قال: «إذا أراد أحدكم أن يستجاب له فليطيب كسبه، وليخرج من مظالم الناس، وإن الله لا يرفع إليه دعاء عبد وفي بطنه حرام وعنده مظلمة لأحد من خلقه»[٥].

١١ – وعن الإمام الباقر – عليه السلام – في موانع استجابة الدعاء أنه قال: «إن العبد يسأل الله الحاجة، فيكون من شأنه قضاؤها إلى اجل قريب أو

---

(١) الكليني / الكافي: ٢/ ٤٨٨.

(٢) مكارم الأخلاق: ٢/٩٧.

(٣) سورة غفر / ٦٠.

(٤) اعلام الدين / ٢٦٩، وفيه تمام الحديث.

(٥) المجلسي / بحار الأنوار: ٩٣/٣٢١.

والى وقت بطئ، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله تبارك وتعالى للملك: لا تقضي حاجته وأحرمه إياها فانه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان مني»[١].

١٢ - وعن الإمام الصادق - عليه السلام - أنه قال: «إن الله عز وجل يقول: «وعزتي وجلالي لأجيب دعوة مظلوم دعاني في مظلمة ظلِمها، ولأحد عنده مثل تلك المظلمة»[٢].

١٣ - وعن الإمام علي - عليه السلام - في عدم استجابة للظالم أنه قال: «إن الله عز وجل أوحى إلى عيسى بن مريم - عليه السلام -: قل للملأ من بني إسرائيل.. إني غير مستجيب لأحد منكم دعوة ولأحد من خلقي قبله مظلمة»[٣].

١٤ - عن الإمام الصادق - عليه السلام - أنه: جاء رجل لأمير المؤمنين - عليه السلام - فقال: إني دعوتُ الله فلم أر الإجابة، فقال عليه السلام: «لقد وصفت الله بغير صفاته وان للدعاء أربع خصال: إخلاص السريرة، وإحضار النية، ومعرفة الوسيلة، وإنصاف في المسألة فهل دعوتَ الله وأنت عارف بهذه الأربعة؟، قال: لا، قال عليه السلام: «فأعرفهن».

١٥ - روي عن سيدة نساء العالمين - عليها السلام - أنها قالت:

«من أصعد إلى الله خالص عبادته اهبط الله عز وجل له أفضل

---

(١) المصدر نفسه: ٣١٢/٧٥.

(٢) الصدوق / الخصال: ٣٣٧.

(٣) تنبيه الخواطر: ٣٠٢/١.

مصلحته»[١].

١٦ - عن الإمام الصادق - عليه السلام - في عدم استجابة الدعاء لأسباب ذكرها: «أربع لا يستجاب لهم دعاء: رجل جالس في بيته يقول: يا رب ارزقني، فيقول له: الم أمرك بالطلب؟ ورجل كانت له امرأة فدعا عليها فيقول: ألم أجعل أمرها بيدك؟، ورجلٌ كان له مالٌ فأفسده، فيقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم أمرك بالاقتصاد؟ ورجل كان له ماله فأدانه بغير بينه، فيقول له: الم أمرك بالشهادة»[٢].

(١) المصدر نفسه: ٢/١٠٨.

(٢) حميد الحسيني / منتخب ميزان الحكمة / ٢٣٨، وانظر مصدره.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الإربلي / علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٢هـ): كشف الغمّة في معرفة الأئمة، المطبعة العلمية، طهران، ١٣٨١هـ.

٣. البخاري / محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ): صحيح البخاري، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة (د. ت).

٤. البيهقي (نفسه): السنن الكبرى، طبع الهند، ١٣٤٤هـ.

٥. الترمذي / محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ): الجامع الصحيح، نشر المكتبة الإسلامية، القاهرة (د. ت).

٦. ابن أبي جمهور: غوالي اللآلي، إيران، ١٤٠٤هـ.

٧. الحاكم النيسابوري / أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين، طبعة الهند، ١٣٤٢هـ، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.

٨. ابن أبي الحديد / عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦هـ): شرح نهج البلاغة للإمام علي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٩م، ودار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٩م.

٩. الحر العاملي / محمد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ): وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، المكتبة الإسلامية، إيران.

١٠. السيوطي/جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ): الدر المنثور في التفسير بالمأثور، طبع مصر، ١٣٧٧هـ.

١١. ابن شعبة / الحسن بن علي الحرّاني الحلبي (من أعلام القرن الرابع عشر): تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: محمد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٥هـ.

١٢. ابن شهراشوب/ محمد بن علي المازندراني (ت ٥٨٨هـ): مناقب آل أبي طالب، المطبعة العلمية، طهران.

١٣. ابن الصباغ / علي بن محمد المغربي المالكي (٨٨٥هـ): الفصول المهمة في معرفة الأئمة، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨١هـ.

١٤. الصدوق / محمد بن علي بن الحسين القمي (٣٨١هـ): الأمالي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٩هـ.

١٥. الصدوق (نفسه): الخصال، منشورات جماعة المدرسين، إيران، ١٤٠٣هـ.

١٦. الصدوق (نفسه): علل الشرائع، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ.

١٧. الطبراني سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ): المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

١٨. الطبرسي/ أبو علي، الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣٣هـ.

١٩. الطبرسي، أحمد بن علي بن أبي طالب (٥٨٨هـ): الاحتجاج، دار النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ.

٢٠. الطوسي/ أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ): الاستبصار، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ.

٢١. الطوسي (نفسه): الأمالي، طبعة النجف الأشرف، العراق.

٢٢. الكليني / محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ): أصول الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ.

٢٣. المتقي الهندي / علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت ٦٧٥هـ): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبع الهند، ١٣٨١هـ.

٢٤. المجلسي/ محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١هـ): بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٢٥. محسن بن عبد الكريم الأمين العاملي (ت ١٣٥١هـ): أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ١٤٠٣م.

٢٦. محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٢٧. محمد حسين علي الصغير (نفسه): الإمام علي سيرته وقيادته في ضوء المنهج التحليلي، دار العارف، بيروت، ٢٠٠٢م

٢٨. المفيد/ محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (ت ٤١٣هـ): الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مطبعة سرور، قم، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

٢٩. النوري المحدث: الميرزا حسين النوري (ت ١٣٢٠هـ): المستدرك على وسائل الشيعة، منشورات المكتبة الإسلامية، طهران، ١٣٧٢هـ.

المحتويات

الفصل الثالث: المثلُ المتقابلة

الفصل الرابع: المثل الاجتماعية

إصدارات قسم الشؤون الفكرية والثقافية

في العتبة الحسينية المقدسة

ت	اسم الكتاب	تأليف
١	السجود على التربة الحسينية	السيد محمد مهدي الخرسان
٢	زيارة الإمام الحسين عليه السلام باللغة الانكليزية	
٣	زيارة الإمام الحسين عليه السلام باللغة الأردو	
٤	النوران ـ الزهراء والحوراء عليهما السلام ـ الطبعة الأولى	الشيخ علي الفتلاوي
٥	هذه عقيدتي ـ الطبعة الأولى	الشيخ علي الفتلاوي
٦	الإمام الحسين عليه السلام في وجدان الفرد العراقي	الشيخ علي الفتلاوي
٧	منقذ الإخوان من فتن وأخطار آخر الزمان	الشيخ وسام البلداوي
٨	الجمال في عاشوراء	السيد نبيل الحسني
٩	ابكِ فإنك على حق	الشيخ وسام البلداوي
١٠	المجاب بردّ السلام	الشيخ وسام البلداوي
١١	ثقافة العيدية	السيد نبيل الحسني
١٢	الأخلاق (تحقيق: شعبة التحقيق) جزآن	السيد عبد الله شبر

١٣	الزيارة تعهد والتزام ودعاء في مشاهد المطهرين	الشيخ جميل الربيعي
١٤	من هو؟	لبيب السعدي
١٥	اليحموم، أهو من خيل رسول الله أم خيل جبرائيل؟	السيد نبيل الحسني
١٦	المرأة في حياة الإمام الحسين عليه السلام	الشيخ علي الفتلاوي
١٧	أبو طالب عليه السلام ثالث من أسلم	السيد نبيل الحسني
١٨	حياة ما بعد الموت (مراجعة وتعليق شعبة التحقيق)	السيد محمدحسين الطباطبائي
١٩	الحيرة في عصر الغيبة الصغرى	السيد ياسين الموسوي
٢٠	الحيرة في عصر الغيبة الكبرى	السيد ياسين الموسوي
٢١ ـ ٢٣	حياة الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام) ـ ثلاثة أجزاء	الشيخ باقر شريف القرشي
٢٤	القول الحسن في عدد زوجات الإمام الحسن عليه السلام	الشيخ وسام البلداوي
٢٥	الولايتان التكوينية والتشريعية عند الشيعة وأهل السنة	السيد محمد علي الحلو
٢٦	قبس من نور الإمام الحسين عليه السلام	الشيخ حسن الشمري
٢٧	حقيقة الأثر الغيبي في التربة الحسينية	السيد نبيل الحسني
٢٨	موجز علم السيرة النبوية	السيد نبيل الحسني
٢٩	رسالة في فن الإلقاء والحوار والمناظرة	الشيخ علي الفتلاوي
٣٠	التعريف بمهنة الفهرسة والتصنيف وفق النظام العالمي (LC)	علاء محمد جواد الأعسم
٣١	الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين عليه السلام	السيد نبيل الحسني
٣٢	الشيعة والسيرة النبوية بين التدوين والاضطهاد (دراسة)	السيد نبيل الحسني
٣٣	الخطاب الحسيني في معركة الطف ـ دراسة لغوية وتحليل	الدكتور عبدالكاظم الياسري
٣٤	رسالتان في الإمام المهدي	الشيخ وسام البلداوي
٣٥	السفارة في الغيبة الكبرى	الشيخ وسام البلداوي
٣٦	حركة التاريخ وسننه عند علي وفاطمة عليهما السلام (دراسة)	السيد نبيل الحسني
٣٧	دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء ـ بين النظرية العلمية والأثر الغيبي (دراسة) من جزءين	السيد نبيل الحسني
٣٨	النوران الزهراء والحوراء عليهما السلام ـ الطبعة الثانية	الشيخ علي الفتلاوي
٣٩	زهير بن القين	شعبة التحقيق

٤٠	تفسير الإمام الحسين عليه السلام	السيد محمد علي الحلو
٤١	منهل الظمآن في أحكام تلاوة القرآن	الأستاذ عباس الشيباني
٤٢	السجود على التربة الحسينية	السيد عبد الرضا الشهرستاني
٤٣	حياة حبيب بن مظاهر الأسدي	السيد علي القصير
٤٤	الإمام الكاظم سيد بغداد وحاميها وشفيعها	الشيخ علي الكوراني العاملي
٤٥	السقيفة وفدك، تصنيف: أبي بكر الجوهري	جمع وتحقيق: باسم الساعدي
٤٦	موسوعة الألوف في نظم تاريخ الطفوف ـ ثلاثة أجزاء	نظم وشرح: حسين النصار
٤٧	الظاهرة الحسينية	السيد محمد علي الحلو
٤٨	الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين عليه السلام	السيد عبد الكريم القزويني
٤٩	الأصول التمهيدية في المعارف المهدوية	السيد محمد علي الحلو
٥٠	نساء الطفوف	الباحثة الاجتماعية كفاح الحداد
٥١	الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد	الشيخ محمد السند
٥٢	خديجة بنت خويلد أُمّة جُمعت في امرأة – ٤ مجلد	السيد نبيل الحسني
٥٣	السبط الشهيد – البُعد العقائدي والأخلاقي في خطب الإمام الحسين عليه السلام	الشيخ علي الفتلاوي
٥٤	تاريخ الشيعة السياسي	السيد عبد الستار الجابري
٥٥	إذا شئت النجاة فزر حسيناً	السيد مصطفى الخاتمي
٥٦	مقالات في الإمام الحسين عليه السلام	عبد السادة محمد حداد
٥٧	الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني	الدكتور عدي علي الحجّار
٥٨	فضائل أهل البيت عليهم السلام بين تحريف المدونين وتناقض مناهج المحدثين	الشيخ وسام البلداوي
٥٩	نصرة المظلوم	حسن المظفر
٦٠	موجز السيرة النبوية – طبعة ثانية، مزيدة ومنقحة	السيد نبيل الحسني
٦١	ابكِ فانك على حق – طبعة ثانية	الشيخ وسام البلداوي
٦٢	أبو طالب ثالث من أسلم – طبعة ثانية، منقحة	السيد نبيل الحسني
٦٣	ثقافة العيد والعيدية – طبعة ثالثة	السيد نبيل الحسني
٦٤	نفحات الهداية - مستبصرون ببركة الإمام الحسين عليه السلام	الشيخ ياسر الصالحي

٦٥	تكسير الأصنام - بين تصريح النبي ﷺ وتعتيم البخاري	السيد نبيل الحسني
٦٦	رسالة في فن الإلقاء - طبعة ثانية	الشيخ علي الفتلاوي
٦٧	شيعة العراق وبناء الوطن	محمد جواد مالك
٦٨	الملائكة في التراث الإسلامي	حسين النصراوي
٦٩	شرح الفصول النصيرية - تحقيق: شعبة التحقيق	السيد عبد الوهاب الأسترآبادي
٧٠	صلاة الجمعة– تحقيق: الشيخ محمد الباقري	الشيخ محمد التنكابني
٧١	الطفيات - المقولة والإجراء النقدي	د. علي كاظم المصلاوي
٧٢	أسرار فضائل فاطمة الزهراء عليها السلام	الشيخ محمد حسين اليوسفي
٧٣	الجمال في عاشوراء - طبعة ثانية	السيد نبيل الحسني
٧٤	سبايا آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم	السيد نبيل الحسني
٧٥	اليحموم، - طبعة ثانية، منقحة	السيد نبيل الحسني
٧٦	المولود في بيت الله الحرام: علي بن أبي طالب عليه السلام أم حكيم بن حزام؟	السيد نبيل الحسني
٧٧	حقيقة الأثر الغيبي في التربة الحسينية - طبعة ثانية	السيد نبيل الحسني
٧٨	ما أخفاه الرواة من ليلة المبيت على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم	السيد نبيل الحسني
٧٩	علم الإمام بين الإطلاقية والإشائية على ضوء الكتاب والسنة	صباح عباس حسن الساعدي
٨٠	الإمام الحسين بن علي عليهما السلام أنموذج الصبر وشارة الفداء	الدكتور مهدي حسين التميمي
٨١	شهيد باخمرى	ظافر عبيس الجياشي
٨٢	العباس بن علي عليهما السلام	الشيخ محمد البغدادي
٨٣	خادم الإمام الحسين عليه السلام شريك الملائكة	الشيخ علي الفتلاوي
٨٤	مسلم بن عقيل عليه السلام	الشيخ محمد البغدادي
٨٥	حياة ما بعد الموت (مراجعة وتعليق شعبة التحقيق) – الطبعة الثانية	السيد محمدحسين الطباطبائي
٨٦	منقذ الإخوان من فتن وأخطار آخر الزمان - طبعة ثانية	الشيخ وسام البلداوي
٨٧	المجاب برد السلام - طبعة ثانية	الشيخ وسام البلداوي
٨٨	كامل الزيارات باللغة الانكليزية (Kamiluz Ziyaraat)	ابن قولويه

٨٩	Inquiries About Shi'a Islam	السيد مصطفى القزويني
٩٠	When Power and Piety Collide	السيد مصطفى القزويني
٩١	Discovering Islam	السيد مصطفى القزويني
٩٢	دلالة الصورة الحسية في الشعر الحسيني	د. صباح عباس عنوز
٩٣	القيم التربوية في فكر الإمام الحسين عليه السلام	حاتم جاسم عزيز السعدي
٩٤	قبس من نور الإمام الحسن عليه السلام	الشيخ حسن الشمري الحائري
٩٥	تيجان الولاء في شرح بعض فقرات زيارة عاشوراء	الشيخ وسام البلداوي
٩٦	الشهاب الثاقب في مناقب علي بن أبي طالب عليهما السلام	الشيخ محمد شريف الشيرواني
٩٧	سيد العبيد جون بن حوي	الشيخ ماجد احمد العطية
٩٨	حديث سد الأبواب إلا باب علي عليه السلام	الشيخ ماجد احمد العطية
٩٩	المرأة في حياة الإمام الحسين عليه السلام ـ الطبعة الثانية ـ	الشيخ علي الفتلاوي
١٠٠	هذه فاطمة عليها السلام - ثمانية أجزاء	السيد نبيل الحسني
١٠١	وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وموضع قبره وروضته	السيد نبيل الحسني
١٠٢	الأربعون حديثا في الفضائل والمناقب- اسعد بن إبراهيم الحلي	تحقيق: مشتاق المظفر
١٠٣	الجعفريات - جزآن	تحقيق: مشتاق المظفر
١٠٤	نوادر الأخبار - جزآن	تحقيق: حامد رحمان الطائي
١٠٥	تنبيه الخواطر ونزهة النواظر - ثلاثة أجزاء	تحقيق: محمد باسم مال الله
١٠٦	الإمام الحسين عليه السلام في الشعر العراقي الحديث	د. علي حسين يوسف
١٠٧	This Is My Faith	الشيخ علي الفتلاوي
١٠٨	الشفاء في نظم حديث الكساء	حسين عبدالسيد النصار
١٠٩	قصائد الاستنهاض بالإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه	حسن هادي مجيد العوادي
١١٠	آية الوضوء وإشكالية الدلالة	السيد علي الشهرستاني
١١١	عارفاً بحقكم	السيد علي الشهرستاني
١١٢	شمس الإمامة وراء سحب الغيب	السيد هادي الموسوي
١١٣	Ziyarat Imam Hussain	إعداد: صفوان جمال الدين
١١٤	البشارة لطالب الاستخارة للشيخ احمد بن صالح الدرازي	تحقيق: مشتاق المظفر

١١٥	النكت البديعة في تحقيق الشيعة للشيخ سليمان البحراني	تحقيق: مشتاق المظفر
١١٦	شرح حديث حبنا أهل البيت يكفر الذنوب للشيخ علي بن عبد الله الستري البحراني	تحقيق: مشتاق صالح المظفر
١١٧	منهاج الحق واليقين في تفضيل علي أمير المؤمنين للسيد ولي بن نعمة الله الحسيني الرضوي	تحقيق: مشتاق صالح المظفر
١١٨	قواعد المرام في علم الكلام، تصنيف كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني	تحقيق: أنمار معاد المظفر
١١٩	حياة الأرواح ومشكاة المصباح للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي	تحقيق: باسم محمد مال الله الأسدي
١٢٠	باب فاطمة عليها السلام بين سلطة الشريعة وشريعة السلطة	السيد نبيل الحسني
١٢١	تربة الحسين عليه السلام وتحولها إلى دم عبيط في كربلاء	السيد علي الشهرستاني
١٢٢	يتيم عاشوراء من أنصار كربلاء	ميثاق عباس الحلي
١٢٣	The Aesthetics of ʻAshura	السيد نبيل الحسني
١٢٤	نثر الإمام الحسين عليه السلام	د. حيدر محمود الجديع
١٢٥	قرة العين في صلاة الليل	الشيخ ميثاق عباس الخفاجي
١٢٦	من المسيح العائد إلى الحسين الثائر	أنطوان بارا
١٢٧	ظاهرة الاستقلاب في عرض النص النبوي والتاريخ	السيد نبيل الحسني
١٢٨	الإستراتيجية الحربية في معركة عاشوراء: بين تفكير الجند وتجنيد الفكر	السيد نبيل الحسني
١٢٩	النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومستقبل الدعوة	مروان خليفات
١٣٠	البكاء على الحسين عليه السلام في مصادر الفريقين	الشيخ حسن المطوري
١٣١	تفضيل السيدة زهراء على الملائكة والرسل والأنبياء	الشيخ وسام البلداوي
١٣٢	The Prophetic Life A Concise Knowledge Of History	السيد نبيل الحسني
١٣٣	معاني الأخبار للشيخ الصدوق	تحقيق: السيد محمدكاظم
١٣٤	ضياء الشهاب وضوء الشهاب في شرح ضياء الأخبار	تحقيق: عقيل عبدالحسن
١٣٥	المنهج السياسي لاهل البيت عليهم السلام	السيد عبدالستار الجابري

١٣٦	هوامش على رسالة القول الفصل في الآل والأهل	عبدالله حسين الفهد
١٣٧	فلان وفلانة	عبدالرحمن العقيلي
١٣٨	معجم نواصب المحدثين	عبدالرحمن العقيلي
١٣٩	استنطاق آية الغار	السيد نبيل الحسني
١٤٠	دور الخطاب الديني في تغيير البنية الفكرية	السيد نبيل الحسني
١٤١	أنصار الحسين عليه السلام.. الثورة والثوار	السيد محمد علي الحلو
١٤٢	السنة المحمدية	عبدالرحمن العقيلي
١٤٣	قواعد حياتية على ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام	الشيخ علي الفتلاوي